شخص واحد يكفي

كريم العش

شخص واحد يكفي

كريم العش

تدقيق لغوي : محمد فهمي

تصميم الغلاف : عبير محمد

رقم ايداع: ٢٠٢٠/٣٦٥٨

ترقيم دولي: ٩٧٨-٩٧٧-٦٥٩٤-٩٠-٦



دار فصلة للنشر والتوزيع

العزيزيه - منيا القمح - مصر

٠٠٢٠١٠٦٧٠٠٠٧٠١

fasla.pub@gmail.com

Www.FaslaPub.Com

الطبعه الأولي يناير ٢٠٢٠



شخص واحد يكفي

كريم العش



إهداء،،

إهدائى إليكم.. أبى، آية، منة،

وأجمل أم فى الوجود..

(ذكية صلاح محمد تمام)



اعتراف (لا يُشترَط قراءته)

حاولت أن أحكى بصدق مشاعر أبطال القصة ناحية كل شىء..الرب والدين، والمال والطموح، والحب والجنس، والصداقة والغيرة، والألم والصبر، والفضل والشكر، والموت والحقيقة، ولا أقول إنى نجحت فى ذلك مائة بالمائة، فثمة كلمات حذفتها بعد أن كتبتها، وثمة كلمات نطق بها عقلى ولم يستطع أن يلفظ بها لسانى.. وثمة أشياء أخرى لم أتجرأ حتى على أن أفكر فيها.. لكننى - بصدق– حاولت، أعنى حاولت أن أفكر فيها، فلم أحاول أن أكتبها قط. بالنسبة لى أنا، الكاتب الذى أنهى عامه الواحد والعشرون منذ سبع عشرة ساعة مضت من ليلة أمس، فكل رجال القصة (على تناقضهم) يمثلوننى فى فترات متباعدة من عمرى الذى أراه طويلًا رغم إنكار الجميع، البطل الرئيسى يمثلنى (أحيانًا)، ليست تلك الأحيان التى يصاب فى إيمانه بالله، وكذلك"لؤى"يمثلنى، وفرج (عاشق اللحم الجائع دومًا) ووالد زين والعم مسعود.. وحتى بسّام، بل حتى ابن بوّاب العمارة.. وفى المقابل، فكل النساء يا عزيزتى (على اختلافهن) يمثلنك، إلا أنك أشدُّ شبها بالبطلة أكثر منى شبها بالبطل. أحيانًا، يا حبيبتى، وفى أثناء تحليقى فى مسرح القصة، أشعر أنكن كلكن متشابهات.. متشابهات جدًا للحد الذى يجعلنى أحصركن فى خانات محدودة معدودة.. هذه جميلة، وهذه خبيثة، وهذه مثيرة (خانة أخرى غير الجمال)، وهذه بلهاء.. وتلك لها

شخصية... إلخ، لا أدرى، أتكون هذه هى الحقيقة ؟ أنكن مكررات.. أم لأنكِ تستطيعين أن تتقمصى كل الأدوار فشعرتُ من بعدك أن الجميع فيه شىء يشبهك؟ أم لأنى - كما أخبرنى صديق غير مقرّب - لازلتُ مبتدئًا رغم بلوغى للواحد والعشرين عامًا وأن لديكن جميعا ما تخفون. الغريب والجميل أنكِ كنتِ قادرة فى كل صباح على أن تكونى امرأة أخرى، أظن أن الباقيات لا يستطعن ذلك.. وهذا ما يجعلك لامعة فى عينى صباح كل يوم كجنيهٍ ذهبى حديث الصّك.

لم أحكِ شيئًا مما حدث بيننا، ولعلك - أصلا - تظنين أنى أوجه كلامى هذا لأخرى غيرك، لازلت أناديها حبيبتى.. لكنى أقصدكِ أنتِ. وما أنا أشد ثقة به، أنه لن يجذبكِ اسمى على غلاف الرواية بقدر ما سيجذبكِ عنوانها.. (شخصٌ. واحدٌ. يكفى)، بالطبع لازلتِ تتذكرين هديتكِ الأخيرة لى، وتلك المطوية البلاستيكية الصغيرة الحمراء، التى طبعتِ عليها عنوان هذه الرواية دون أن تعرفى أنها قد تصير رواية ولا أنا حينها، وطبعتِ تحتها اسمى (كريم)، واسمك (.....)، وأنا أرجلُ من أن أكتب اسمكِ، فيكفى أن يعرف أصدقاؤنا أنه أنتِ من دون ذكركِ، أما القرّاء.. من لا يعرفونكِ وغالبًا لا يعرفوننى.. فلا يهمهم ما اسمكِ، بقدرِ ما يهمهم ما فعلتِ بى.. أو لى !

قد تتعجبين من أنى تركتكِ تموتين فى نهاية الرواية، مع أنها ليست الحقيقة وأنتِ لا زلتِ على قيد الحياة يمكنكِ قراءة كلماتى، لكن كل ما فى الأمر، أننى، وحين قررت أن أكتب رواية تحكى وجها آخر من قصتنا، خططت لموتك منذ أول صفحة كتبتها، ولا تتساءلى عن مدى قساوة قلبى، أو عدم

مراعاتى لعِشرة دامت لثلاثة شهور عرفتكِ فيها، فقد وافتكِ المنية منذ آخر لقاء بيننا، هذا بالنسبة لى على الأقل، فلم أجد تفسيرًا وهميًّا مرضيًّا لى، يمكننى به أن أنظر إلى كل الوعود التى اتخذناها معًا والتى لم تتحقق، غير كونكَ ميتة بلا سببٍ أو مقتولةً حتى.. أليست هذه كلماتكِ..

«لن يأخذنى منكَ غير الموت»

ولا أخفيكِ أن فكرةَ موتكِ تلك تريحنى كثيرًا، بل هى ما تمكننى من التماسك والاستمرار فى معاهدة صلحى مع الحياة، لأنى لا أتخيل إطلاقًا أننا أحياء ولكننا نعيش مفترقين، نلمح بعضنا فى المطعم والمترو والجيم، ثم نتجاهل ذلك وكأننا غرباء، أو أقارب لم يتساوَ نصيبينا فى ميراث أحدهم، ولهذه الدرجة كنتُ أنسى أحيانًا وأترحم عليكِ أو أدعو الله أن يغفر لكِ أخطاءكِ التى فعلتيها بمفردك، وأخطاءكِ التى ارتكبناها معًا. وعلى طول الرواية كنت أسعى لهذا الهدف. أهيئ الأحداث، أُصيبكِ بالأمراض، أُعرضكِ للخطر، أجبرُ قلمى على أن يقتلك.. جعلتُ البطلة خارقة مثلك، خارقة فى الجمال وفى قدرتها على جمع المال، وفى قدرتها على إقناع أى أحد بهباتها الربانية فى عينيها ويديها حين تتحدث.. وشفتيها كذلك. بل حتى أنى لقّبتها بأشدّ ألقابك كرها إليكِ، BTM ،.. ثم ولمّا لاحظت نفسى أميل إليها كما كنت أميل إليكِ، ولا أقدر على أن أذمّ فيها شيئًا، حتى تلك الأشياء التى يعتبرها البعض غير عادلة كقدرتكِ الفائقة على التمثيل والتنوع، اضطررتُ – كعادتى – للبحث عن أى سبب كى أكرهها فلم أجد، تمامًا كما لم أجد حين كنت أبحث فيكِ، حينها غيّرتها، حوّلت شعرها

الأشقر القصير إلى بنى طويل، وغمقّتُ بشرتها، وبدّلت فساتينها الزاهية إلى ملابس رسمية كموظفة استقبال فى إحدى شركات الاتصالات !.. ومع الوقت، وبينما أحاول العوم بالأحداث فتغرقنى معها، أدركت فجأة أنى أحنّ، أحنُّ إلى الماضى الحقيقى، إلى شعركِ الأشقر وبشرتك ولهجتك وفساتينك وضحكتكِ الممتلئةُ المغرقة.. وجدتُنى أحن إليكِ، ثم بدأت أتألم كلما لقبتكِ بـــ BTM على لسان أحدهم فأبتدئ فى لومه وخلق إحساس الذنب فى داخله، أو أصبتُك بمرض فأُسرع بدورى كى أشفيكِ منه أو أُدخل إحدى الشخصيات غير المتوقعة ليغير مجرى الأحداث كى لا يصيبكِ ما كنتُ أخططتُ له، وحين يتضح لى أنه لا محالة، وأنك لابد واقعة فى شباك مصايدى، أمزّق الورق وأبدأ من جديد. وفى النهاية وبينما أكتب بيدى نجاح خطتى الأخيرة الكبيرة والتى لا مفر منها، وجمعتُ كل الشخصيات ليشهدوا نهايتك، بكيتُ..

تذكرتُ وعدنا المكتوب على المقعد الحديدى فى إحدى حافلات النقل العام بالقاهرة، حيث راقبنا بعضنا وخفق قلبينا لأول مرة، ثم قررنا بعد شهر من ارتباطنا، وفى إحدى نوبات جنوننا، أن نجد تلك الحافلة ونوثق عليها ذكرى ميلاد الحب بيننا، وتذكرتُ أيضًا حين أخبرتِنى ذات مرة " بعد أن قطعتى ضحكتكِ فجأة " أن روحكِ لروحى فداءً، ثم رددت أنا بالمثل، تذكرتُ لقبكِ الذى تُفضلين سماعه من جميع الناس، ولقبكِ الآخر الذى تفضلينه منى دون غيرى، وتذكرتُ حبكِ للمرضى وانفصالك ذهنيا وقلبيا عن عالمنا حين ترين معاقا، وشعورك بالذنب كأنكِ السبب فى إعاقته..

قلّبتُ فى صورك معى، وصورك التى تظهرين فيها بمفردك، وقد أخبرتكِ سابقا أنى أحب صورك وحدكِ أكثر بكثير من صوركِ التى تظهرين فيها مع أحد، حتى معى أنا، أظن أنكِ لازلت تذكرين سبب حبى لذلك.. ثم صدمتنى صورة المحادثة القصيرة الأخيرة. فأغلقتُ الهاتف بهدوء وإلا كنت سأخسره بتحطيمه، وقررتُ تحطيمكِ..

وبعد أن متِ وقلتُ آخر كلمة على لسان البطل وأنهيتُ الرواية..

تساءلتُ، لمَ كنتِ الشخص الوحيد الذى يكفينى ؟ لمَ لا يكفينى أحد من بعدك ؟

لمَ لا أجد سببًا لأكرهكِ بعد أن هجرتك رغم اختناقى فى كل مرة أقرأ فيها محادثتنا ؟

لِمَ لم تغيرى حالتك الاجتماعية على الفيسبوك إلى غير مرتبطة بعد أن أصبحتِ غير مرتبطة ؟!

لماذا لا زالت صورتك الشخصية هى صورتى؟ أتعتبرينى ذكرى مات صاحبها الذى لطالما أحببتِه؟ أم أنكِ كما أنا.. تذهبين إلى محطة الحافلات، وتنتظرين حافلة زرقاء بعينها، ثم تجلسين على مقعد بعينه وتتحسين كلماتٍ مكتوبةٍ بخطكِ عليه؟..

أرسلتها إليكِ مرارًا رغم غضبى..«إننى غارق فى فراغ لم يستطع أحدٌ أن يملأه من بعدك، لا أحد يجيد الحب مثلك، لا أحد يهتم مثلك، لا أحد

يصبر مثلك"وقد قلتِ لى ذات مرة " حين بكيتِ أمامى للمرة الأولى " أننى دائما صاحبُ القرار فى علاقتنا، مع أننى لم أرَ ذلك، ولكن ما دمتِ كنت مصرةً على ذلك، فهل تسمحين لى أن أتخذ قرار عودتنا بعد أن أخذتُ قرار افتراقنا؟ أم أنكِ ميتة بالفعل " يا حبيبتى " ولم يعد بإمكانى غير الدعاء؟

«ثمة مأساتان فى الحياة..

الأولى، ألا تحصل على ما تريد

والثانية، أن تحصل عليه»

«أوسكار وايلد»

الباب الأول:

(١)

أتعلمون شيئًا ؟.. لم أبكِ فى حياتى أكثر من بكائى فى آخر ذلك اليوم.. كانت الدموع الدافئة تنساب دمعة تلو الأخرى.. لا أقصد أننى لم أبكِ بهذه الكثرة من قبل، بل أقصد أنه كان بكاءً من نوع آخر، من ذلك النوع الذى يمكن أن نسميه وصية.. كانت وصيتها أن أبكى، ومن وقتها، وكلما تذكرت ذلك اليوم.. مارست تنفيذ وصيتها بكل ما أوتيت من قوة وبكل ما فى عينى من ماء. ولذلك أنا أبكى الآن بالفعل.

دارت معظم الأحداث فى غرفة واحدة مع أنه يوجد فى بيتنا ثلاث غرف، إلا أن الغرفة الثانية هى غرفة والدىّ، والثالثة لا يدخلها أحد منذ أن غادر أخى الأكبر وذهب فى تلك الرحلة البعيدة التى أخبرنى عنها أبى حين كنت صغيرًا، قال أبى إنها رحلة طويلة لا يعود منها أحد، والتى عرفتُ فيما بعد أنها الموت.. وهى نفس الرحلة التى ذهبتْ هى إليها فى ذلك اليوم الذى كلما تذكرته بكيت.

ليست من أقاربى، رغم أننى كثيرًا ما كنت أتساءل.. هل هى أقرب إلى أم أفراد عائلتى الأربعة، أو الخمسة بإضافة أخى الأكبر رحّالة الرحلة الطويلة

!؟ صدقًا, لا أدرى من أين أبدأ.. أريد أن أخبركم عن كل شىء عنها، وأن أحكى لكم كل التفاصيل، لكننى لست قويًّا كما كنت أتظاهر أمامها فى أواخر أيامها.. كانت ذكية ولمّاحة وتعتنى بكل شىء يتعلق بى، حتى حين أيقنتْ هى أنها ساعتها الأخيرة، رأتنى فى تلك اللحظة أتماسك محاولًا إخبارها بتماسكى المصطنع أن تذهب فى رحلتها الطويلة ولا تقلق على ! لكن،.. إن كنتم أحببتم بصدق.. لا.. هذا ما لست أعنيه، أقصد إن أحبكم أحد بصدق.. فستعلمون كم من الصعب أن توهم قلبًا أحبك. حينها أعطتنى نصيحة أو وصية غريبة ككل شىء كانت تقوله أو تفعله لى، إذ كان يبدو غريبًا فى بدايته.. قالت:"ابكِ يا أنا".

بالطبع ليس اسمى (أنا) بل هذا ما اعتادت أن تنادى به واعتدتُ فى النهاية أن أناديها كذلك.. (يا أنا).. يا إلهى ! صدقونى أنا أبكى بحرقة الآن، لقد كانت كل ما أملك، كانت أنا، عشتُ حياة ربما افتقدها الكثير منكم أو تمناها أو كان سيحسدنى عليها إن كان صديقًا لى احكِ له كل ما يدور بينى وبينها.. لكن ليس لدى أصدقاء، أو بالأدق، ليس لدى أصدقاء يحسدوننى ! فـ (لؤى) لا يمكنه أن يحسدنى. لعله أصلا لا يعرف إحساس الحسد، وليس لديه ما أحسده عليه إلا اسمه.. (لؤى).. لديه مصيبة فى جسده ليست أكبر من مصيبتى إلا أنها مصيبة، شىء يتعبه كثيرًا ويريحنى أكثر.. لعل مصيبته هذه هى ما يجعلنى أحكى له كل أسرارى الصغيرة، كل أحلام اليقظة التى قد تخطر ببالكم أثناء تلك الخطوات التى تخطونها بعد أن تطفئوا مصباح غرفتكم وتسيروا ببطء إلى السرير، وفى

ذلك الوقت الذى تتمددون فيه بأجسامكم تحت الغطاء وتقلبون أعينكم فى ظلام الغرفة قبل أن يأخذكم النوم.. كنت أخبره بكل شىء حتى ما يدور بذهنى فى تلك اللحظات.. وفى كل مرة تنادى علىّ أمى لتخبرنى أن صديقى لؤى قد أتى، كنت أبتسم وأنظف حلقى قائلًا: "احم احم"!..كى أبدأ خطابى الطويل عن أحلامى، إذ كنت واثقًا أنه لن يقاطعنى كما كنت واثقًا أنه لن يخبر أحدًا.. فقد كان لا يتكلم، أقصد لا يستطيع الكلام، أو كما كان يعايره الأولاد والبنات فى المدرسة.. كان أخرسًا.. وحين أصابتنى أنا المصيبة الكبرى فى جسدى كانت أمى تناديني أيضًا لتخبرنى أنه أتى، ولكنه كان يأتى ويجلس بجوارى، تحت غطائى، وينظر فى عينى كى أتكلم، فلا أتكلم، فيحاول تشجيعى بصعوبة كانت ترهقنى أنا أحيانا حين يحاول أن يُخرج من حلقه الميت أى شىء يحفزنى على الكلام.. كان يجاهد كى يقول: "احم احم".. لكننى كنت أضع سبابتى على فمه وأقول:

"لم يعد لدى أحلام يا لؤى"

لكونه لا ينطق، كان يتكلم بعينيه، طوال حديثى كانت عيناه تتفاعلان معى، وكذلك حاجباه وجبهته..

أخبرته ذات مرة أننى، لما أكبر، سأصير ناظرًا لمدرستنا ! فرأيت فى وجهه تعبيرات أراحتنى كثيرًا بخلاف كل التعبيرات المستفزة التى كنت أراها حين أخبر الجميع بما أخبره به. تعجبٌ مريح مع إيمان جميل ارتسما على وجهه، ولذلك كنت دائمًا ما أحفز تعبيراته تلك لكى أراها ثانية.. أو لأرى أحدًا

يؤمن بأحلامى كلما قصصتها، وإن كان هو نفس الأحد فى كل مرة !

أخبرته أنى سأصير رئيسًا للبلاد، رئيس جمهورية مصر العربية، وسينتخبنى كل أهالى قريتنا ويضعون صورتى فى الإعلانات الدعائية بجوار اسمى.. ويلصقونها على أبواب بيوتهم. وحين أخبرته بذلك اتسعت بؤرة عينيه كما لم تتسع من قبل وكما لم تتسع بعد إلا حين أخبرته عنها.. عن أنا. لم يتكلم كعادته لكن لاستمرارية تعبيره المندهش، أحسست أنه يريد أن يسألنى، كيف ؟.. كيف سأصير رئيسًا للبلاد !؟ فأجبته دون أن يسأل:

"يا صديقى لؤى الصامت، نحن لازلنا صغارًا فى المدرسة كل ما نجيده هو لعب كرة القدم.. بالطبع أنا ألعب أفضل منك كما أنا كذلك فى كل الأشياء، ما علينا، وأيضًا لازلنا نرسم على الأكواخ ونقفز من فوق البوابة الحديدية لمدرستنا ذات الأسقف الخرسانية.. نعم لازلنا صغارًا، فلا زال لدى الوقت الواسع لأفعل ما أخبرك به.. أعدك يا لؤى أن تتباهى بى أمام أولئك الذين يسخرون منك. عندما أكبر سأصير أنا الرئيس، وسيصبحون هم مزارعون فى القرية كآبائنا، وحينها سأجمعهم جميعًا وأجعلهم يعتذرون إليك. وستظل أنت أيضًا صديقى المقرب حينها. لا تظن أننى حين أكون مشهورًا ويشاهدنى أبى وأبوك فى التلفاز أننى سأتخلى عنك، بل ربما سآخذك معى وتجلس بجوارى ليشاهدوننا سويًا فى التلفاز.. لكنك لا تستطيع الكلام يا لؤى لماذا ستظهر إذن ؟.. امممم، قد لا يصبح كل زملائنا فى المدرسة مزارعين، قد يصبح ماجد أستاذًا لما يكبر لأنه متفوق ويحبه المعلمون ولكننى سأكون الرئيس وبالتالى سيكون ناظر المدرسة صديقًا لى، وفى ذلك

الوقت سأجعله يعاقب ماجد، لأنه يسخر من عدم كلامك.. ومن كلامى "!

أيام كنت معافى فى بدنى، ومعافى فى إيمانى بالله، كانت غرفتى الصغيرة بالنسبة لى عالمًا مستقلًا بداخل عالمكم الكبير هذا. كنت موقنًا بأن للأحلام طاقة ولهذا كنت أتخيل كل شىء، بل أحلم بكل التفاصيل.. حتى أننى لأتخيل لون البذلة التى سأكون مرتديها فى الموقف الفلانى، وكيف أننى سأفتح الباب برفق وأنزل من سيارتى الفخمة بنية اللون والتى لا أعلم لها اسمًا غير أن فى مقدمتها شعارا يتكون من أربع دوائر متصلة ! كنت أتخيل أيضًا أصدقاء حقيقيين حولى, أصدقاء كثر، والعديد من الناس يهتفون باسمى فى الانتخابات !! والعديد العديد من التخيلات التى حطمتها كلمة طبيب فى عياداته لمّا دخلت عليه وأسفلى يجرف دما.

قصف بكلمته كل حصون أحلامى، مع أنه كان لى حلم أخير أنى سأقدر على المقاومة. لكن الجميع كان موقنا بأنى لن أستطيع، حتى قبل أن يقولها الطبيب: "لن تستطيع"، وحينما أقسمت أنى سأفعلها.. وأنى أستطيع.. صرخ عمى مسعود فى وجهى وأشار إلى ابنه لؤى، وقال محاولًا كبح صراخه..

"هل يمكن للؤى أن يحلم بأن يقف على مسرح الأوبرا ويغنى.. إنه فى الأصل لا يستطيع الكلام.. وكذلك أنت, أصبحت لا تستطيع الوقوف".

لا تظنوا أنى كنت أسعى للوقوف كى أغنى، فليست الأغانى من هواياتى، المهم.. لم أستطع فى النهاية كما قالوا جميعا، حتى أتت هى.

وفى حين كان جميع الأطفال يجلسون إجبارا ليذاكروا دروسهم لم يكن

والدى يجبرنى على المذاكرة فقد كان أبى يطمح إلى أن أكبر سريعا كى أعمل معه فى أعمال الغيط (الحقل الزراعى) بدلا عن أخى الذى ترك أبى بمفرده فى الغيط وذهب ليموت، ولذا لم يكن يشجعنى أن أجتهد كى أصير مدرسًا أو طبيبًا أو شيئًا من هذا القبيل.. وبالنسبة لأمى فأيضًا لم تكن تنشغل ذهنيا بكونى ربما أصير شخصًا يرتدى نظارة ويمسك قلما فى المستقبل، ليس لأنها تطمح إلى ما يطمح إليه الوالد، بل لأنه لا يمكنها أن تتخيل أنها قد تكون أُمًا لرجلٍ يحترمه الناس !، أما العم مسعود فقد كان مغرمًا بعيادات الأطباء، لدرجة أنى أحسست أنه لا يتمنى أن يصير ابنه طبيبًا إلا لكى يرى اسمه الهجين بين ثقل الماضى ورفرفة الحاضر، مزينًا إحدى لافتات عيادة ما.. (عيادة الدكتور/ لؤى مسعود) !.. لكن القدر كان أسبقًا، فلا يمكن أن يكون ثمة دكتور أخرس.. كيف سيسأل المريض"ما مشكلتك ؟"!!, وكيف سيخبر الأطفال أنه لا يخيف، وأن الدواء حلو كغزل البنات، بل كيف سيأخذ الآباء إلى خارج غرفة عمله وبعيدًا عن ضحاياه ليخبرهم أن أبناءهم لن يستطيعوا الكلام بعد الآن.. أو لن يستطيعوا الوقوف.

أحيانا كنت أتساءل هل يوجد أطباء للأحلام والخيال ؟ وذلك حينما قال ماجد لصديقى لؤى:

"أخبر الأحمق صاحبك أنه مجنون، وأن أحلامه مريضة".

وعندما بدأ هذا الموضوع يشغل ذهنى، رفع لؤى الغطاء وقام من جوارى وذهب بعيدًا عن السرير إلى حيث كتبى، ثم جلس إلى جوارى كما كان وكتب..

«لا تغضب بسببه، إنه يدّعى أن الجميع مرضى مجانين، أما أنا فلا أراك مجنونًا»

فاعتدلت فى جلستى ولم أتكلم، فقط أخذت القلم منه، ومع أنى لو تكلمت لسمعنى، لكن كتبت:

«أنا لست غاضبا بالمرة، أنا أتساءل حقا, هل يوجد أطباء للأحلام ليثبتوا له أنى أكثر الناس صحة فى عقلى وأحلامى ؟!»

كان بطيئًا فى القراءة كما هو فى الكتابة. وبعد دقيقة من تحديقه فى الورقة بدأ الاحمرار يظهر على وجهه كحبات رومان مبعثرة، وكأنه قرر ألا يظهر ردة فعل فأخذ القلم وكتب..

«لكن عقل ماجد أكثر صحة من عقلك، إنه يحصل على المركز الأول منذ أن دخلنا المدرسة فى الصف الأول الابتدائى إلى الصف الثانى الصف الثانى الإعدادى»

أتذكر أنى بمجرد أن قرأتُ ما كتب، قمت أخيرا من على سريرى، وتحركت قريبا من الباب ثم التفت إليه وقلتُ بصوت سمعه أبى وغنمه بالخارج..

«أتحداه يا لؤى.. أنا أتحداه على المركز الأول للسنة الجديدة، نعم، يجب أن أكون الأول على مدرستى بالسنة الجديدة.. سأثبت له ولك أن للأحلام طاقة، وأن لا أحد يجارينى حُلما»

(٢)

اسمى الحقيقى غير – أنا "هو"زين"، أكره الشفقة، وهوايتى هى تأليف القصص القصيرة، ليست كل القصص، بل المرعبة فقط ! هذا لا يدل على جرأتى بقدر ما يدل على خيالى الواسع كما يقولون، أما الحق فأنا جبانٌ للغاية، ليس لدى أسرارٌ غير سرٍ واحد يتعلق بى وبصديقى لؤى ولن يكون من خاسر سواى إن تم فضحُ السر، لا أدرى إن كنتُ سأخبركم به على طول قصتى أما أنه سيبقى ليكون سرًا للأبد، أختى بسنت هى أكثر طفلة مرحا على كوكب الأرض، كان هذا حين كانت فى السابعة من عمرها، ولا زالت مرحة قليلا وهى بنت الثانية عشرة، لكن أصبحت لا تقدر على أن تُظهر مرحها أمامى بعد إصابتى، ليس حزنًا منها بقدر ما أنه خوفها منى، لديها صفة أخرى غير المرح، هى خطّها الجيد. وأيضًا لا يمكنها أن تتخيل شيئًا يمكن أن يحدث فى المستقبل إلا أن تقول: (إن شاء الله). أخى فرج، وهو توأمها، غيرُ مرحٍ بالمرة، وخطّه سيئ للغاية، كما أن فهمه بطىء بعض الشىء، رغم أن لديه قدرة رهيبة على الحفظ، صفته المميزة هى حبه للحم، ويمكننى أن أصيغ ذلك بكلمات أخرى فأقول: إنه جائع دومًا.. إن صادفته يبكى فاعلم أن الأمر يتعلق بالطعام، إما أن أمى أعطته ملفوفا واحدا وهو يريد اثنين، أو أنه اشتاق إلى اللحم منذ آخر مرة، أو أنه يرى أن سمكة بسنت أكبر من سمكته.. وبالنسبة لأبى وأمى فلديهما جاموسة أنثى تلدُ لنا رضيعة صغيرة

كل ثلاثمائة وخمسة عشر يومًا، وبالتالى فهى كنز أسرتنا بالإضافة إلى بعض الأغنام النحيلة، وقطعة أرض صغيرة يقسّمها أبى فى الصيف إلى ثلاثة أثلاث يزرعها أرزًا وقطنًا وذرة، وفى الشتاء إلى نصفين..قمحٌ وبرسيم. أبى معروف فى قريتنا بضحكته العالية الممتلئة، وبأمانته أيضًا فلا تتم عملية بيعٍ أو كيلٍ أو صلح إلا بمباركته، ولا يعشق فى الدنيا مثل ابنته بسنت وصوتُ المغنية أصالة، وأمى معروفة فى بيتنا بقدرتها على تمثيل دور الأم المسكينة المظلومة التى تشقى من أجل أولادها، وهى بالفعل كذلك، لكنها تضفى لونًا سينمائيًا على أفعالها وشكوتها والتعبير عن ألمها، حتى أنى سمعتُ أبى يقول لها ذات مرة بعد أن أيقظنى من نومى بضحكته..

"والله إنكِ لأكثر براعة من عبلة كامل فى تمثيلها دور الأم"!

ليس لدى الكثير لأخبركم به عنهم، كما أنه ليس لدى ساقان كما الجميع.. بالطبع لن يحسدنى أحد على ذلك، بُترت ساقى اليسرى وأنا فى الخامسة عشرة، لكن أحدًا لم يضع لى مخدرًا؛ لأنه لم يكن ثمة وقت فقد كان الأمر فجأة.

أخبرونى أننى حصلت على المركز الأول للصف الثالث الإعدادى على مستوى مدرسة القرية، فانطلقت إلى المدرسة فأمرونى أن أذهب إلى الإدارة التعليمية فى المدينة، فرجعتُ إلى أمى وأخذتها من يدها وهى تحاول تهدئتى لتلملم عليها ثيابها، وهناك فى المدينة، حضنتنى أمى حضنًا أمام الموظفين بالإدارة شعرت أننى من صنعت هذا الحضن وأننى وبمجهودى استحققته, وفى العودة.. وقف القطار فى محطة المدينة وكنا نلهث متأخرين كى نلحقه،

وبسرعة جدًّا وكباقى الأحداث المملة التى تحدث كل يوم، ركب الناس القطار ولهث المتأخرون يقفزون بداخله قبل أن يتحرك.. نجحت أمى كما نجح جميع اللاهثين فى أن يركبوا إلا أن الله المتحكم فى كل شىء جعل عجلات القطار لا تدور إلا حين جاء دورى لأكون ناجيًا كما نجا جميع اللاهثين.

كانت بداية قصتى مع الألم، الألم الجسدى والفكرى والعاطفى..صدقونى الألم فلسفة صعبة..الدم والصراخ والشفقة، وقولهم (الحمد لله)..كان هذا صعبًا للغاية.

لما نُزعت ساقى منى عنوة، ولما مر الوقت وأصبحتُ لا أشعر بالألم, أو تعودت عليه..لا أدرى !..سألتُ نفسى عن الله، لماذا يخلق الله الألم ؟! ذلك الألم المؤلم الأليم، لماذا يخلقه الله ؟.. إنكم لن تفهموا سؤالى، فلدى كل واحد منكم ساقان ! دعونى أنزل إلى مستوى الألم الذى يمكنكم أن تشعروا به.. هناك فى مستشفى العاصمة كنت أرى الأطفال الذين قد حُلقت رؤوسهم وسقطت من وجوههم رموشهم وهم يصرخون من الألم.. فكنت أسأل أبى الذى يفزع من سؤالى..

"يا أبى، لماذا الله "الذى خلق السرطان" يرسله إلى هؤلاء الأطفال ؟.. ألم تخبرنى يومًا يا أبى أن الناس يمرضون حتى يُكفر الله عنهم سيئاتهم التى ارتكبوها طوال حياتهم !.. ألهؤلاء الأطفال آثام تستحق كل هذا الضياع فى الألم ؟ "

كان أبى يوقفنى عن إكمال أسئلتى، كان ذا لحية سوداء بها حزمة شعر بيضاء

تزين يمين لحيته، وبمجرد أن أُخبره عما يدور فى خاطرى عن الله والمرض، كان يرتفع بصوته ليطغى على صوتى..

"الحمد لله، ليك حامدين يا رب.. بيك راضيين يا رب"

إلا أنه كان لأمى رد فعل مختلف، فكانت تترجانى ألا أعلن أسئلتى هذه ولا أفكر فيها حتى !.. ثم تضع يدها على فمها وتنفجر فى البكاء، وكأن عينيها قنبلتا دموع موقوتتين.

فكرة الانتحار كان لها طعمٌ غريبٌ فى ذهنى، مع أنها لم تكن فكرة جديدة على بيتنا، فقد عايشتها مرارًا وتكرارًا حينُ أصبحتُ كبيرًا بما يكفى لأن أفهم ما معنى كون أخى على مات منتحرًا. ولمّا أحسستُ أن هذه الفكرة بدأت تراودنى شيئًا فشيئًا بعد إصابتى، وازدادت مراودتها لى كلما ازداد انعزالى فى غرفتى وتأملى فى نقصى، تساءلتُ إن كان الانتحار هو الخلاص لكل من أمسى موقنا أنه لن يكون الشخص الذى أراده دوما؟ وهل بالانتحار يتحقق حلمُ كل معاق أو عقيم أو منبوذ أو مطرود أو فقير؟ أم أن الفكرة من الانتحار هى ألا نصبح قادرين على الحلم؟ !

لم أكن أحلمُ أن أصير غنيا كما كان يحلمُ هو، أعنى أنى كنتُ أحلمُ بذلك لكن ليس إلى هذه الدرجة، فقد كنتُ متصالحًا جدا مع عمل أبى كمزارع فقير، ومع فطائر أمى التى كانت تصنعها وتبيعها ورائحة روث البهائم لا زالت تنبعث من يدها، وكنتُ أتمنى تغير أحوالهم، لكن لم يكن هذا شغلى الشاغل، فقد كنتُ أنانيا بعض الشىء، فى حين لم يتقبل أخى (على)

أن تولد أسرته فى فقر وأن تموت فقيرة كما ولدت، فقرر أن ينزل فى جولة صراع مفتوحة مع الحياة، فأجبرته الحياة على أن يستسلم استسلاما أبديا، لا تقوم له قائمة من بعده، أرغمته أن يضع السمّ فى فمه وهو يبكى حين لطمته حقيقة أن الغنى والفقر صفتان خَلقيتان كنوع الشعر وطول القامة ولون البشرة. أما حلمُ الشهرة فقد كان حلمى أنا بخلاف الجميع، فغيرى يحلم بشهادة علمية أو لقبٍ معين فى وظيفة ما، أو يحلم بالمال كأخى على.. ولا أحد يحلم برئاسة مصر إلا أنا (والإخوان المسلمون).

ليست الرئاسة فى ذاتها الحلم، بل ما تتضمنه من شهرة وصور ضخمة على مداخل المدن الكبيرة وما توجبه من أعدادٍ مهولة تشير إليك بالبنان، وبدأت بالفعل منذ الثانية عشرة من عمرى أخطو أولى خطواتى نحو هدفى، فكنت أجلس القرفصاء كأنى فى صلاة روحية حين تظهر إحدى المذيعات الجميلات فى بداية نشرة الأخبار المسائية، كنتُ أتابع بتركيز شديدٍ ولمدة نصف ساعة، كيف أنه يلتفتُ جانبا ليرى صورته المكتوب تحتها (فخامة الرئيس/ محمد حسنى مبارك)؟ وكيف أنه يتكلم فى المؤتمرات، وينظر إلى الصحفيين، ويشرب الماء، ويمسكُ القلم ؟.. وكيف أنه يضحك فيضحك الجميع؟!.. إذ كنتُ أظن فى بادئ الأمر أن الرئيس ما هو إلا ذلك الرجل الذى يجيدُ فعل الإتيكيت المناسب فى المكان أو الموقف المناسب، حتى كبرتُ وتأكدتُ من ذلك. وفى الرابعة عشرة من عمرى وقبل حادثة القطار بعام واحد، كنتُ أحاول قراءة كتاب (أحلامٌ من أبى) لبارك أوباما رئيس الولايات المتحدة الأمريكية وقتها، وحين أنهيته كان هذا هو أطول كتاب

قراءته آنذاك ولم أفهم شيئًا، غير آخر جملة فى آخر صفحة.. كتب باراك (...وفى هذه اللحظة على الأقل شعرتُ بأننى أكثر الرجال حظا على وجه الأرض.) ! رغم أنه كتب هذا الكتاب قبل أن يصير رئيسًا بعشر سنواتٍ تقريبا. وفى محاولة لاسترداد نفسى، أو تسليتها، قرأتُ الكتاب للمرة الثانية حين أهدى لى لؤى النسخة العربية الأصلية للكتاب، بعد أن ظل لمدة سبعة شهور وأحد عشر يومًا، يجمع كل ما يجنى من مال كى يشتريه لى بمبلغ ربعمائة وتسعة وتسعون جنيه، تمنيا منه أن أتراجع عن فكرة الانتحار وأعاود صداقتى بأحلامى، وأن أحمد الله على ساقى التى بقيت، وفى تلك المرة فهمتُ ما الذى كان باراك أوباما يسعى لتوضيحه فى أكثر من خمسمائة صفحة، وحين قارنتُ ما كان يشتكى بما كنتُ أشتكى، وجدتُ أننى الفائز بجدارة، وأن ألمى هو الأكبر.

كان ألم ذلك الصبى (باراك) أنه نشأ ليكتشف شذوذه عن الطبيعيين، وشذوذه عن الشاذين أيضًا، إذ إنه كان نتاج الحب الهجين بين امرأة أمريكية بيضاء، وبين الرجل الأفريقى الأسود، فلا هو أسود ينتمى إلى السود ويشعر بقضيتهم، ولا أبيض يشعر بالاحتواء بين البيض، وطوال رحلته من طفولته إلى ما بعد مراهقته وهو يبحث إلى أين ينتمى؟ وأى ثقافة يجب أن يُقلّد؟ وأى اسم يجب أن يناديه الناس به؟ (باراك) الاسم المأخوذ من (مبارك) اسم جده المسلم فى كينيا، أم (بارى) اسم الثقافة الأمريكية الشابة، التى لا زال جرح عنصرية اللون فيها يقطر ولا يلتئم رغم كل الرسميات والقوانين.. واللافتات. قارنتُ بين شماتة أصدقائه البيض حين لعب مع فتاة سوداء، وبين ساقى المفقودة..

وقارنتُ بين ذهوله حين خافت جدته البيضاء، أم والدته، عندما سألها المساعدةَ متسولٌ أسود، وبين ساقى المفقودة أيضًا.. وقارنتُ بين اضطرابه واضمحلاله وتلاشيه حين يحضر إحدى حفلات البيض، أو إحدى حفلات السود، وبين ساقى المفقودة.. وفى كل الأحوال، كان ألم ساقى المفقودة يطغى على كل ألمٍ سواه، ولأن باراك (فى كل الأحوال) كان لديه ساقان، استطاع أن يهرب بهما، وإن كان يجرى منهكًا، إلى أن وصل إلى البيت الأبيض، ليكون أول رئيس أمريكى أسود، من أصل أفريقى.

وغيرَ نقصانى فى جسدى، كان نقصانى فى عقيدتى، ولا أكثر خذلانًا ممن يسير على الطريق الخطأ، ويعلم أنه الخطأ، ويعلم أيضًا أين الطريق الصحيح! لم أكن من أولئك المجانين الذى يقولون إن الكون خُلق بلا خالق، وأن الأرض أُنشئت بلا مُنشئ، أو أولئك الأكثر جنونا، القائلين بأننا خَلقَنا خالق لكنه خَلقنا عبثا، من غير سببٍ وبلا مرد ! بل كنتُ من أولئك الموقنين بأن الله غفور رحيم، المتناسين لكون عذابه هو العذاب الأليم، فكان لا مانع لدى أن أصرخ فى أمى (على أى شىء أحمده ؟) حين تهمس فى أذنى بالحمد لله.. وبعد أن تنصرف هى وأبقى بمفردى، وأستشعر أن الله قادر على أن ينفينى من هذا العالم، أو يسخطنى قردًا، أو يأخذنى إليه، أُسرع فى الاستغفار وطلب السماح.. بل حتى مبدأ الانتحار نفسه، كان مبنيًا على كونه يغفر الذنوب جميعا، فقد كان لدى يقين أنى حين أقتل نفسى وتصعد روحى إليه، أنه سيرحمنى رغم أنه نهى عن الانتحار، وقد كنتُ أرى جنونى وتناقضى فى معتقداتى تلك، فكان ما بينى وبين ربى كما بين الطفل العاق

وأمه، وكانت تلك العلاقة صحيحة فى شطرها الأول، أنى بحاجة إليه كحاجة الطفل إلى أمه، مهما عصاها وعاقها وهرب منها.. أما الشطر الآخر، فكان خطًا تماما، لأن الأم تحتاج إلى ابنها كما يحتاج إليها، وتشربُ من حنان حضنه كما يرتوى هو، أما الله، فلا حاجة له فى عبيده، فلا تضره المعصية، ولا يحزنه العقوق، وإن كانت الأم لا يمكن أن توصف إلا بالحنان والرحمة، فالله كما أنه غفور رحيم، فهو شديد العقاب، وبجوار جنته تنحدر ناره، ولذا لم تبذل حبيبتى (أنا) جهدًا فى تصحيح إيمانى، بل اندهشتْ من مخزون الصلاح الإيمانى فى قلبى لما أزالت عنه (بوجودها فى حياتى) الغبار الذى رسّبه عناد القدر، وقسوة الابتلاء.

سألتنى (أنا) عندما حكيت لها قصة إعاقتى لأول مرة..

"هل كانت أمك " يا زين " تمسك بيدك حين كنت تقفز من خلفها فى القطار ؟"

فأجبتها أن أمى كانت ممسكة بيدى بالفعل ولولا أنها ظلت متمسكة بى حين سقطتُ بين القطار ورصيفه لكنت دهست بكاملى وذهبت لألحق بأخى..فأخبرتنى وهى تبتسم أن أمى ما أنقذتنى من الموت إلا لكى أعيش وأن الرب ما جعلنى أعيش إلا لأجل أن أقابلها.. إنها (أنا).. قالت كلامها الغريب هذا فى لقائها الثانى معى فى غرفتى ولم أفهم ما كانت تعنيه إلا بعد ثلاثة شهور.. فى لقائنا الأخير..

قبل أن أقابل حبيبتى (أنا) بأسبوع تقريبًا، دخلت بيتنا قطة ثمينة ذات بطن

ممتلئة، وهذا كثيرا ما يحدث فالقطط لا تجرؤ على الذهاب ناحية منزل العم مسعود، وذلك من أجل كلبه، وهذا ما يضطرها إلى المجىء إلينا والمبيت فى صالتنا كاستراحة أثناء ترحالهم إلى المدينة، حيث الكثير من فضلات الطعام، والسمك الذى لا يجيد المدنيون مص عظمه.. لكن أمى منعت هذه القطة بالذات، قالت إنها حامل، وأنها تخشى أن تطول زيارتها فى بيتنا وتسكن هى وأسرتها الجديدة معنا، ثم طردتها وليس معها من أحد. أيام قلائل مرّت حتى نسيت أمرها، ولم يكن إلا يوم واحد يفصل بينى وبين (أنا)، وفى ذلك اليوم، رأيت من نافذتى كلب العم مسعود وهو منهك فى البحث عن مصدر الصوت القادم من تحت طاولة علف جاموستنا ثم انقطع هذا الصوت فجأة وما لبث أن خرج الكلب وفى فمه الواسع وبين أنيابه ثلاثة أجساد منهكة لقطط صغيرة يتساقط من أجسادها الدم، كانت لا زالت حية، كانت صغيرة جدا بحجم كف أختى بسنت أو أخى فرج، صغيرة جدا لا تتحمل أنياب كلب تمزق أمعائها، ولم يكد الكلب يخرج من حوش منزلنا حتى انقضضت القطة الأم عليه تجره من ذيله وقد بدت نحيلة لا تزيد فى حجمها عن عيالها كثيرا.. فرحتُ لوجودها ثم انطفأ فرحى انطفاءً كان له دخان فى صدرى لما أسقطهم الكلب من فمه والتف إليها وفصل رأسها عن جسدها، ثم أخذ القطط الأربعة إلا رأسا وذهب هناك إلى منزل العم مسعود..صرخت فى أمى فأتت تجرى من مطبخها ورأتنى أبكى بحرقة رغم أنها ظنت أننى أنهيت كل بكائى على ساقى التى ماتت..

«ما بك يا زين؟ هل تذكرتها ثانية ؟»!

"لا يا أمى، أتذكرين القطة السمينة التى قمتِ بطردها من البيت فى الأسبوع الفائت، وقلت إنك تخشين أن تسكن هى وأطفالها معنا.. لقد قتلها كلب مسعود وأطفالها..لماذا يا أمى ؟ "

لماذا تطردونها ؟ ولماذا لا يحميها الله وصغارها ما دام أذن لهم بالحياة على أرضه ؟!.. ولماذا يمرض الشيوخ وينهارون، ولماذا تقسو الشعوب على الشعوب ؟ وتأكل الدولُ الدول ؟

ولماذا بترت ساقى ؟

ولماذا نسميه الرحيم ؟

ولماذا ماتت أنا ؟

(٣)

بخلافى كان صديقى لؤى فقد كان ذا نزعة دينية قوية، رغم أن كلانا سقى نزعته فى نفس الوقت.. إلا أنها دامت فى قلبه لوقت أطول، لا زالت النزعة فى داخله إلى يوم أن أخبرته عن قبلتى الأولى لها، وحينها تلعثم وغير من جلسته وغدا فمه يفتح ويقفل وأخيرا لما أدرك أنى لا أفهم أى شىء مما يحاول أن يقول.. جرى إلى القلم والورقة وعاد جريا كما ذهب،ثم كتب بلهفة..."يا كافر"!

كان فريسة سهلة لكل الداعين إلى الرب، وكذلك كل من يدّعون أنهم دعاة للرب.. حتى أننى صرخت فيه ذات مرة زاجرا إياه..

"ما علاقة أن تكون أخرسًا، بأن تكون أحمقًا ؟ "!

ففى الوقت الذى كنت أنتمى فيه إلى أحلامى وغرفتى الصغيرة، كان ينتمى هو إلى جماعة الإخوان المسلمين، ولم يكن انتماءً اختيارًا بل كان وراثيًا أو إجباريًا.. أو لا أدرى !، فقد كان كل ما يعرفه عن الإخوان حين قامت ثورة الخامس والعشرين من يناير أن مؤسس الجماعة هو الإمام حسن البنا عام ١٩٢٨م، أما أبوه العم مسعود فلا يعرف من يكون حسن البنا، لكنه يعرف الحاج شعبان مسئول الجماعة فى قريتنا والذى يناوله فى غرة كل

شهر ظرفا به خمسة أوراق مالية ويرسل إلى بيته حقيبة شفافة يرى بداخلها زجاجة زيت وكيسا سكر وكيسا أرز ولحوما مجمدة..

وكنت رغم استقلالى بأحلامى، أتمنى أن يحصل بيتنا على مثل هذه الحقيبة الشهرية، فقد كانت تحتوى على علبة حلويات أخبرنى لؤى أن بداخلها ما يسمى بلح الشام، وأحضره لى ذات مرة ومن بعدها قررتُ أن تكون إحدى هوايتى عندما أصير غنيًا أن آكل بلح الشام.. وهذه نتيجة حتمية لشكل الأحلام بعد أن يأكل الفقير طعام الغنى، أو ينظر الفقير إلى منزل الغنى، فبالإضافة إلى أن الفقر يجعلك تبيع صوتك الانتخابى لصاحب حقيبة الزيت والسكر الأكبر، يجعلك أيضًا تنغلق فى دائرة أحلام ضيقة سطحية، يجعلك تشترط " فيما بعد " كيسين من اللحم بدلا من كيس واحد ! أو حقيبتين بدلا من حقيبة واحدة، وتمسى هذه الأشياء وهى سقف أحلام الفقير والذى يسهل على الأحزاب السياسية الطامحة أن توصله إليه، حيث أقصى أمانيه، وبالتالى يهرب المحتاج من التفكير فى عناء قد يعانيه لأربع سنوات أو يزيد، ويركن إلى تلك اللحظة التى سيُدخل فيها الفرح على أولاده ويُجرى فى حلق كل منهم ريقه الذى أوشك أن يجف.

لم تكن حقيبتهم تلك بمثابة العون، مثلا، فى ظل الظروف الاقتصادية الصعبة التى تمرُّ بها البلاد، رغم أننى كثيرا ما كنتُ أحاول أن أجد مخرجا دينيا لأفعالهم أو حتى إنسانيا !، كنتُ أحاول أن أطرد فكرة المصلحة من رأسى، أقول لنفسى (إنهم يفعلون ذلك ابتغاء الثواب من الله) وأن ليس للأمر علاقة بالسياسة، حتى جاءت انتخابات مجلس النوّاب، أتذكرُ

أننى كنت قصيرًا حينها، أشرئب بين الناس لأتفرج أنا ولؤى على الصفوف التى صنعها أهل قريتى أمام مدرستى الابتدائية حيث مقر الانتخاب، ثم الغريبُ أن حدث عراك بلا مقدمات، الحاج شعبان مسئول الإخوان فى قريتى يتشاجر مع رجل آخر يُدعى الشيخ مصطفى، أضخم منه ولديه لحية أكبر من لحية أبى وفى منتصف جبهته ختم دائرى أسود كبير، ظنّت حبيبتى فيما بعد أن ذلك وشم، لكن الحقيقة أنها علامة الصلاة فى وجهه من أثر السجود.. صرخ الحاج شعبان فى عصبية حقيقية وهو يشير إلى أحد الشُّبان:

«أنت تعلم أنه رجلنا، عيبٌ عليك يا شيخ مصطفى.. ما كان يحق لك أن تحتويه فى جماعتكم»

فأجاب الشيخ فى هدوء شديد ينافى ضخامته:

«أنا لم أجبره على شىء، لقد أتى إلينا وقال أريد أن أدلى بصوتى لصالح حزبكم.. حزب النور»

فضرب الحاج شعبان كفًا بكف ثم نظر إلى الشاب..

«هل هذا صحيح؟ هل تنتخبهم وتتركنا ونحن من عالجنا لك أمك، لعل بيتك لا يخلو من طعام حقيبتنا بعد»!

فقال الشيخ مصطفى ولا زال هدوئه مستفزًا:

«استغفر الله، استغفر الله.. اتق الله يا شعبان، إنك لن تشترى أصوات الناس بالحلوى».

العجيبُ أن الشيخ مصطفى كان يحمل لائحة بها نفس الكلمات المكتوبة فى لائحة الحاج شعبان (نفعلها لله)، لكن صورة مرشحه غير مرشح الحاج شعبان بالطبع.

حزب النور كان الجناح السياسى لجماعة الدعوة السلفية، وقد نمى هذا الجناح بسرعة جنونية أذهلت كل القوى السياسية فى مصر، ولا يخدعنكم هذا، فقد يستدل البعض بالنظر إلى سرعة نموهم وسيطرتهم فى الساحة على أنهم ذوو مهارات سياسية، وفى هذا الاستدلال يظهر التناقض، فالسياسة تعنى الكذب والخداع والغش وإعطاء الوعود دون تنفيذها، هذا من جانب.. ومن جانب آخر، فالسياسة تعنى أيضًا جبهة إعلامٍ ومتحدثٍ رسمى وفرقًا تنظيمية ومسحُ ديموغرافى وحزبٌ له رجال يضخون المال، وللمال خزينة، وللخزينة مسئول.. وباعترافهم، فإنهم لا يجيدون أيا من ذلك، لا الكذب والخداع، ولا التنظيم والظهور على شاشات الإعلام (بخلاف الإخوان)، كما أنه ليس فيهم من رجال يضخون المال، فأبسط الأمور التى يستطيع المال إنجازها فى مصر، كصوتٍ مقابل حقيبة، لا يمكنهم إنجازها.. ولا أظننى قد أنسى صورة وجه الشيخ مصطفى لمّا سألته بعد عراكه مع الحاج شعبان..

«لماذا لا توزّعون حقائب المؤنِ كالإخوان المسلمين؟»

فأجاب:

«إن توزيع الحقائب مرحلة متقدمة جدا، لا زال أمامنا الكثير للوصول إليها.. لو كان معنا مال لافتتحنا قناة تلفزيونية، فلا لسان لنا، يتكلم

باسمنا.. وألسنة الإخوان كثيرة"

وأتذكر أيضًا أنه قال فى إحدى خطبه الوعظية التى كنت دائما ما أحب سماعها، والتى كان يرفض لؤى أن يحضرها بعد تحذير أبوه له خوفا على حقيبة الإخوان الشهرية..

"يا شباب الدعوة السلفية، ويا شباب حزب النور.. طاقتنا لا تزن قطرة فى بحر طاقاتهم، ومهما بذلنا من جهود فلن يمكننا اللحاق بهم، لكننا نريد كوادر قياديةً أيها الشباب، اتفقنا على أن نكتفى بمجلسى النوّاب والشورى وأننا لن نرشح أحدًا منا فى انتخابات رئاسة الجمهورية، لأنه ليس لدينا الشخص المناسب لحمل هذا العبء على عاتقه، لكن ماذا لو عرض علينا الرئيس القادم وزارة من إحدى الوزارات بصفتنا قوة سياسية مؤثرة، هل يمكنكم أن تشيروا إلى أحدكم وتقولوا إنه الرجل المناسب؟.. بالطبع لا، لقد فهمتم ما أعنيه الآن.. نريد قيادات"

قال هذا فى إحدى خطبه التى يتحدث فيها عن نعيم أهل الجنة وجحيم أهل النار، وذلك لم يثر تعجب أتباعه بقدر ما أثار تعجبى حينها، فكيف يجتمع الحديث عن الله والجنة والنار، وعن السياسة والرئاسة والوزارة ؟! وتلك كانت إحدى ميزاتهم الخاصة، بها وصلوا إلى راحتهم النفسية المستفزة للبعض أحيانا، وبها وصلوا أيضًا إلى قلوب المصريين (فى بادئ الأمر)، أنهم لا يفصلون الدين عن السياسة، وأنهم يرون أن أعظم سياسى فى الوجود هو رسول الله.. محمد – صلى الله عليه وسلم– يقولون إن لله فى كونه نواميس

لا تتبدل، وأن التاريخ يعيد نفسه، ولهذا فإنهم يصرّون على تعلم وتعليم سيرة حياة الرسول لأتباعهم، بل حتى لصغارهم، المسمّون عندهم بالطلائع، بل عندهم لكل موقفٍ فى العصر الحديث موقفا مشابها من أيامِ الرسول (صلى الله عليه وسلم)، ويتصرفون هاهنا كما تصرّف الرسول هناك، والخلفاء من بعده، وحين يرى المصرى العادى الذى لا زال يتخذ من الشعراوى والرافعى والطنطاوى قدوة له ومثلا لأولاده، أن لحى هؤلاء السلفيين تُشبه إلى حد كبير لحية الإمام الشعراوى، مع أنها أطول قليلا، وأن عذوبة ألسنة مشايخهم ورفرفة كلماتهم والزهد الواضح فى ملبسهم ومأكلهم تذكرهم برقة كتابات الرافعى وخواطره، فلا مفر حينها أن يضعوا علامة (صح) والتى تعنى موافق، أمام رمز الفانوس فى الورقة الانتخابية، وهو رمز حزب النور فى انتخابات مجلس النوّاب. وهاتان هما الورقتان اللتان افتقدهما الإخوان المسلمون..الورقة الأولى والتى تقول: (إن التغير يبدأ من القاعدة لا من رأس الهرم)، كسروها بل وأصروا على كسرها لمدة تسعين عاما من نشاطهم، منذ حُلم عودة الخلافة، لقد كانوا يرون (ولا زالوا) أن التغيير لن يكون إلا أمرا لآمرٍ يجلس على كرسى الحكم فى القصر الجمهورى، فكراسى الحكم هى وحدها القادرة على تغيير الناس وإصلاح أحوالهم، ولذا فكانوا لا يهتمون إطلاقا بتوعية أتباعهم، ولا يسعون إلى توسيع دائرة انتشارهم، لأنها تتسع مع الوقت باتساع رقعة مصالحهم، وبانتماء أبنائهم إلى جماعتهم بالوراثة، وذلك بخلاف السلفيين، الذين لا يجدون مانعا من دعوة السكارى وشاربى الخمر أسفل الكبارى وعلى نواصى الطرقات، والذين تعدُّ كتيبة الطلائع عندهم (وهم الأطفال تحت سن البلوغ) أهم من أعضاء مجلس اتخاذ القرار،

يقصّرون فى تثقيفهم من كل شىء إلا من ثقافة الدين (القرآن والسنة)، وقد أصابنى الهول لدقيقة حين أُقيمت الصلاة وفى المسجد شبلُ من أشبال السلفيين، فتراجع الحاج شعبان خلفا ووقف معنا فى الصف الطويل، وتقدم الشبلُ ليصلِّ بنا إماما، وكان واضحًا جدا للجميع أنه الأحق بالإمامة، إذ كان الأمهر فى قراءته القرآن، وكانت الشوكة فى حلق الحاج شعبان حينها أنه لا طلائع لهم، وكرد اعتبارٍ له، رده بنفسه، تفاخر أمام الجميع أن كل أتباع جماعته تسبق أسمائهم ألقابًا مثل: (دكتور، مهندس... حاج).

والورقة الثانية التى انتصر بها السلفيون، أنهم كانوا من الشعب المصرى الأصلى، وخسر الإخوان تلك الورقة حين تعدّوا خط الفقر الذى يسكن معظم الشعب على حافتيه، وانطلقوا ليكونوا أصحاب مشاريع خاصة، يرتدون ملابس نظيفة طيلة النهار ويديرون أعمالهم بواسطة الهاتف، وهذا ما لم يجعلهم ينتمون أبدا إلينا، نحن الشعب المصرى الكادح، إذ كان يُنظر إليهم على أنهم قوة أخرى لا تتفق مع الدولة ونظامها القائم بها أو القائمة به! إلا أنها قوة لها قواعدها وقوانينها، فالحاج الإخوانى فى قرية ما، هو الرجل الأغنى فى الغالب، والأعلى قيمة فى درجة شهادته العلمية، والأكثر حديثا فى اجتماعات القرية، وكذلك هو المسئول عن توزيع الحقائب الشهرية، فكان هذا كافيا لأن يجعله غريبا عن الباقين، وجه جديد من الوجوه التى تطلب السلطة، وإما أن تكسبها ولا نراها ثانية، أو لا تكسبها ولا نراها أيضًا إلا فى انتخابات الدورة الثانية.

كان لؤى، كما كنت أنا، من هؤلاء الذين أوشك ريقهم على أن يجف.. لكنه

كان يرويه أول كل شهر بحقيبة الإخوان المسلمين، ولا حقيبة تروى جفاف أجساد بيتنا، وعناد أبى هو السبب الوحيد فى ذلك.. فقد كان يرفض أن يأخذ الحقيبة الشهرية، لم يكن ذلك لأجل أنه يترفع عن أن يبيع صوته بكيلو من اللحم أو أنه يرفض أن يدارى عجزه أمام أطفاله و زوجته بحلوى الشام، أو أنه يؤمن بأن رأيه مؤثر وأنه لا يجوز أن يخضع لآراء رجلٍ يجيد التحدث فى المذياع والابتسام أمام الكاميرات.. لم يكن رفضه عائدًا إلى أى سبب من هذا الهراء، بل لأنه كان يريد الحصول على خمس حقائب !

كان هذا شرط أبى الوحيد والذى سمعته بأذنى وهو يعرضه فى ظلام حوش منزلنا على الحاج شعبان، ولمّا يصر أبى على ذلك فى كل مرة.. تجمعنا أمى فى حضنها، ثم تترجاه، ثم تعدد له أسماء كثيرة لرجال وعائلات فى القرية وافقوا على الحصول على حقيبة واحدة. فكان يخلل لحيته بأصابعه، وتنفلتُ بعض تعبيرات الندم من بين ملامح الغضب فى وجهه.. وحين نمسى وكل منا فى جحره لا يفكر أحدنا فى أن يتركه للحظة حتى لا يتسرب الهواء البارد إليه، يكون هو فى أعلى النخلة يحاول أن يضبط صحن المستقبِل وقد رفع صوت التلفاز إلى آخر ما يمكنه أن يصرخ حتى يستطيع سماعه وهو على نخلته إن نجح فى استقبال الإشارة.. كانت هذه الليلة تتكرر من بعد نجاح الثورة اثنتى عشرة مرة فى السنة إلى فوز الإخوان فى اكتساح مجلس الشعب.. أول مجلس بعد الثورة. وفى كل ليلة من الليالى الاثنتى عشرة تبكى أمى لأن أبى يرفض أن يأخذ الحقيبة الشهرية، فيغضب أبى ويزمجر رغم أننا نعلم أنه نادم لأنه رفض رزق الله إليه. ثم يحاول أن يعيد إلى التلفاز روحه ولمّا يفعل، ينزل

من على النخلة ويدير التلفاز قليلا ناحية سرير أمى ويقف إلى جواره مشيرا إليه وهى تنظره من خلال باب غرفتها..

«هاا... أتسمعين هذا الرجل الأصلع ذا البذلة الزرقاء ؟.. أتسمعين ما يقوله المتعلمون ؟ »

فتضع أمى إحدى يديها على رأسها، وتقول بأنفاس متقطعة تخالطها شهقات:

«لا أريد سماع شيء»

فيصيح أبى..

«إنهم يقولون أنه لا يجب علينا الانقياد وراء الإخوان، وأن نرفض أن نأخذ منهم حقيبتهم، أتدرين لماذا ؟.. لأن كرامة الإنسان تساوى أكثر من حقيبة واحدة فقط »!!

وبعد سنين ولمّا اتخذت (أنا) من قلبى سكنًا وموطنًا، افتخر أبى أمامها بأنه ما باع صوته قط، وأنه « وطوال حياته » لم يؤيد أحدًا إلا بعدما رأى خطته فى مضمار الاقتصاديات والاجتماعيات، بل وحتى فى مضمار السياسة. وذلك لأنه سمعها مرة تقول: «صوت المرء أمانة»!

ولم تكن هى أول من قالتها.. بل السبق فى ذلك لأصحاب الدعوة السلفية وذلك حين رفعوا شعار (صوتك أمانة) فى أول عملية انتخاب بعد الثورة. كانوا يصيحون بها على منابر المساجد، ويكتبونها على لافتاتهم فى المسيرات الدعائية لمرشحيهم، حتى أننى لأتذكر ذهولى فى هذه الأوقات

رغم صغرى حينها، فقد كانوا يحثون الناس على المشاركة فى الانتخابات والتركيز فى الإدلاء برأيهم ومراعاة مراقبة الله للجميع أكثر مما كانوا يحثونهم على انتخاب مرشحيهم، وحتى أنى سمعت رجلين يجلسان فى القهوة القريبة من مدرستنا، ويعبران عن مدى تفاجئهم من جهل السلفيين بالسياسة، وأعزوا ذلك إلى أن هذه تجربتهم السياسية الأولى.

كانت أولى الانتخابات لمجلس الشعب من بعد الثورة، هى أولى الانتخابات التى اكتسح فيها الإخوان مجلس الشعب بنوابهم، واجتاح الفرح قلوب شباب الإخوان، وكسا الحزن وجوه شباب طلائع السلفيين، إلا وجه الشيخ مصطفى الذى جمع الطلائع فور ظهور نتيجة الانتخابات، فاضطررتُ إلى اختلاس السمع فى مسجدهم حيث ضحك ضحكة عالية وقام خاطبا..

"لمَ الحزن يا شباب؟ لقد حصلنا على المركز الثانى فى سباق الانتخابات، حزبنا هو الحزب الثانى بعد حزبهم، وهذه تجربتنا الأولى، أتعرفون ما معنى أن نفوز بالمركز الثانى رغم تجربتنا الأولى، ورغم عوائهم حول أنه لا خبرة لنا فى السياسة؟.. إن الصحف لا تتكلم إلا على حزبكم، مرحى لكم"

ثم أطرق، وقال:

"لا أريد أن ننسى أن الإمامة حسرة وندامة على من طلبها غير مستحق لها، ونحن طلبناها فلنكن أهلا لها، ولا تنسوا أن تحرقوا صور مرشحينا الموجودة على الملصقات الدعائية فى بيوتكم، فيبدوا أنكم تجاهلتم أن الملائكة لا تدخل بيت فيه كلبٌ أو صورة"!

وعندها أدركت الفرحة العارمة على وجه الحاج شعبان حين سمع النتيجة، والفرحة المصطنعة على وجهه حين رأى الشيخ مصطفى، وعندها أيضًا تأكد اليقين المسبق فى قلبى أن الإسلاميين ليسوا طائفة واحدة، وأنهم ينقسمون إلى جماعات ودعوات متفرقة، وأن لديهم قضايا مختلفة ومبادئ سياسية مختلفة عن بعضهم البعض، بل حتى أن نظرتهم للدين مختلفة، وهذا بون واضح جدا فى معاركهم السياسية، فبقدر كُرهى لماجد كان الإخوان يكرهون من يسمون أنفسهم بالسلفيين، وازداد الكره عمقًا واتساعًا بعد نتيجة الانتخابات. إننى من أوضحت هذا الحد الفاصل بين الفريقين لكل من لؤى، و حبيبتى (أنا) فيما بعد، إذ كانا يعتقدان كما الجميع أن كل من يفتتح كلامه بقوله:"الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله"أو يحمل غصنا من شجر الأراك فى جيبه فهو فى كافة كبيرة واحدة تسمى.. الإسلاميون.. فلم يكونوا ليدركوا الاختلاف بين المبادئ العشرين التى وضعها الإمام البنّا مؤسس جماعة الإخوان، وبين الملامح الرئيسية للمنهج السلفى وتمحورهم حول القرءان والسنة (بفهم سلف الأمة)، وبين عقيدة جماعة التبليغ والدعوة فى العمل الجماعى والمشاركة فى سياسة الدولة، وبين مبالغة الخوارج واستهتار المداخلة فى حكم الحاكمين بغير ما أنزل الله، وربما يحق لساكنى المدن ألا يدركوا هذا الفرق، أما عندنا هنا فى القرى والأرياف فيمكننا أن نلاحظ هذا الفرق الشاسع حيث أن أرضنا هى الساحة الواسعة والحقل الدسم للإسلاميين بصفة عامة، إذ يمكنهم جنى أصوات الفلاحين والعمّال البسطاء، وزرع أفكارهم ومبادئهم وربما أيضًا زرع كرههم للأطراف الأخرى التى تنادى بنفس الاسم، اسم الرب..

ولا يمكننى أن أشبه ذلك بأحسن مما شبهته حبيبتى (أنا).. لمّا استطعنا أن نختلى أخيرًا بنفسينا بعد أن نجحتُ فى إلهاء عيون أمى عنا، وإرسال لؤى بعيدا إلى مجلس القرية الحكومى، وحينها ولمّا أدركتْ (أنا) أننا بمأمن عن الجميع، سألتنى:

«أتذكر عندما حدثتنى عن الإخوان وأنهم لا يريدون إلا الحصول على السلطة لأجل السلطة، وأنهم يبررون ذلك بأن قصر الحاكم هو مربط زمام تغيير الناس وتوجيههم إلى الله تعالى ؟!.. ها أنا أحب الوصول إليك كما يحبون الوصول إلى الحكم، وأدعى أن قربي منك لا يكن إلا لأجل مساعدتك على النهوض، فى حين أنى أقترب لأجلى أنا.. أريد الاستيلاء على قصر قلبك، والنوم على أسرته.. أن أنعم على موائده، وأن أتمتع بصفاء المنظر عبر شرفاته»

وحينها ضحكتُ وقلتُ مازحًا:

«لن تستطيعى السيطرة على قلبى، فقصور قلبى كالمغارات من الداخل تتيه كل من يدخل فيها بغير إذن صاحبها».

فنامت على كتفى حتى غمرتنى رياح من عبق شعرها، وقالت وهى تضع يدها على صدرى..

«ولماذا يا أنا ؟!.. سأنجح فى السيطرة على كل قصورك، اعتبرنى المرشد الأول للإخوان المسلمين !، اعتبرنى قائدة اكبر جماعة تسعى إلى كرسى الحكم فى قلبك»!!

فلثمتها وقلتُ:

"لكن النجاح فى قيادة جماعة، لا يعنى قدرتك على النجاح فى حكم دولة... كقلبى"

"إذن دعنى أصل إليه، وسترى، أجلسنى على كرسى قلبك وسأبهرك بسيطرتى على كل حاشيتك، بل وعلى كل الخدم فى قصورك".

وبالفعل استطاع الإخوان أن يصلوا إلى حكم مصر، وفوز مرشحهم د/ محمد مرسى برئاسة الجمهورية لصالح حزبهم.. حزب الحرية والعدالة، ولكنهم لم يستطيعوا السيطرة لا على الخدم ولا الرعية.. ولا حتى الحاشية !، فى حين ألجمتنى هى إلجاما، وجلست فى قلبى يوم أن جلست إلى صعدت روحها.

(٤)

طرق الباب ودخل فجأة دون أن يجيب عليه أحد، كنتُ لازلت جالسًا على سريرى كما تركنى هو قبل أن يذهب ويعود، أما هى فقد كانت جالسة بجوارى تدعى أنها نائمة على كتفى، فلما وجدَته فجأة، انتفضت ولمعت عيناها إذ لم تعد قادرة على التمثيل بحاجتها للنوم على كتفى.. وقفتْ إلى جوار السرير فى نفس الموقع الذى رآها فيه قبل أن يذهب..

أخرج قلمه وكتب..

«لن تأخذ الوردة الحمراء»**!**

قرأتُ ما كتبَ ثم قلت:

«لماذا يا لؤى ؟.. إننى أراها فى يدك، لمن أحضرتها إذن ؟»

كتب:

«قطفتها لك كما طلبت منى، مع أنى أعلم أنك ستعطيها لها وليس لأمك»**!**

ثم توقف عن الكتابة ونظر إلىّ كأنه يكتشف فى وجهى شيئًا لأول مرة، ثم عاد وكتب:

«لقد جعلتنى أسرق من أجلك، إنها تسمى سرقة حتى لو كانت وردة حمراء»

تكلمتْ حبيبتى ولا زال أثر الإحراج على وجنتيها..

«لكن يا لؤى،.. الزهرة لا يملكها أحد، أنت لم تسرقها من أحد»

فلم ينظر إليها، وهو ما جعلنى أنظر إليها بقوة وأتساءل، أليست جميلة للحد الذى يجبره على النظر إليها بعد أن جرح حياءها بدخوله المفاجئ ؟!

كتب ولم ينظر إليها بعد:

«لا، يا خاطفة قلب زين، فالوردة هناك من يملكها إنها من حديقة مجلس القرية»

فكدتُ أن أسأله عن ماذا يغضبه بالضبط، أنها سرقة، أم كونى سأهديها لأنا وليس لأمى، لكنى لاحظت توقف نزيف حيائها الوردى على وجهها فجأة، وعادت بشرتها بيضاء كما كانت، وقالت وهى تتقدم إليه وتبتسم بلهفة، وكأنها كانت تنتظر كلمته الأخيرة..

«جميل جدا، الورود ملك للمجلس، والمجلس هو مجلس القرية، وأنت أحد أفراد القرية.. أليس كذلك يا عزيزى لؤى ؟ "!

ثم تسمّرتْ مكانها وتوقفتْ عن التقدم، ونظرتْ إلى خلفها حيث أنا على سريرى، لقد نظر إليها كما كان يجب أن ينظر إليها أول مرة لمحها فيها، كما يجب أن ينظر إليها الجميع.. علمتْ كم هى جميلة حين تكلمت

عيناه بما لا يستطع لسانه أن يخبرها به.. أعطانى وردتى الحمراء ثم انصرف محدثا للباب صداعا وهو يغلقه، كان الباب سيسقط مغشيا عليه من إثره..

"لماذا صعقتِ هكذا فجأة ؟ اجلسى بجوارى، أحب ادعائك بأنك تريدين النوم وأن كتفى خير وسادة لكِ"

فقفزتْ إلى جوارى..

"لماذا لست صالحا مثله ؟ "

فقبّلتُها.. أقصد الزهرة !.. وأعطيتها إياها، فقبّلتها هى من حيث قبلتها أنا ووضعتها بين خصل شعرها.. قلتُ:

"لأن الصالح لا يحب، وأنا أحبك"

فابتسمت بهدوء دافئ ينافى هيجان قلبى وفوضاه، وهى تعود لتسند رأسها على كتفى.. قالت:

"يكفينى منك حين تكون صالحا، أن تنظر إلىّ كما نظر هو"

"صدقينى يا أنا.. لقد كنت أكثر صلاحا منه ذات يوم"

"لكنك لا تستطيع التعبير عن الحب مثله"!

تخيلتها تبتسم وهى تقول جملتها الأخيرة تلك، فهززت كتفى كيما تلتفتَ إلى لأجل ألا أفوت هذه اللحظة.. قلتُ وأنا أفهمُ ما تقصده..

«لكنه أخرس يا أنا، كيف سيجيد التعبير عن أى شىء؟ »

فقالت بتعجب:

«عيناه يا أنا، ألا ترى كيف تتكلمان ؟»

فأجبتُ:

«عيناه يا أنا لا يعبران عن الحب، بل يعبران عن الجمال، إنها يتحدثان عن جمالك».

فاقتربتْ بوجهها أكثر حتى اختلطتْ أنفاسنا..

«وأنت ألن تتعقل وتخبرنى كم أنا جميلة، أم هل سأضطر لاستعمال أسلحتنا نحن معشر النساء، وأجعل الغيرة تشتعل بداخلك».

فاعترانى الحزنُ وقلتُ:

«إنها تشتعل دوما بداخلى من دون أن تضطرى لاستعمال شىء »

ثم انسدل الحزن عن وجهى تدريجيا، وأتى طيف ابتسامة بعيدة على طرف فمى و أنا أقول:

«من دون أن تضطرى لاستعمال شىء يا مارلين»

كانت قد أنهت عامها الدراسى الجامعى الأول حين تقابلنا لأول مرة، وبالرغم من عشقها للهند ولغتها وثقافاتها المتعددة، إلا أنها تخصصت فى اللغة

الإنجليزية بكلية الألسن جامعة القاهرة، وظنّتْ أن الأفلام الهندية كفيلة وحدها بأن تعلمها اللغة الهندية، وبأن اللغة الانجليزية هى اللغة العالمية الأولى، وهذا ما تريده لتحقق أحلامها فى عالم الموضة والأزياء فيما بعد. قبل أن تستقر فى جامعة القاهرة، كانت قد قضت شهرًا واحدًا فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة (AUC) وهناك فُضح سرها الذى لا يمكنها كتمانه، وأصبحت العيون تتعلق بها بمجرد أن تصل إلى بوابة الجامعة وتتخطى رجال الأمن.. أولئك الذين يصمتون فجأة وتتوقف ضحكاتهم المتواصلة، وكلما راودتها نفسها ورفعت عينيها كى تنظر أمامها كما تفعل كل الطالبات، ازدادت نبضات قلبها وأسرعت أكثر فى مشيتها إذ يبدو أن الجميع قد لاحظ سرها المتجدد فى كل لحظة، فالكل ينظرها بل الكل يتوقف إن كان ماشيا كى يتأكد من السر الممتع، إلى أن طفح الكيل وجن جنونها لمّا علم أحد أساتذتها الجامعيين بأمرها، ودخل يبحث عنها بعينيه العجوزتين فى قاعة المحاضرات ولمّا لم يجدها سأل بهدوء ليجدها..

«لأننا فى قسم اللغة الإنجليزية فسنتكلم عن هوليود، بالطبع لهذا علاقة باللغة الأجنبية كما تعلمون.. لذلك يا شباب ويا فتيات، وعلى سبيل المزاح.. هه.. أخبرونى، من هى النجمة الهوليودية لهذه الكلية ؟ »!

فطافت كل العيون حول مركز القاعة، حيث كانت تجلس وصاح صوت غليظ يأتى من بعيد ومختلط بضحكات متقطعة..

«إنها نجمة الجامعات كلها أيها الدكتور الشاب الطازج »!

وبالطبع كان هذا يومها الأخير فى الجامعة الأمريكية بعدت أن أصبحت مغناطيس للعيون، واضطرت أن تتخلى عن المكان الذى يعترف بمستواها المادى والاجتماعى وتذهب إلى جامعة الشعب المصرى كله (جامعة القاهرة) وبعد اسبوع واحد من تركها للجامعة الأمريكية، كانت تقضى ساعتها الأولى فى جامعة القاهرة حيث تجاهلها الجميع إلى درجة أن خافت للحظة من ألا ينظر إليها أحد، وأن يكون نفس جمالها الذى جذب الجميع إليها هناك هو السبب الذى سيُنفّر الجميع عنها هنا، إذ انقضت الساعة الأولى كاملة دون أن يلاحقها أحد أو يقف أحد حين تمر.. ساعة كاملة دون أن تثير أى شىء فى نفس أى شاب من هؤلاء الجامعيين اللاهثين فى كل صباح إلى عملهم المتكرر. ولم ينقضِ اليوم إلا وقد تأكدت أن سرّها ما هو إلا لعنة أصابتها، ولا تعويذة لها إلا أن تمزق وجهها، بعد أن اكتشفته إحداهن أخيرا... وجه مارلين مونرو!

كان كل ما أعرفه وما يعرفه لؤى وأهل قريتى جميعا أن حبيبتى (أنا) جميلة جدا، بل ربما هى أجمل أنثى دخلت قريتنا، ولكن ما لم أكن أعرفه هو ماذا يعنى هذا الاسم ؟.. (مارلين مونرو)، لم أكن أعلم إلى أى مدى تصل قيمته لدى رجال ونساء القرن العشرين. وكانت بداية معرفتى بمعنى هذا الاسم فى تلك الليلة من ليالى الجمعة، والتى اقترحت فيها على (أنا) أن نستبدل الأفلام الهندية بمشاهدة فيلم كلاسيكى أمريكى، فقالت رافعةً أحد حاجبيها كعادتها حين تعبر عن ذاتها:

"إننى أشاهد الأفلام الهندية لأعرف أكثر عن ثقافتهم وتاريخهم وعاداتهم

وتعدد الأديان عندهم. لستُ مثلكَ انشغل بالمشهد والحدث عمّا وراء الحدث، فأنا أتعمق فى المشاهد بداية من وضع أطباق الطعام على الطاولة؛ وانتهاءً بكيفية الصلاة فى معابدهم مرورا بتعاملاتهم فى المواصلات والمدارس ومراسم اجتماعاتهم "!

"وماذا يا حبيبتى لو تعرفتِ على الثقافة الأمريكية كذلك، يمكنكِ أن تستمرى فى تحصيل ملاحظاتكِ من خلال نظرتكِ العميقة تلك، وأنت تشاهدين فيلمًا أمريكيًا، وأحظى أنا بالمتعة".

فوافقت بإماءة بسيطة ومترددة برأسها، ثم نقلتْ حاسبوها المحمول من أمامها إلى أمامى وقامت ببطء حذر وأغلقت الباب، ثم عادت وبعد أن اطمأنت جالسة على سريرى، حضنت ذراعى الأيمن بذراعيها وقالت فى فرحة غير متوقعة:

"ما دام أمريكيا، فليكن رومانسيًا..أو.. فليكن رومانسيًا كوميديًا"

فقلت::

"فليكن إذن"

وبدأتُ فى البحث على موقع (جوجل) كباحث مبتدئ وضيف جديد على هذه المنصة.. بحثتُ عن (فيلم رومانسى كوميدى يمكن لحبيبين أن يشاهدنه معا فى غرفة واحدة فى ليلة الجمعة) ثم.. (Enter)، فظهرت العديد من نتائج البحث، كان أول فيلم رشحه لنا جوجل هو فيلم (البعض

يفضلونها ساخنة some like it hot) فتعجبتْ هى وقالت:

"يبدو رومانسيًا لكن لا يبدو كوميديا.. يا أنا "

فقلت::

"لكنه كلاسيكى، مكتوب أنه من إنتاج سنة ١٩٥٩"

وبعد عشر دقائق من اللعب، اللعب الجائز لمن هو فى مكانى بجوارها، كان قد تم تحميل الفيلم، فأنهينا لعبنا واعتدلنا فى جلستنا وبدأ الفيلم، ولم تمر إلا ستة عشرة ثانية حتى فزعنى هول ما حدث لها وحدث منها، فقد ترك ذراعها عناق ذراعى فجأة، وانتصب رأسها على كتفها بدلا من اتكائه على كتفى وبحركة واحدة منها تحول حاسبوها إلى أكثر من قطعة متباعدة على الأرض الرطبة لغرفتى ! كانت مرة من إحدى المرات النادرة التى أكتشفُ فيها أنها مثلنا نحن باقى البشر، لديها ما يغضبها وما نسميه بنقاط الضعف ولها ماضٍ يزعجها ويتبلور هذا الماضى فى كلمة تسمعها أو شخص تراه أو موقفٍ تتعرض له.. أو حتى ممثلة يظهر اسمها فى التتر الابتدائى لفيلم ما... مارلين مونرو.. ويجعلها تبكى وتشهق كطفلة مريضة تفتقد والديها.

(٥)

حكت لى أنه بعد أن لاحظ الجميع الشبه الواضح جدا بينها وبين الممثلة الأمريكية مارلين مونرو واضطرت إلى الانتقال من الجامعة الأمريكية إلى جامعة القاهرة حيث الجمهور الأكبر.. تهافت عليها الجميع فى الجامعة الجديدة.

إنها ليست من ذلك النوع المتواضع فى التعبير عن جماله، بل تفتخر دوما بجمالها فى نظرتها ومشيتها وطريقة كلامها، أو لكى أكون صادقًا.. فأنا لا أعرف إن كانت تعبر عن جمالها بطريقتها تلك، أم أن أساليبها الأنثوية، التى تغير منها النساء، هى شىء خارج عن إرادتها، شىء من ذات جمالها لا يمكنها تغيره، كما لا يمكنها تغير وجهها الفاتن.

لم يمر إلا يومان فى جامعتها الجديدة، جامعة القاهرة، إلا ودعاها أحد أساتذتها لتقوم وتقف بجواره أمام الطلاب والطالبات جميعا، لم تكن أول من دعاها فى هذا اليوم، بل دعا قبلها وبعدها غيرها.. وإن كان ذلك لا ينفى أنه يلهث إلى ما يلهث إليه الجميع، أمرها أن تقرأ صفحة كاملة من إحدى المجلات الأجنبية والمكتوبة باللغة الانجليزية، ليشرح لزملائها مخارج الحروف من الحلق والفم والأنف، ويصحح للجميع منطقه بمثال واضح منهم، وأخيرا كانت أمامهم لا تتحرك كلوحة محبوسة فى قفص.

استطاعوا جميعا أن يروا تفاصيل وجهها، فمها الصغير، أسنانها، عيناها، شعرها الأشقر حين ذاك، جميعهم كانوا قد حاولوا التعمق فيما قبل، لكنها بتوترها ومشيتها السريعة لم تكن تسمح لعينى أحد بأن تنال شيئًا منها، مما أشعل محركات أذهانهم وأذهانهن، وجعل الجميع يبدأ فى التخيل، أما فى هذه اللحظة، استطاعوا بقيادة أستاذهم أن يأسروها.. تنهدتْ ببطء كفريسة أيقنت سقوطها ثم انفرجتْ شفتاها ونظرت إلى الحشد المغتصب نظرة جامعة ظن الكل من خلالها أنها تنظره وحده، ثم التفتت وجعلت نظرتها للأستاذ الجامعى وحده.. ابتسمت ابتسامة حزينة، ثم بدأت القراءة بالإنجليزية.

فى تلك اللحظة التى تخيل الجميع أنها لن تتكرر، وأن عليهم أن يلتقطوا بأعينهم كل ما يمكنهم من صور من كل الزوايا والاتجاهات، كانت بعض الأجهزة تسجل هذه اللحظة بالفعل، لتجعلها موجودة للأبد كى لا تحرم أحدٍ سمع عنها ولم يرها، أو رآها ثم ضاعت كطيفٍ لا يمكن لأحد أن يمسكه، أو حلم جميل من تلك الأحلام التى تأتى مرة واحدة ثم لا تتكرر، رغم الحرص على أن تتكرر، صورتها أكثر من كاميرا وأكثر من هاتف وتعاونوا جميعا على أن يخفوا أسلحتهم التى نالت منها ولمّا عادت إلى سكنها، كانت قد سبقتها إليه كاميرات الصحفيين ظن الجميع أنها أجنبية، وأرسلت القنوات والصحف مراسلين وصحافيين يتحدثون الإنجليزية، ليستطيعوا أن يتحدثوا إليها. ولما سمعها أحد المراسلين وهى تتقدم من بعيد وتتحدث إلى إحدى صديقاتها فى الهاتف؛ كى تذهب إليها إلى أن ينقضى ما أمام بيتها من زحام..

صرخ فيمن حوله..

"إنها نسخة مصرية يا ناس، إنها تتحدث العربية".

كانت الكلمات الإنجليزية القليلة التى استطاعت كاميرات هواتف الطلاب أن تلتقطها أثناء قراءتها للمجلة كفيلة بأن يظن الجميع أنها ليست مصرية، بل هى من نفس البلد التى أنجبت مارلين مونرو القديمة، ففى نفس الوقت الذى أعطت فيه لكل حرف حقه ومستحقه، كانت الكلمات تنزلق من بين شفتيها. بدت كمارلين الأولى الجميلة والحزينة كذلك. ولم يأتِ صباح اليوم التالى إلا وقد اختلفت العناوين فى الصحف، فجريدة قد وضعت صورتها كما هى دون أن تضيف لها أى تأثير وكتبت فوقها.. (مارلين مونرو بالألوان فى جامعة القاهرة)، وصحيفة أخرى حوّلت نفس الصورة إلى صورة كلاسيكية بالأبيض والأسود فقط، وكتبت.. (طالبة من أيام الزمن الجميل تثير ضجة بجامعة القاهرة) ولولا المكيف المطور والحاسوب الظاهران فى الصورة لظن الجميع أن مصورها قد التقطها فى الخمسينيات من القرن الفائت، وصحفىٌ أكثر دقة كتب فى صحيفته.. (فتاة جامعة القاهرة تفتن العجوز كما تفتن الشباب) بعد أن استطاع أن يحصل على صورة للأستاذ الجامعى، وهو ينظر إليها بطموح عينى شاب فى العشرينيات من عمره.

أخبرتنى، ويبدو من صوتها أنها تكبح فى نفسها بكاءً، بعد أن عادت لجلستها التى تفضلها محتضنة ذراعى مسندة رأسها على كتفى وحاسوبها لا زال مترامى الأطراف على أرض الغرفة، أنها رفضت كل المحاورات الصحفية

وكل الدعوات التى وجهت إليها من أجل لقاءات تلفزيونية أو مناسبات عامة، بل وبمرور الوقت ومع استمرارية انتشار الخبر، ازدادت الدعوات من منتجى ومخرجى الأفلام للمشاركة معهم فى الأعمال السينمائية إلا أنها رفضت، لم تكن تتخيل أنها تقليد لشىء ما، إنها تحب انبهار الجميع بها لكن لا تحب انبهارهم لأجل أنها تشبه شيئًا يحبونه، بل تريد أن تكون نظرتهم لها لا تذكرهم إلا بها، لا بغيرها، وكان والدها السعيد يسمع أخبار شهرتها من التلفاز كالعامة بل لم يفعل شيئًا حيال ما تعرضت له، إلا أنه اتصل بها بعد انتشار فيديو الجامعة وسألها إن كانت بخير أم لا، ثم لم يتعرض لأى تفاصيل لما حدث، وخجلتْ هى كذلك من أن تناقشه فى أى شىء لأنها هى من حددت الطريقة التى يعاملها بها أبوها منذ أن دخلت الجامعة، بل وأصرّت على تلك الطريقة وذلك عقب علاقة حب عاشتها فى مدرسة الثانوية الخاصة، انتهت هذه العلاقة باحتجاز عاشقها فى مستشفى الأمراض العقلية بالعباسية، وكان من الممكن أن تكون هذه الحادثة هى أول ما يظهرها للناس، لكن أبوها المعروف فى مدينته بالثرى المرح السعيد، دفع أموالًا طائلة ليتم كتم الخبر إعلاميًا، ليس خوفًا على ابنته من الشهرة بقدر ما هو خائف على نفسه من أن تشار إليه أصابع الاتهام. فلم تكن مشكلتها كمشاكل مثيلاتها من صديقاتها، ولم تكن قصة عشيقها (بسّام) هى القصة المكررة فى أفلام السينما المصرية والهندية والتى تتلخص فى أن شابًا فقيرًا من قرية ما يقع فى حب فتاة جميلة وثرية من بلدة أخرى ويسعى جاهدًا للحصول عليها، ثم ينتهى الفيلم بأن يقتله والد الفتاة أو يهدده أو يهدد ابنته أو أيا يكن من النهايات المحفوظة، بل كان عشيقها أكثر ثراءً من

أبيها نفسه، وكان من عائلة ذات جذور متينة فى مكاتب حكم مصر منذ حرب السادس من أكتوبر. لكن المشكلة كلها كانت فى قلب هذا الشاب العاشق الولهان، فلم يتوقف الحب فى قلبه عند هذا الحد المتعارف عليه عند العشاق وأهل الحب، بل اخترقت قلبه حين رآها لأول مرة أثناء إحدى الرحلات المدرسية الخاصة بالصف الثالث الثانوى. كان بسّام طالبًا جديدًا فى مدرستها إذ درس عامه الأول الثانوى، وكذلك الثانى بالإمارات العربية المتحدة ثم عاد إلى وطنه ليحصل على الشهادة الثانوية المصرية، وبالطبع كان حديث فتيات مدرستها، فبالإضافة إلى ثراء عائلته ووضعها السياسى والاجتماعى فى مصر فإن لديه ما ليس لدى غيره ممن يتحدث العربية، لديه ملامح أوربية جميلة موروثة من أمه ولهجة غريبة خاصة به تجمع بين اللهجة المصرية الاسكندرانية والخليجية المطورة، وكالعادة، يكفى تجاهلها للجميع أن يلفت انتباهه إليها، وهذا ما اعترف لها به فيما بعد، فقد أخبرتنى قائلة وهى تحدثنى عنه بحنين أصاب الغيرة فى قلبى..

"لم تكن قصة الحب الوحيدة التى عشتها يا (أنا)، ولكنها كانت آخر قصة لى قبل ألقاك، قال لى ذات مرة ما تقوله أنت دائما، قال أنه لو كانت ثمة فتاة أخرى لا تملك جمالى لكنها تملك صفاتى لأحبها أيضًا، وكان يقول أن السر ليس فى عينى بل فى نظرتى، لا أدرى يا زين كيف يكون لهذا الحكيم مرض فى عقله ؟"!

سرعان ما تحول إعجابه بها فى رحلة المدرسة إلى شغف، ومن ثم ولع، ثم عشق.. وأخيرا تعلقٌ، تعلقَ بها حتى أضر بنفسه وبها، أهمل جسده فأصبح

ذابلا من قلة طعامه وشرابه، بل حتى ماء الاستحمام لم يستطع أن ينل من جسده شيئًا إلا بالإكراه على ذلك حين اتصل الخدم بوالده فترك أعماله فى مدينة دبى وجاء مسرعًا يجثو إليه..

لم تستطع حبيبتى (أنا) أن تمنع دمعتها لمّا وصلت بقصتها إلى هنا، قالت إنه قد جاء لأبيها اتصال هاتفى بواسطة رقم مجهول وكانت المفاجأة أن المتصل هو والد بسّام، ترجى والده والدها بأن يسمح لها بزيارتها لابنه ولو لمرة أخيرة كى يهدأ ويستطيع النوم. كانت (أنا) قد مُنعت من مقابلته طوال شهرين سابقين وذلك إجبارا من والده الذى لم يجد ما يفعله حيال هذا الشاب الذى لا يشبع من المكوث مع ابنته، وفى كل مرة كان يطرده فيها من منزله ويخبره أنه لا يجب أن يكون الحب بهذه الطريقة، سرعان ما يأمر الخدم بالاستيقاظ ولا ينام إلا فى غرفة ابنته التى تبكى بلا صوت لسماع بكاء عشيقها بسّام أسفل شرفة غرفتها، وبتعدد هذه الأحداث والمواقف المشابهة تحول حبها له إلى شفقة عليه ولم تجد من رأى سليم إلا رأى والدها بأن تبتعد عنه حتى يُشفى منها، فحظرته من كل وسائل الاتصال التى يمكنه أن يصل إليها من خلالها، وتغيبت عن المدرسة بتصريحٍ استطاعت الحصول عليه، فظن العاشق أنها لا تريده وأصابته تشنجات عصبية وظهرتْ عليه أمراضٌ لا يعلم خدمه ماهيتها، حتى عاد أبوه.أخذها أبوها باتفاق مع أبو بسام وذهبا إليه، كان يصرخ باسمها، وهذا ما كان يفعله دوما حين يصعد أبوها إلى غرفتها، ويجبره على الرحيل مخبرًا إياه أنه لا يجوز له المكوث أكثر من هذا الوقت، وأن ثمة ما يسمى ذوق وأدب..

سمعا صراخه قبل أن يصلا إليه، فأخذهما الأب البائس إلى حيث ينطوى وكانت صدمتها، كان ريقه يسيل على غير هدى وينهمر فى شعر لحيته الأشعث والذى طال كلحى المساجين، لم يكن على سريره بل كان متكومًا فى إحدى زوايا الغرفة يضرب الحائط ويصرخ باسمها، كان صدره عاريًا لا يرتدى إلا بنطالًا قصيرًا قد رُبط بحبل من وسطه وجُعلت عقدته فى ظهره، وكلما حاولوا تغطية صدره بشىء استمر فى خلعه وتمزيقه دون إنهاك أو تعب وكذلك كان يحاول خلع بنطاله وتقطيعه ولا يسأم من سب والده والخدم، ولما رآه والدها ضغط على يدها وسحبها ببطء إلى خارج الغرفة وبالخارج قال لوالد بسام إنه لن يقدر على جعل ابنته تظهر لابنه فى حالته هذه وحينها تماسكت هى ومسحت ما بعينيها من ماء وقالت:

«لقد قُضى الأمر يا أبى، لا تخف على، دعنى أفعلها من أجله أرجوك »

فسمح لها والدها السعيد والذى لم يبدو مرحا ولا سعيدا فى هذه اللحظة، دخل الثلاثة إلى الغرفة ثانية وخرج الخدم، تقدمتْ هى دون أن تصدر أى صوت، لم تكن بحاجة إلى أن تنطق باسمه، فبمجرد أن بلعت ريقها وتنفست بقوة كى تستعد لما يحدث بعد نداداته، كان قد أدرك وجودها.. وقفت مكانها دون حراك لمّا نظر إليها، وكأنه اكتشف لتوه البلل على لحيته فحاول مسحها بكمه، فلم يجده !

قام ولازال ينظر إليها مبتسمًا ولا يرى فى الغرفة إلا هى، وتحرك إلى خزانة ملابسه وأخذ بنطالًا ولفّ به صدره العارى !، بدا فى مشيته شبه المتزنة أنه قد عاد لطبيعته رغم البنطال الذى يستر نصف صدره.

"أين كنتى يا حبيبتى ؟ إننى لا أستطيع الوصول إليكِ، لم أرك منذ اثنين وستين يومًا"

بدت ابتسامته هادئة مطمئنة، فشعرتْ هى بالخوف ونظرت خلفها إلى والدها ووالده، ولكنه لم ينظر إليهما..

"إننى أشعر بالجوع فجأة، كأننى لم آكل منذ ثلاثة أيام، هيا نخرج لنأكل فى مطعم المدرسة !.. اقتربي منى !.. الخادمة صفية تقول إنكِ أصبحتِ لا تريدينني.. يا صفية.. أين أنتِ يا صفية ؟ نادها يا أبى لو سمحت، أخبرها أن حبيبتى عادت إلىّ.. لماذا لا تقتربين منى؟ استطعتُ أن أرسم لكِ تصاميم ملابس جديدة، غير التى رسمتها لكِ من قبل، ها هى, يمكنكِ أخذها كما هى.. أو التعديل عليها إذا أردتِ "

صمتٌ من الجميع غير دمعتين تحررا من عينيه..

"لماذا لا تقتربين منى؟ هل صفية صادقة ؟.. هل حقًا سأصاب بالجنون لأجلك يا حبيبتى ؟!.. هل يجب على أن أنساكِ كما تقول صفية ؟.. لماذا يطردنى أبوكِ من غرفتكِ ؟ ألا يعلم أنك جئتنى كى نهرب معا ونترك له غرفتكِ ليس فيها من أحد ؟ "

تكلم أبوه..

"حديثيه يا بنتى، حديثه بأى شىء.. قد يتحسن بحديثكِ إليه "

قالت بصوت خافت:

"ماذا فعلت فى دروسك يا بسّام ؟ "!

فسقط البنطال المعلق فى رقبته، وعاد جريًا إلى زاوية غرفته وأخذ يصرخ..

"صفية ليست صادقة, صفية ليست صادقة !.. أخبريها أنكِ لا تهتمين بدروسكِ بل تهتمين بى"

طرح نفسه على ظهره وضرب الحائط بقدميه، ثم بدأ يتقلب على الأرض ولا زال يصرخ حتى سقطت الألوان وغطت وجهه وصدره، وحينها تدّخل الخدم بإشارة مريضة من والده، كأنه ذلك الحَكمُ الذى يعلن بنفسه نهاية الوقت بخسارة فريقه الذى يشجعه..

ظل يضربهم إلى أن استطاعوا حمله على سريره رغما عنه، وعلى سريره نامت كل قواه إلا عيناه وفاه..

"اللعنة عليكِ يا صفية.. أخبريها يا حبيبتى أنكِ مهتمة بى.. اللعنة عليكِ يا صفية"

وعندما خطت خطوة واحدة إلى الوراء ولا زالت عيناها عليه.. وأسندها والدها كى يخرجا، قفز من على سريره واستطاع أن يمسك أطراف قميصها قبل أن يصده الخدم، لم يستطيعوا تخليصه إلا بتمزيقه من حيث أمسكه، ثم خرجت تبكى فى حضن والدها، وجعلت صفية تربت على كتف سيدها البائس !

لأسبوع آخر لم تقدر على الذهاب إلى المدرسة، وظلت تبكى فى غرفتها إلى

أن خاف والدها من أن يصيبها ما أصاب عاشقها، وكانت تعلم، بل كانت متأكدة أنه لم يكن لأبيها يدٌ فيما حدث لبسّام، ولو كان من أى أبٍ فى الوجود لفعل مثلما فعل هو للحفاظ على ابنته، ورغم ذلك لم تتوقف عن اتهامه بأنه السبب الرئيسى لما حدث، ولولا منعها مقابلته لما أصاب عقله وقلبه أى ضرر !، وكانت هذه هى بداية الشرر بين الأب وابنته الوحيدة، وسرعان ما أدرك أن المرح بدأ ينسلخ من وجهه وأن ابنته بدأت تتذمر من تدخل أبيها فى شؤون حياتها، أصبح الاعتراض على آرائه ونصائحه سمتها المستمرة من بعد احتجاز بسّام فى مستشفى الأمراض العقلية، حتى اختيار الكلية فيما بعد واختيار التخصص ومكان الدراسة ورفاق السكن وكل ما يمكن للأب العادى أن يختاره فيما يخص ابنته.. ابنته العادية !، والشىء الوحيد الذى أفرح والدها وأعاد بعض ملامح المرح على وجهه السعيد أنها اهتدت من قرارة نفسها ألا تحاول التواصل مع والد بسّام أو زيارة بسّام مطلقا وأنه يجب عليها نسيان ما حدث.. وأن تكون هذه هى العلاقة الأخيرة التى تستجيب فيها لأحد يحبها بالموافقة على الحب الذى ابتدئه من عنده.. وأنه لو كانت من علاقة أخرى فستكون هى البادئة.. لكن، ما لم تستطع منع نفسها من السؤال عنه ومعرفته، أنه لمّا حدث ما كان، وخرجا من عنده بلا عودة، أحضر له والده أكثر المتخصصين فى العقل حذاقة وبراعة، ولم يسترح لأى منهم فلا علاج له إلا رؤيتها.. إلى أن جاءت إحدى الطبيبات من ألمانيا فى زيارة لمستشفى الأمراض العقلية بالعباسية ولم يستطع والد بسّام رغم نفوذه أن يحملها إلى ابنه فاضطر إلى حمله إليها، وفى المستشفى وقبل أن يتم عرضه على الطبيبة الألمانية، نظر بسّام من طرقة المرور فى

الطابق الثانى من المشفى إلى حديقة المرضى فوجد وردة بيضاء كبيرة للرسم وأكثر من فرشاة ألوان وكرسى أزرق ذا قوائم طويلة ولم يهدأ إلا حينما أنزلوه إلى الحديقة ومن يومها ولم يملّ من رسمها.. لم يملّ من رسم مارلين مونرو إلى الأبد.

(٦)

لمّا اتصلت بوالدها بعد شهر واحد من دراستها بالجامعة الأمريكية، وأخبرته أنها تود الانتقال إلى جامعة القاهرة الحكومية.. اكتفى أبوها بصمت طويل تبعته إجابة هادئة..

".... لك ما تريدين يا بنتى "

كانت من أعماقها تريد إخباره بما حدث، تريد أن يشاركها همومها ولكنها من صدته منذ البداية، وبالطبع كان الأب يريد معرفة سبب قرارها المفاجئ بتغير جامعتها إلا أنه خاف أن يفقدها كما فقد أبو بسّام بسّاما.. وبعد أن وافق على انتقالها إلى جامعة القاهرة، وبعد انتشار فيديو فتاة جامعة القاهرة، علم أبوها لماذا قررت تحويل دراستها من الجامعة الأمريكية إلى جامعة القاهرة وأن ما خافت أن يحدث لها فى الأمريكية الخاصة هو ما حدث لها فى الحكومية، وحينها اتصل عليها واكتفى فقط بسؤالها إن كانت بخير أم لا ؟!.. وكان يعنى بسؤاله إن كانت تريد التحويل إلى جامعة ثالثة أم لا.. وحين أخبرته أنها بخير وأنه لا يوجد داعٍ لأن يقلق، علم حينها أنها ستحاول فى النهاية أن تتعايش مع ما يحدث كما تعايشت مع ما حدث لحبيبها من قبل. ومن أجل ذلك، من أجل أن تتعايش، استطاعت بمساعدة رفيقات سكنها ألا تكتفى بكونها رمزًا للجمال وحسب، بل أن تتحول إلى رمز للمال

والأعمال كذلك، غيّرت لون شعرها الأشقر بصبغه وتحويله إلى بنى داكن وتوقفت عن قصه حتى بدأ فى الانسدال والتشعب على كتفيها وظهرها، وفكرت أن تذهب إلى طبيب جرّاح لتزيل حسنة مارلين الشهيرة من على خدها الأيسر، لكن إحدى صديقاتها أقسمت عليها ألا تفعل ذلك، وأنه بمجرد أن يطول شعرها مع لونه المظلم الجديد فستتحول إلى امرأة أخرى، فلا داعى أن تعبث سكينة طبيب فى وجهها.. وبالشراكة بينها وبين رفيقات السكن، استطعن افتتاح مؤسسة مصغرة كما يسمينها وكانت هذه المؤسسة عبارة عن شقة كبيرة نسبيا تم استئجارها فى أحد الأبراج السكنية فى وسط البلد بالقاهرة، كانت بالدور الأرضى واستطعن تحويلها إلى وحدة إدارية بها أربعة مكاتب لكل واحدة منهن مكتبا، وذلك لما نجح أحد أطباء الأسنان فى افتتاح مركز لتجميل الأسنان فى شقة متوسطة الحجم، مقابلة لمؤسستهم الصغيرة فى الطابق الأرضى. كانت مؤسستهم عبارة عن خطة لإصدار جريدة تهتم بالموضة والأزياء وعالم الجمال وأخبار المشاهير واتفقن على تسميتها باسم BTM اختصار لـــ (Best Than Marilyn)، ظن ابن البواب الشاب لمّا رآهنّ للمرة الأولى يجتزن بوابة البرج السكنى أنهن طالبات يدرسن التمثيل وأنه يجب أن تتبع طلتهن الكاميرات، ورغم أن الصراع اضطرم بداخله، هل يخبرهن بأنه يريد أن يصبح ممثلًا أم لا؟.. إلا أنه فعلها أخيرا ودقّ باب شقتهم التى استأجروها ولم يكن يعلم بعد أنها أمست مؤسسة لا شقة !

أخبرهم أنه يريد مشاركتهن فى تعلم التمثيل..

فأجبنه بأنه لا علاقة لهن بالتمثيل..

فتغيرت ملامحه ونعتهن بالكاذبات..

فلعنته إحداهن قبل أن تسكتها (أنا)، وسألته ما الداعى لم يقول ؟..

فأجاب بأنهن لا يردن مشاركة حلمهن معه، رغم أنه يمتلك موهبة فنية تفوقهن..

فقالت (أنا) أنها لا تجيد التمثيل ولو قليلا، وكذلك الشريكات..

فارتفع صوته وهو يبتعد عنهن ببطىء..

"سأشارككن حلمكن رغما عنكن، ولن تستطعن الكذب على حين تعلمن أنى المراقب هنا.. فأنا ابن البواب يا فتيات"..

كان هذا موقفا غريبا بالنسبة لأول يوم من أيام تجهيزات شركتهن، لكنه لم يكن أشد غرابة من تلك المصادفة حين اكتشفت الفتيات أن طبيب الأسنان.. ذاك الطبيب صاحب المركز المجاور.. هو أستاذ جامعى بكلية طب الأسنان جامعة القاهرة، وأنه يعلم من تكون مارلين مونرو الملونة. كان عجوزًا لكنه لا زال يحتفظ بلون شعره الأسود إلا قليلًا جدًا مما صبغه الشيب وأيضًا لا زلت جذور أسنانه ضاربة فى الأعماق، طرق الباب بطرقات ثلاث متتابعات فأصدر الباب صداه كأنه خارج من حنجرته المتحشرجة العجوز، سعل مرتين قبل أن يُفتح الباب كى يستعد للكلام لمدة دون سعال..

«أهلا يا بنتى، أنا الدكتور علّام»..

ثم أشار إلى لائحة المركز خلفه قائلا:

«صاحبُ هذا المركز»

توترت الفتاة..

«تفضل يا دكتور.. آسفة لأنى لم أعرفك.. لا يجب أن تقف خارجًا»

لم يُجب طلبها بالدخول.. تماسك كى لا يسعل..

«من المؤكد أنكِ لستِ مارلين، تتحدث الفتيات فى الجامعة أنها ابتدأت فى افتتاح مشروع ربحى هنا فى هذا البرج».

تمكن منه السعال.. فسعل فى منديله.. ثم تابع:

«لقد لاحظتُ الحركة الكثيرة المفاجئة فى تلك الشقة بجوار مركزى فرجّحت أنها موقع مشروعها، لكنكِ لا تبدين كمارلين التى صورتها الصحف »!

فتكلمت الفتاة محاولة خفض صوتها:

«بالطبع أنا لست مارلين، مارلين القرن الواحد والعشرين موجودة فى الداخل، يمكننى مناداتها لك، لكن لا تلقبها بمارلين يا دكتور، نادها بابنتى.. فهى لم ترَ والدها منذ زمن».

خرجتْ إليه.. أخبرتنى (أنا) وهى جالسة بجوارى تشعر بالدفء على

سريرى، أن حضنه هو الحضن الوحيد الذى يشبه حضنى، سألتها..

«لماذا سمحتِ له بأن يضمكِ، ويستشعر حرارتكِ، ويشم رائحتكِ ؟»

فأجبتْ بما أسكتنى..

«لقد كان عقيمًا»

كان الدكتور علّام ذلك الرجل الستينى فى عمره وحيدا رغم كثرة الطالبات من حوله، وبيد أنه كان يناديهم دائما ببناتى، كان يعلم أنهن بنات آبائهنّ وأمهاتهنّ اللائى ولدنهنّ. كان حضنه لها حضن أب لابنته، ولذا اطمأنت (أنا) فى صدره والفتيات ينظرنها من خلفها.. أخذها فى مركزه الطبى وأجلسها وجلس بجوارها.. أدرك أنه لم يسعل منذ رآها ففرح..

«هه.. هل رأيتِ ابن البواب، إنه شاب غريب منفعل ومتسرع لكنه طيب القلب.. يأبى إلا أن يكون ممثلا، سترينه على أى حال»

«رأيته يا دكتور عّلام..».

كانت بوابات عينيه التى تعمل منذ ستين سنة غير قادرة على كبح دموعة وحبْسها فى بئر عينه الأثرى..

«نادينى بأبى إن لم تكن ثمة مشكلة يا بنتى»

حدثتنى عنه ليلة كاملة علمتُ من خلالها ولم تعلم هى.. لماذا أن حضنى يشبه حضنه؟ كان ذلك لأنه اكتشف جمالًا آخر غير جمال خارجها، وهذا

ما رأيته بداخلها, إذ استطاع كلانا أن يرى فى صدرها قلبا لا يشبه باقى القلوب.. سألها:

"يبدو أنك متغيرة قليلا عمّا فى الصور التى اشتهرت لكِ ؟ الآن شعركِ بنى وتلبسين ملابس رسمية.. وبشرتك أخذت لون الصحراء، هل قصدتِ ما فعلته فى شكلكِ ؟ "

"نعم.. يا أبى.. إنه تغيير فقط"

"لكنكِ لازلت الأجمل يا بنتى.. اشتركى فى مسابقة ملكة جمال أفريقيا، أليس هناك مسابقة لقياس جمال القلوب ؟.. ابحثى عن شىء يشبه ذلك، فقد تغدين ملكة جمال القلوب "

ومع استمرار طول شعرها يومًا من بعد يوم، حتى وصلت أطرافه إلى منتصف ظهرها، ازدادت العلاقة صلة وارتباطا بين ابنة وأبيها الذى لم ينجبها، انقضى العام الدراسى الأول ولوهلة وبينما كانت تجتاز مدخل إحدى عمارات السكن عالى الاقتصاد وكان فى آخر المدخل مرآة ضخمة، نظرت إلى المرآة من بعيد فوجدت امرأة طويلة ترتدى بنطالًا أسودًا وقميصًا أقرب إلى قمصان الرجال وشعرٌ طويل داكن يضفى عليها هالة جدية وأكاديمية. اقتربت أكثر وتجاوزت نصف المدخل وإذ بها تكتشف أن تلك المرأة ذات الأنوثة الصارخة هى نفسها، هى الطالبة التى لم تكد تنهى عامها الجامعى الأول بعد. امرأة أخرى غير التى كانت قبل انتشار فيديو الجامعة، إغراء آخر سحر أعين الناس غير ذلك الإغراء الذى غازل أعينهم على شاشات

هواتفهم وحواسيبهم المحمولة. عندما وصلت أخيرًا إلى المرآة وتأكدت أنها هى، وقفتْ لحظات تتأمل فيها نفسها، ولم يكن عزاؤها إلا أنها فقدت نسختها الأصلية، النسخة المفضلة إليها.. ذاك الشعر الأشقر القصير والفساتين مختلفة التصاميم، لكن ما صبّرها إلا أن حسنة وجهها لا زالت على خدها تذكرها بصورتها الأولى وتأكد للجميع أنها هى صاحبة الفيديو المنتشر منذ شهور والتى تعدت نسبة مشاهدته على موقع يوتيوب نسب مشاهدات الفيديوهات الغنائية (الكليبات) للمطربين العرب، وذلك بسبب لغته الأجنبية العالمية. أصبحتْ الآن لا تضجر لملاحقة العيون لها، ما دام اعترف الجميع أنه لا يشبهها أحد ولا جميلة مثلها، وهذا ما قاله لها مدير إحدى دور النشر بعد أن صعدت إليه فى شقته بالعمارة التى لا يسكنها إلا أصحاب الدخل العالى، وذلك لضيق الموارد المالية بالنسبة لنشر مجلة جديدة، فلا يوجد ممولون ولا راعون رغم أنها لا تعمل بمفردها، فمعها ثلاثة شريكات أخريات، ولكل منهن معارفها وعلاقاتها، ولكن الأربعة قررن ألا يقترضن جنيهًا واحدًا من معارفهن ولا حتى من آبائهن وجمعن كل ما يملكنه من ذهب ومجوهرات، وباعت كل واحدة منهن سيارتها واشترين سيارتين استهلاكيتين ليذهبن بهما إلى الجامعة ويقضين بهما مشاوير المؤسسة الجديدة، حتى أنهن استبدلن سكنهن الذى يهدر نصف مصروفهن الشهرى بشقة غير مفروشة يوجد بها غرفتان فقط وتولين بأنفسهن فرش الشقة، وبعد تنفيذ كل تلك القرارات الاقتصادية الصعبة، وفى منتصف أرضية صالة شقتهن الجديدة المتواضعة، كان بحوزتهن ثلاثمائة وعشرون ألف يجلسن حولها وفى يد كل واحدة منهن ورقة وقلما. كانت (أنا) متوترة،

تملأ الورقة بخطوط متعرجة بقلمها الرصاص ثم ما تلبث إلا أن تمزقها إربا وتشخبط على أخرى، جميعهنّ يعرفنّ صعوبة الموقف ولكن لم يكن يعرفن ما الداعى إلى توترها هذا وغضبها الذى يزداد لحظة بعد لحظة ؟ حاولن إقصاء أحلامها وتخيلاتها عن إصدار المجلة بذلك الشكل الذى تطمح إليه، تناوبت إحداهن بعد أخرى فى إقناع حبيبتى (أنا) بأن يبتدئن بداية متواضعة حسب ما لديهن من مال، لكن دون جدوى. طموحها كان كما عرفته أنا من بعد، طموحٌ عال أحمق لكن جميل.

كانت تخطط لدائرة توزيع أوسع، وأن يزداد العدد الأول من مجلتها عن عشرة آلاف نسخة !، فى الوقت الذى لم تنجح أعتى المجلات الموجودة على الساحة منذ زمن أن تفعل ما تخطط هى إليه، ليس مجلة جديدة تسمى BTM تديرها أربع فتيات لا زالت إحداهن فى عقدها الثانى. ليس هذا وكفى بل كانت تفكر فى أن تجعل ورق الطباعة من نوع الأوبالين اللامع، وهو ورق غال جدا له طلة مضيئة ويمتاز بصفاء بياضه، ويستخدم هذا الورق أصلا فى الدعوات الرسمية الموجهة لأولئك الذين وحدهم قادرون على شرائه، وأيضًا أن تتم الطباعة بواسطة طابعات الراسمة plotter والتى تطبع الصورة كما الحقيقة، وفوق هذا أرادت أن تجعلها مجلة أسبوعية لا شهرية. ولمّا تيقنت أخيرا أن ما بيدها لا يمكنه تحقيق ما برأسها، صرختْ فى صالة الشقة الجديدة..

«لماذا لا يكون الجنيه بثمانية عشر دولارًا ؟ »!!

لأنه فى ذلك الوقت كان الدولار الواحد يساوى ثمانية عشر جنيهًا، وكان هذا الرقم الضخم.. ثلاثمائة وعشرون ألف جنيه.. لا يساوى عشرين ألف دولار. ولا يمكن لأحد أن يصدر مجلة لها تلك المواصفات برأس مال عشرون ألف..أىُّ عشرون ألف ! وكان الحل الذى اهتدت حبيبتى إليه واللاتى وافقن عليه خضوعا أمام عنادها، هو أن يتم التعاقد مع مطبعة خاصة لديها إمكانياتها وموظفيها وعمّالها، بدلا من شراء المطابع والورق وبالتالى تأجير مكان للمطبعة والحاجة إلى عمّال مع الكثير من التفاصيل التى ستبدد المال. كانت فكرة جيدة كما أنها جريئة، لأن المال كله، الثلاثمائة وعشرون ألف، أو العشرون ألف، ستصلُ بإنهاك إلى طباعة العشرة آلاف نسخة، ولقد حذرناها من عدم القدرة على جمع المال من جديد وطباعة العدد الثانى، وإن لم تنجح النسخة الأولى فلا سبيل لإتمام مشروع المؤسسة الصغيرة تلك، لكن فكرتها الجريئة كانت تعتمد على حيلة لم تتوقعها شريكاتها وأعجبتهم الحيلة مع خوفهنّ من تخيب النتائج لظنهنّ، ووقوف القدر بجانب خذلانهنّ وهكذا عرضتْ فكرتها..

"انظرن يا رفيقات، تعلمن جميعا أن الإعلانات تعد المصدر الرئيسى للمكسب من المجلة، وبقدر الراعيين لمجلتنا والمعلنين عندنا، يمكننا أن نحدد موقفنا من المكسب أو الخسارة والفكرة عندى أن... الفكرة تكون من عندى كالمعتاد، لا أدرى كيف ستفعلن بدون مساعدتى "!

فقالت إحداهن وهى تحمل ذقنها بظهر يدها:

"أكملى أيتها المتواضعة"

«تمام يا رفيقات، الفكرة كالتالى، سنضع إعلانين فقط فى الإصدار الأول من مجلتنا»

فقالت أخرى:

«اللهم ارزقنى الصبر، يا عبقرية هانم، أتوجد شركة حمقاء ستدفع أموالا لعمل إعلان فى الإصدار الأول من مجلة، إن أصحاب الشركات لا يتسمون بالحمق مثلنا، ستودى بنا أفكارك إلى الهاوية، وحينها سأقتلك هناك.. سأقتلك هناك فى الهاوية «!

فضحكت حبيبتى (أنا) وتابعت:

«اهدأى، لن تقدرى على فعل شىء، أنتِ تحبيننى من أعماقك، ألستن كذلك يا رفيقات ؟.. بالطبع أنتن كذلك. المهم، الفكرة أننا سنصنع إعلانين مجانيين، بلا مقابل.. اهدأن جميعا يا فتيات، اسمعن إلى النهاية.. سنختار شركتين كبيرتين أعنى عالميتين، وسنحاول التواصل مع مسئولى التسويق عندهم، ونخبرهم أننا سنضع إعلانا لشركتهم فى مجلتنا الجديدة، مجلتنا التى يقرأها عشرة آلاف قارئ كل أسبوع، وبالطبع سيكون مرحبٌ بنا لأننا لن نأخذ مقابل،.. وهكذا سنضع إعلانين ضخمين لشركتين عالميتين فى الإصدار الأول، وإليكن ما سيحدث حينها، ستبدأ هواتفنا فى الصراخ علينا وذلك لأن.........»

سمعنها وربطن جميعا على قلوبهن وابتلعت إحداهن ريقها، وجميعهن ينظرنها بعين موافقة وبمللٍ خائف.. خائف من المستقبل الذى لا يعلمنه وتنظر

هى إليه وكأنه واقع تعيشه، بعد ثلاثة أيام استطاعت الفتيات بقيادة حبيبتى أن توظفن ثلاثة مراسلين، رجلان حديثى التخرج ومتدربة لازالت طالبة بكلية الإعلام. وبعد ستة أيام بدت وكأنها شهر كنّ قد أنهين العدد الأول من مجلتهن كتابة وتنسيقا وتصميما على الحاسوب، وأصرّت أنا على أن يكتب الدكتور علّام مقالا متعلقا بعمليات تجميل الأسنان فى أول عدد من المجلة، فطاوعها وكتب ما أرادت.

ظنت (أنا) أن أمر الطباعة سيستغرق ثلاثة أيام بحد أدنى، وكانت دهشتها حين انتهت الطباعة فى أربع وعشرين ساعة، خرجت آخر نسخة من ماكينة التغليف الأتوماتيكية فى تلك الدقيقة الفاصلة بين مغيب شمس يوم الثلاثاء وبداية ليلة الأربعاء. كان المخطط له أن تنتهى الطباعة فى ليلة الخميس، ويتم توزيع التوزيع على مراكز التوزيع من فجر يوم الجمعة، ولكن كالمعتاد أثارت أنا الغيظ فى قلوب شريكاتها وأثارت الصراخ فى أفواههنّ، وهذا عندما قالت إنه لن يتم التوزيع إلا فى صباح يوم السبت، ولن يتم توظيف موزعين !، بل هنّ.. هى والشريكات الثلاث.. سيوزعن العشرة آلاف نسخة بدءًا من يوم السبت.. ترجّتها إحداهن بأحب الألقاب إليها، قبل أنا يكون (أنا) هو لقبها المحبب..

"أرجوكِ، يا best than marlin.. كفاكِ مغامرة إلى هنا، لتكونى عاقلة كباقى الناس، يوم الجمعة، هو العطلة الرسمية، هو اليوم الذى إذا أحب أحد أن يطالع شيئًا فى مجلة فلن يفعل ذلك إلا فى نهاره أو مسائه، كل موزعى المجلات يعرفون هذا، أما السبت فالجميع يذهب إلى عمله.. الجميع

ينشغل، حتى طلاب الجامعات يذهبون إلـــى.. "

"تماما.. الحل فى آخر كلمة قلتها، الجامعات.. الجامعات هى ما تحدد متى يتم البدء فى بيع المجلة "

نظرن إلى بعضهن فى حين أكملت هى..

"المعلوم عندنا أن سبعين بالمائة من نسخ مجلتنا إن تم بيعها فإن مشتريها هم طلاب الجامعة، ولهذا السبب يجب أن نركز على السبعين بالمائة. سننزل بأنفسنا فى ساحات الجامعة وقاعاتها ابتداءً من صباح يوم السبت، إذ بداية الأسبوع الدراسى.. لنبيع بأنفسنا وجها لوجه، منّا للمشترى"

قالت إحداهن بصوت هادئ وهى تنظر إلى بتركيز إلى المنضدة الجالسات حولها:

"لماذا تفعلين بنا كل هذا ؟ لقد بعتُ سيارتى إيمانا بكِ، حتى سوارى الذهبى الوحيد وضعته بين يديكِ، ورضيت أن أتكدس معك فى هذه الشقة كى نجمع المبلغ الذى دفعنا معظمه لصاحب المطبعة، بالطبع لأننا لا نملك مطبعة.. "

ضحكت المسكينة بعد أن رفعت بصرها عن المنضدة، ثم تابعت..

"ثم قلتِ أننا سنضع إعلانين مجانيين، يا للجنون.. كيف آمنتُ بكِ إلى هذا الحد ؟ ولكن لا مفر، ذهبنا إلى وكيل إعلانات شركة BMW وكذا وكيل إعلانات كوكاكولا، لنستسمحهم أن نضع إعلانات لمنتجاتهم بلا مقابل.

أتعلمين..؟ سيقرأها عشرة آلاف قارئ وربما أكثر من ذلك، وهذا بعدما سنيأس من بيع هذه المجلة اللعينة ونرسلها بالكيلو إلى مطاعم الهامبورجر والكريب الطازج وسيرى كل زبون لديهم الصورة التى جاءت من نصيبه وغلّفت الملفوف الذى يأكله. وبعد كل هذا السيناريو المشئوم الذى حدث بالفعل إلا قليلا، تأتين الآن لتخبرينا أننا سنطوف بالمجلات فى الجامعات كبائعات الحلوى عند الأهرامات وأبو الهول، لا أدرى لما لا تكونى كباقى أصحاب المشاريع الفاشلة الذين يحاولون التطوير من أنفسهم وشركائهم وتحاولى جمع أموالنا التى ستضيع سدى، بأن تصنعى إعلانات على المجلة على مواقع التواصل لكى يراها أولئك المهتمين بهذا الهراء حول المشاهير والموضة؟ لا أدرى لماذا تصرين على إفلاسنا ؟ "

لم تلحظ أن دمعتها انزلقت على خدها إلا حين حضنتها حبيبتى أنا رغما عنها وقبّلت جبهتها قُبلة طويلة ثم مسحتْ دمعتها وأخبرتها قائلة وهى تحتويها بهالتها:

"قسما يا صديقة.. لتفتخرنّ بى أمام الجميع"

(٧)

(هدية خاصة جدا لطلاب وطالبات جامعة القاهرة.

من أجل أن هذا هو العدد من مجلتنا.

ولأجل أن القائمات على هذه المجلة هن زميلاتكم وزميلاتكن.

ولأجل فوز طالبة جامعة القاهرة بتاج ملكة جمال أفريقيا للمراهقات.

أتينا إليكم لنصدر هذه المجلة المعتنية بكل ما هو جميل...

......................................)

نجحتْ حبيبتى فى إقناع شريكاتها على الإقدام على هذه الخطوة، مع أن ذلك ممنوع !.. ممنوع أن يتم ممارسة أى عمل خاص أو تجارة ربحية فى الجامعة. وافقتْ الشريكات الأربعة على هذا النص الذى ستتم الدعاية به للمجلة فى الجامعة وباكتمال شروق الشمس، كنّ قد طبعن ٥٠٠٠ نسخة من هذا الإعلان المختصر. وبدأ تقسيم العمل كالتالى..

يوجد لجامعة القاهرة مدخلان رئيسيان، ويجب أن يوزع هذا الإعلان خلال ساعتين فقط، من الثامنة صباحا إلى العاشرة، على كل المارين خلال

البوابتين الرئيسيتين، على أن يتم البيع داخل الجامعة لحاملى الإعلان بخصم ٣٠ %، لكن كانت ثمة مشكلتان تكفى إحداهما لتميت هذا المشروع للأبد..

الأولى: كيف سيتم المرور بعشرة آلاف نسخة إلى داخل الجامعة ؟

الثانية: كيف الاختفاء عند البوابات الرئيسية لتوزيع الإعلان وعيون أمن الجامعة وكاميراتها ترصد كل الداخلين؟

تحكى لى أنا، أنها أحست فى تمام الساعة السابعة من يوم السبت، أن النتيجة أصبحت واضحة، وأنها قد قُضى عليها وعلى شريكاتها، ٣٠٠ ألف جنيه تحولوا من أوراق مالية ذات قيمة إلى أوراق مجلات ملونة، وإعلانين ضخمين بلا مقابل كأكبر حماقة فى تاريخ العالم، ويومٌ قد لا تستطيع مشاهدة غروب شمسه إلا من شباك زنزانتها بسبب مخالفة لائحة الجامعة, لكن، لا مفر أمام حبيبتى، وتم وضع الخطة، الخطة التى يجب أن تنفذ كما وضعت بالضبط، أو لا تنفذ إطلاقًا.

يوجد موقف سيارات أجرة على بعد ٢٥٠ مترًا من المدخل الرئيسى الأول للجامعة، وتكون فترة البكور الصباحى فى هذه المحطة من نصيب طلاب الجامعة إذ القادمين من أطراف وأدغال القاهرة ينزلون من سيارات الأجرة هناك، أى أن المحطة قد تصير فى هذا الوقت ساحة دسمة لنيل الشهرة لمن لا شهرة له أو توزيع إعلان كإعلانهن، وتلك الميزة الأولى لمحطة السيارات. الميزة الثانية، أنه لا يوجد أمن هناك، لا بوليس ولا بوابات

أمنية إلا رجل مرور عجوز يحمل بطن دائرية كبيرة وتظهر صلعته من تحت غطاء رأسه الواقى من أشعة الشمس. كان على إحداهن أن تتطوع لتقف هناك وتوزع الإعلان وهذا بالفعل ما حدث.. إذ قالت أكثرهن توترًا:

«دعونى أفعلها أنا، على الأقل لن يعرفنى أحد هناك، ولن يتم إمساكى وأنا أبيع شيئًا داخل الجامعة.. بالطبع لا أتمنى أن يحدث ذلك مع إحداكن»

ثم بعد ذلك صنعت الفتيات تمثيلية لكى يتم الإعلان عن المجلة عند المدخل الرئيسى الثانى. إحدى الشريكات كانت طالبة بكلية الإعلام وهذا ما أتى بفكرة التمثيلية إلى رأسى أنا. ارتدت طالبة الإعلام بذلة رسمية كمذيعات الأخبار السياسية وأحضرت كاميرا اكتشفتْ فيما بعد أنها لا تعمل! ودفعت ٢٠٠ جنيه لابن البواب الذى فرح جدا بوظيفته الجديدة وظن أنها المدخل إلى عالم السينما، وأمام البوابة الرئيسية الثانية وباتجاه كبير رجال الأمن، تحركت الفتاة ومن خلفها ابن البوّاب يحمل الكاميرا على كتفه مصوبا إياها عليها..

«أهلا أنا هايدى طالبة بكلية الإعلام ومتدربة لدى قناة BTM. ترصدك الآن عدسة كاميرا BTM»

فحوّل ابن البوّاب الكاميرا العاطلة من وجهها إلى كبير الأمن الذى توتر وأخرج يديه من جيبيه وأطفأ جهاز الإرسال خاصته.. تابعت هايدى تمثيليتها..

«أشارت وزارة الداخلية أن شركات الأمن الخاصة، مثل شركتكم، تساهم فى

حفظ الأمن القومى داخل مصر، شأنها شأن الشرطة و جهاز الأمن الداخلى»

أجاب:

«بالطبع، كوننا نسعى إلى تأمين جامعة مثل جامعة القاهرة لهو أمر جلل ومن صميم الحفاظ على الأمن القومى الداخلى. نحن نقوم بـــ.....»

تكلمت هايدى وهى تشير إلى ابن البواب، وتسأل كبير الرجال..

«هل من الممكن أن ننتقل بعيدا قليلا عن البوابة كى لا نعيق مرور الطلاب »

«بالطبع يمكننا التحرك إلى هناك »

ثم تحركت هى ومصورها والرجل ثلاثة أمتار أو أكثر بعيدا عن البوابة..

«إذن ماذا كنت تقول يا سيدى ؟ »

«كنت أقول إن الحفاظ على أمن المؤسسات، حتى تلك المؤسسات الصغيرة الناشئة، لا يقل أهمية على الحفاظ على أمن مؤسسات الدولة الكبيرة، وأن الدولة ما هى إلا شبكة من الأفراد والمؤسسات وأمن هذا من أمن ذاك»

«نعم سيدى، أتفق معك، وكذلك معظم المشاهدين سيتفقون بالتأكيد.. ظهرت بعض الدعوات مؤخرًا لرجال الأمن الخاصة تنادى بزيادة الرواتب بنسبة ٢٠٪ لأنهم يرون أن عملهم لا يقل فى المشقة ولا الخطر ولا الأهمية عن عمل أمناء وضبّاط الحكومة، والغريب أن الكثير من الصحف تناولت

هذا الموقف ودعمته، وتوحدت آراء الكثير من جبهات الحوار الوطنى الأخير أن هذه الحركة المطالبة لديها الحق فى كل ما تطلبه، وأنه لا يمكن أن نتاجر بأرواحنا أو بأرواح أبنائنا هنا مثلا فى مثل هذه الجامعة.. ما تقول فى ذلك ؟»

«صراحة، لم أسمع شيئًا عن هذه الحركة، لكن أظن أنها استطاعت التعبير عن كثير مما أريد أن أقول. إننى أتفق بشدة، نحن لا نقل شيئًا عن ضباط الشرطة، أولئك الذين يوم عندهم بأسبوع عندنا، أعنى من ناحية المرتبات»

فالتفتْ الممثلة البارعة إلى عدسة الكاميرا بثقة تامة وتكلمت:

«يبدو أن الجميع فى صف رجال الأمن المظلومين من شركاتهم، ها هو أحد مسؤولى الأمن فى جامعة القاهرة يقول مثل ما قال كل من قبله من رجال الأمن»

ثم التفتت إليه ثانية..

«إذن دعنا سيدى نرى كم مدى اتساع شعبيتكم فى الجامعة، فقد ننجح فعلا فى زيادة مرتباتكم»

ازداد توتره وتحاشى النظر إلى الكاميرا.. تداركت هايدى..

«بالطبع لن ندخل إلى الجامعة، أنا أدرس فى إحدى الكليات هنا وأعلم أن هذا ممنوع، لكننا سنقف هنا بعيدا عن البوابة بثلاثة أمتار كما نحن تماما

الآن، ونسأل الطلاب القادمين، كى لا نكن سببا فى إيذائكم أنتم رجال الأمن، بأى شكل من الأشكال.. شكرا لك سيدى، يمكنك الذهاب الآن ونعتذر إن أطلنا عليك "

"لا تشكرينى، بل نحن من يجب عليه الشكر، إنكم تناضلون من أجلنا.. حاولى زيادة مرتباتنا يا بنتى"

ثم انصرف.. مرت فتاتان صديقتان على ما يبدو، تحركت هى والكاميرا من خلفها..

"مرحبا، هل سمعتن بمجلة BTM ؟ إن العدد الأول تم إصداره اليوم، هى أول مجلة تقوم على أمرها وتصدرها فتيات لا زلن يدرسن فى الجامعة، يقال إنها قصة نجاح عظيمة على وشك الظـــــ .."

وقف على بعد خطوتين وراقب الحوار شاب يدرس بكلية الهندسة المعمارية إذ كان يحمل مسطرة بلاستيكية طويلة ينقلها بين يديه، ثم التحق به آخر يبدو أنه يعرفه، وهكذا، وبازدياد العدد ابتدأت عملية الدعاية بنجاح، وتمت السيطرة على مدخلى الجامعة الرئيسيين، ثم كانت مشكلة المرور بالمجلات إلى داخل الجامعة !

فى الليلة السابقة ليومهن هذا، يوم السبت، أمرهن الدكتور علّام بأن يُحمّلن العشرة آلاف نسخة فى صندوق سيارة شحن. وبعدما أنهين طلبه منهكات، سألته وهى تلتقط أنفاسها المتقطعة بصعوبة، عمّا ينوى فعله، فأجابها أن تصمت ما دامت تثق به. وفى العاشرة صباحا انطلق بسيارته.. توقف على

غير عاداته قبل أن تجتاز كامل سيارته بوابة الجامعة، أشار إلى كبير رجال الأمن ذاك الذى كان يفتخر بين باقى الرجال بأنه سيظهر على قناة BTM مناضلا من أجل حقوقهم!.. ذهب إليه.. أنصت إلى الدكتور علّام لثوانٍ معدودة.. ثم حرك رأسه صعودا وهبوطا مرتين معبرا عن فهمه لما يأمره به الدكتور. انطلق الدكتور بسيارته ثم من خلفه ظهرت سيارة الشحن، فصاح كبير الرجال..

«أفسحوا الطريق لكتب كلية الأسنان.. الفرقة الثانية »!

فى كافتيريا كلية التجارة، أكبر كافتيريا فى الجامعة، وقفت ملكة جمال أفريقيا ذات الشعر البنى، والبشرة الصحراوية، لم يُشر إليها أحد ويقول إنها مارلين مونرو، بل أشاروا لكن قالوا.. ها هى ملكة جمال المراهقات.. وكان هذا هو أكثر ما ساهم فى سعادة (أنا) فى هذا اليوم الشديد، وأيضًا كان ذلك أكبر تسويق للمجلة، أن منتجتها وموزعتها هى (أنا). ضرب الشاب الواقف على آلة صنع القهوة، ليوقف أنا لمّا جمعت حولها الأنظار، فنزلتْ من فوق طاولتها وذهبت إليه..

«كم تكسب فى اليوم»..

سألته حبيبتى، أجاب:

«٢٠٠ جنيه تقريبا»

فقالت بثقة:

«ألا تحلم بأن يرتفع مكسبك اليوم إلى ضعفين أو ربما ثلاثة ؟ »

فسألها:

«كيف ؟ »

فاستغلت نظرتها الآسرة لكل الرجال، وقالت:

«راقبنى، وسترى»

كان العدد قد بدأ فى الازدياد، وذلك بعد أن حضرت كلية الأسنان بأكملها إلى كافتيريا كلية التجارة، ذُهلتْ حبيبتى (أنا) من ذلك المشهد، كيف أقنعهم الدكتور علّام ؟! وصفّق شاب القهوة بملعقتين فى يده تشجيعا لزملائه للإسراع فى تقديم الطلبات، تهامس شاب وفتاة (أليست هذه المجلة هى تلك التى تتكلم عنها المذيعة الصغيرة عند المدخل ؟)

وبعد ساعة وأربعين دقيقة، أخذت (أنا) نفسا عميقا ثم صرخت فى الجميع..

«انتهينا»

وكدهشة باقى الشريكات وهنّ ينظرن إليها فوق الطاولة، كانت دهشتى وهى تحكى لى، كان قد تم بيع عشرة آلاف نسخة إلا نسخة، اختطفتها (أنا) وأخفتها فى حقيبتها.. كذكرى.

.. بيعت العشرة آلاف نسخة بثلاثمائة ألف جنيه، وكانت التكلفة مائتين وثمانين ألف، أى أن المكسب عشرون ألف جنيه فقط. كانت هذه

النتيجة بقدر ما هى صادمة للفتيات الثلاثة الأخريات، إلا أنه قد خالطت مشاعرهن بالصدمة مشاعرا أخرى بالفرح المنعش، فقد نجحن فى جمع أموالهن التى كادت أن تضيع، كن لازلن فى الجامعة بعد أن انتقلنا من كافتيريا كلية التجارة إلى كافتيريا أخرى أكثر هدوءًا..

«لا أستطيع أن أنكر أن الفرح يغمرنى رغم أن كفاحنا هذا لم يسفر إلا عن خمسة آلاف فقط كمكسب لى»

قالتها إحداهن، فردت الأخرى:

«لا أعلم كيف فعلها الدكتور عّلام؟ لقد كان الإقبال شديدًا من طلاب طب الأسنان»

تكلمت الثالثة:

«الفائز، هو شاب القهوة فى الكافتيريا، لقد كان الفرح يرسم ألوانًا على وجهه من شدة الزحام على قهوته»

نظر ثلاثتهن إلى (أنا) التى لم تتكلم منذ جلوسهن.. أدركت تأملهنّ لها.. تكلمت أخيرًا..

«لا تقولى أن مكسبك خمسة آلاف فقط، المكسب لم يأتِ بعد»

لم تنتهِ نظرتها الواثقة للفتيات إلا وتوقفت سيارة من سيارات الأمن الداخلى للجامعة خلف كرسيها، نزل رجلان ووضع أحدهما يده على كتفها ثم نظر

للآخر.. قال:

«ألا يغفر جمال المرء أخطاءه ؟»

فى مقر مجلس إدارة الجامعة، انتصبتْ (أنا) لا تتحرك أمام مجموعة من الرجال والنساء كبار السن،إلا رجل أربعينى واحدٌ ينظر إليها بابتسام منتظر!

بعد أن سمعتْ سؤال المجلس، سكتت دقيقة كى تجد إجابة فى رأسها الذى حاولت الأفكار فيه أن تسبح لإنقاذها لكنها غرقت.

دخل السكرتير مستأذنا، وتكلم:

«رئيس اتحاد الطلاب ونائبه لديهم أخبار بشأنها »

دخل الطالبان، ولم يخرج السكرتير وكأنه يريد أن يستمع عن قرب دون تجسس..

«سيادة رئيس جامعة القاهرة، نحن شاهدان فى صفها، ونقول إنها كانت تساعد طلاب كلية طب الأسنان»

فنظر الجمع إلى رئيس الاتحاد، سأله رئيس الجامعة..

«كيف كانت تساعدهم ؟»

فتقدم الطالب خطوة إلى أن وقف بجوارها ورأته (أنا) أخيرًا..

«كتب الدكتور علّام مقالًا فى مجلة تسمى BTM ، وأخبر طلابه أن مقاله

قد يحتوى على إجابة كاملة لسؤال من أسئلة اختبار نصف العام"

فقالت عجوز تجيد الكتابة بالقلم وهى ترتدى قفّازا بيدها:

"ولماذا يفعل دكتور علّام ذلك ؟ "

فسعل أحدهم عند الباب ثم انتظر حتى أخفى منديله فى سترته وقال:

"فعلتُ ذلك تشجيعا للطلاب على قراءة المجلات و المراجع العلمية "

(٨)

صاح الديك فى شبّاك غرفتى، وكأنه كان يسمع ما تحكيه لى وغضب لكون القصة قد انتهت، أو لعله كان متعجبًا كما أنا، من أن الدكتور علّام كان له كبير الفضل فى بيع العشرة آلاف نسخة، بل وفى إدخالهم إلى الجامعة.

«لك ماضٍ ممتلئ يا (أنا)، لكن، أهاهنا انتهى كل شىء، أتلك كانت خطتك؟ أن تحصلى على خمسة آلاف جنيه بعد تلك المغامرة الصعبة ؟»

لم تكد تنطق حتى سمعنا موسيقى أقدام لؤى السائرة إلى غرفتى والمتعثرة بحاجات بيتنا فى الصالة الواسعة، دخل لؤى ولم يتجاهل النظر إليها كعادته، بل وكأنه قد أتى لينظر إليها، أو ليتأكد من شىء فى وجهها... أو... لينظر شيئًا اشتاق إليه. قرأتُ تعبيرًا الجمال والغيرة فى وجهه الفطرى المتدين، جمالها، وغيرته.. خطى خطوات قصيرة دون موسيقى إلى زاوية الغرفة, وأحضر القلم والورقة.. كتب..

«أحضرتُ لكَ زهرة من حديقة مجلس القرية، زهرة حمراء أيضًا»

ابتسمتْ هى أولا فقد كانت أسرعنا فى القراءة، ثم ابتسمتُ بعدها بثوانٍ.. أمسكت القلم وتحت خبره كتبتُ..

«هل أحضرتها من أجلى، أم من أجلها ؟»

علمتُ أنه سيستغرق دقيقة ليقرأها، لكن سرعان ما وضعت (أنا) يدها على الورقة وجذبتها ناحيتها، وقد تغيّر لون وجهها الرائق إلى أحمر فاتح !.. واضحٌ أنه لا يعجبها ما كتبتُ.. تكلمت حبيبتى (أنا) فقد كانت لا تفضل مخاطبته كتابةً مادام يسمع، سألته ولا زالت تخفى الورقة..

«إذن أين هى الزهرة؟ أنا لا أراها»

فتعمق فى وجهها لوقتٍ أطول مما يجب، حتى ظننتُ، أنه صار بطيئا فى قراءة الوجوه كما هو بطىء فى قراءة الكلمات، ثم استفاق وأخرج الوردة من ورقة كرتونية فى جيبه، نفخ فيها حتى أعاد لها انتعاشها بعد أن ماتت مختنقة فى سترته، ثم حدث ما توقعت، انحنى قليلا كى يعطيها، لكن نسى أنه انحنى من أجلى، فناولها إياها.. أخذَتها وصار أحمرها الفاتح قاتما، قلتُ له بعد أن استقام ظهره واقفا..

«سرقتَ الآن شيئين يا لؤى، سرقت زهرة مجلس قريتنا.. وسرقت حياتى»

فضحكَ كأنه أفاق من غيبوبته، ثم كتب على ورقة أخرى..

«الحب جائزة تنال، أو لقب يعطى، لكن ليس جوهرة تُسرق ولا زهرة تُهدى »

وبعد أن تأكد أنى قرأتها.. كتب:

«دائما تكتفى بشخصٍ واحدٍ يا زين، كنت مكتفيا بى، والآن مكتفيا بها.. لماذا كنت تحلمُ إذن بأصدقاء كُثر وأناس يهتفون باسمك ويلوحون بصورتك «!

ثم انصرف.. قالت (أنا):

«لا أحب الورود بعد أن تُقطف »

سألتها..

«لماذا ؟»

«لأن الوردة لا تزل تحتفظ بماء حياتها ما دامت متصلة بأصلها، أما حين يقطفها صاحبها فإنها تفقد عذريتها، ولن تعود جديدة كما كانت »

ابتسمتُ لها ولم أتكلم.. فسألتنى:

«هل غضب لؤى يا (أنا) ؟ »

«من أى شىء سيغضب يا (أنا) ؟ »

فأجابت وهى تنكمش فى نفسها، وتنظرنى بحياء..

«لا أدرى، ربما لأنكَ تمتلك شيئًا لا يمتلكه «!

«ههههه، لا لم يغضب يا حبيبتى، فأمثاله يمتلكون العالم بأسره »

«كيف ذاك ؟ »

فأجبتها..

«أتعلمين أولئك الناس، أصحاب الطموح المحدود، هو واحد منهم. وهؤلاء هم أسعد الناس بين الناس، قد يفرح بابتسامتكِ له، أكثر مما يَسعد غيره بقبلتكِ له، فلا أحد أشد فرحًا من ذلك الذى يحلم بخاتم فضى حين يحصل عليه، أما غيره، ذلك الذى يحلم بامتلاك منجم ذهب، فلن يفرح أبدا، لأنه أبدا لن يجد منجم ذهب»

«إذن لماذا لا تحلم بما يمكنكَ تحقيقه ؟ »!

«لأننى لو استطعتُ تحقيقه لما أصبح حُلما »

بلعتْ ريقها وحاولتْ ضبط توترها، ثم بلعته ثانية!.. قالت بصوت منخفض:

«إلى أى شىء ترمى يا زين، يا (أنا) ؟»

فقلت::

«أنا أشتهى ما لا أملكه ؟»

فازداد الدفء حولها.. وامتلئ كل شىء فيها. صمتت قليلا ثم قالت فى تردد..

«وماذا إن حصلت عليه الآن، لن يصبح شيئًا تشتهيه فيما بعد.. لن يصبح حلما بعد أن حققته»

فقلت::

«لا، بل سأفخر دوما أنى امتلكته ولو للحظات، إننى لست الحالم بالخاتم الفضى، إننى الحالم بمنجم الذهب»

«قُلتَ ألا أحد يمكنه أن يجد منجم ذهب »

فاستدرتُ قليلا ناحيتها..

«وماذا لو أن أحدهم وجده، لكن أبوابه تأبى أن تدخله »

قالت:

«هى لا تأبى أن تدخله، هى تخشى ألا تصبح حلمه بعد أن حققه، تخاف أن يطمح إلى منجم آخر بعد أن أمتعت عينه بذهبها وأحجارها البرّاقة.. مهلا.. أليست العين هى ما تستمتع بالذهب؟ أليست شهوة الذهب فى رؤيته ؟»

فأجبتُ..

«أو فى لمسه »

تابعتُ متحاشيا ذهولها... أو صدمتها..

«إن كنتِ خائفة من أن يهجركِ بعدما فتحتِ له أبوابكِ، إذن فأعطه ما لا يمكن لأحد غيرك أن يعطيه إياه، اجعليه يتذوق أجمل ما فى خزائنكِ

المخبئة، وحينها، سيغلق أبوابكِ عليه ويبقى بداخلكِ للأبد»

انفرجت شفتاها، وشعرتُ بنسيم نَفَسها. بدتْ حيرتها واضحة. ذكرتنى بنفسى أيامَ كنت طالبا فى المدرسة الابتدائية، حين أنظر بعيونى كلها لسؤال فى الامتحان وأحتار، لا أحتار لأنى لا أعرف الإجابة، بل أحتار لأنى لا أعرف ما هو السؤال !

«لا أعرف ماذا تريد ؟ »

أسرعتُ.

«أريد ما تريدين »

بدتْ بريئة فجأة كصديقى لؤى.. قالت:

«لكنى لا أريد منجم ذهب»

«إذن أنتِ مثله تطمحين إلى خاتم فضى »

اقتربتْ منى جدا حتى اختلطتْ أنفسنا، وكغاضبة قالت:

«لستُ مثل أحد»

استغللتُ قُربها..

«لستِ مثل أحد، بل أجمل من أى أحد»

سألتنى بعد أن اكتشفتْ سيطرتها على مشاعرى، وريقى، وجسدى الناقص..

«ما الفارق بين ما تريده، وما أعطيته لكَ من قبل ؟»

فسألتها أنا..

«وماذا أعطيتنى ؟»

«قبّلتُك»

فأجبتُ:

«لا فرق، كلاهما لامع، لكن هذا خاتم فضى.. وأنا أريد المنجم، لا فرق كبير، فكلاهما... كلاهما التقاء»

غطى وجهها غطاء من الحياء، همست وهى ترقب الباب..

«جرىء »

«بل عنيدة »!

أقفلتْ عينيها فبدت أجمل.. وتحدثتْ إلى نفسها:

«أتكون هذه هى اللحظة ؟ »

تفاجئتُ..

«ألم تفعليها من قبل؟ ألم تجمعكِ تلك اللحظة مع بسّام أو غيره ؟»

فتحتْ عينيها، وتنفست باطمئنان، وبدت وردة لؤى أكثر حياة وهى كل ما يفصلنا على سريرى.. قالت:

«لم يفعلها أحد من قبل، أنا لازلت جديدة »

كانت كلمتها كالصاعقة على،.. (جديدة) شعرتُ أننى ربما أتراجع، كانت الشىء الوحيد الكامل فى غرفتنا، ليست كالوردة المغصوبة التى أحضرها لنا لؤى، وليست مثلى رَجلٌ بلا ساق.

تذكرتُ كلماتها (إننى لا أحب الورد بعد أن يقطف.. لن تعود جديدة كما كانت).. لماذا لم أفهم ما كانت تعنيه حين قالت ذلك ؟ !.. لماذا لم أدركه من قبل ؟.. أو.. هل سأحبها أنا بعد أن تُقطف ؟ هل سأستمر فى حبها بعد أن أكون أنا قاطفها ؟ أم أننى سأتمنى منجما آخر؟. الآن فهمتُ خوفها من أن أهجرها، والآن غفرته لها!.. نطقتُ أخيرًا:

«لكنكِ جديدة على الدوام، يا أنا»

أطرقتْ رأسها، وقالت:

«حتى لو تم استعمالى ؟ »

تماسكتُ ورفعتُ ذقنها بيدى..

«لا أحب مثل هذه الكلمات... إذن، إن لم يكن لى ؟ فلمن تحتفظين بأغلى ما تملكين ؟»

تاهت عيناها ولازلتُ مسندًا ذقنها بأصابعى.. لم تتكلم، تابعتُ:

"ابتسمى يا (أنا) ؟"

مرّت ثوانى حتى رسمت بشفتيها رسمت دوائى..

"هذا ما أعنيه يا حبيبتى، ابتسامتكِ جديدة على الدوام، وغيرها قلبكِ الذى يولد فى كل يوم.. ستظلين برّاقة رغم كل شىء"

كان شعرها البنى طويلا جدا بما يكفى ليحجب رؤية ما خلفها حين تميل برأسها على كتفها يمنة أو يسرة. رفعتْ غطاء سريرى الذى يغطى ساقيها وساقى، ثم جلست أمامى، لم ترفع يدى لتقبلها كعادتها بل انحنت هى وقبّلتها، شعرتُ بشعور غريب بين الكرامة والإهانة والسيطرة، شعور لا أعرفه لكن أعرف أنى لا أحبه. بيدى التى تُقبّلها رفعتُ رأسها قريبا منى !.. ورددتُ شعرها إلى خلفها بعد أن أخفى وجهها، كانت مضيئة للغاية رغم ضوء الغرفة الخافت. ولوهلة، ظننت أنها قد تنطفئ بعد استعمالها، تمنيت أن تظل هكذا، مضيئة للأبد.. طالت نظرتنا.. تذكرت فيديو فتاة جامعة القاهرة الذى بحثت عنه خلسة على موقع يوتيوب، الفيديو الذى يصور مارلين مونرو وهى تقرأ مجلة باللغة الانجليزية.. ترنّح قلبى وليس بينى وبين شفتيها إلا أجزاء من الثانية.. تذكرتُ بسّام الذى جُنّ لأجلها.. تذكرتُ طعم قُبلتها.. قررتُ.. ومرّت أجزاء الثانية، فكانت شفتينا متماسكتين، جاهدتُ فلم أنجح، كانتا جافتين، كانت أنا ترتجف..

"ما بالكِ يا (أنا)، ترتجفين ؟"

ارتعشتْ شفتاها وقالت..

"أحبكَ يا (أنا) "

أمسكتُ كلتا يديها بيدىّ، ضممتهما إلى صدرى..

"كأن روحك ليست بداخلكِ يا حبيبتى، أين الحياة منكِ ؟"

فشبّكتْ أصابعها بين أصابعى، فى صدرى.. ثم قبلتنى هى، فكانت قُبلة فى شبابها.

قامت (أنا)، وخطت أربع خطوات فقط حتى وصلت إلى الباب، تأكدت من غلقه مرتين، ثم أغلقت المصباح، فأظلمت الغرفة بأكملها، فقد كان الليل معنا منذ وقت ونحن لا ندرى. مددتُ يدى وجذبت مصباح الفتيل، أضأته وعلقته فوق السرير، ها قد أصبح كل شىء طبيعيًا، حتى الضوء طبيعى، ضوءٌ نارى شحيح خافت، لا أدرى أهو خائف يرتجف؟ أم أنه فرحٌ يتراقص؟!.. كانت دقائق معدودة حتى شعرتُ أنى قادر على الحركة، قادر على التقلب دون عناء، بل حتى قادر على الوقوف.. تذوقتنى بحذر والتهمتها كلها..

لا أدرى لماذا أتى بخاطرى موقفها حين كانت تقف فى الكافتيريا ويلتف حولها الجميع ليشتروا مجلتها؟ وكذلك نظراتُ أساتذتها الجامعيين لها؟ ولا أدرى لمَ تذكرتُ عروض رجال السينما بأن تعمل معهم؟ لربما كنت أشعر بالانتصار على الجميع فأنا الوحيد الذى أوشك أن يدخل منجم الذهب، فى حين لا يحلمون هم فيها بأكثر من خاتم فضى. شهقنا معا، لكنّ شهقتها

طالت أكثر.. ها هى تجبرنى على ألا أنظر لغيرها، ها هى تغلق أبواب منجمها بقوة لتحبسنى بداخلها.. ها هى تعطينى ما لم تعطه لأحد قبلى، وما لن تستطع أن تعطيه لأحد بعدى. ارتفعت شهقتها واشتد ارتجاف النار أو تسارع رقصها.. لعشر دقائق أو يزيد.... زحفتْ من تحتى فقمتُ عنها. انقلبتُ إلى جوارها، شعرتُ أنى أكثر خفة. فعلتُ كل ما يجب فعله، وما لا يجب، غير أنى لم أنظر إلى غير ما كنت أنظر إليه قبل أن تتحرر من القماش والقطن. وكذلك هى، كنّا نستحى من النظر !!، مع أننا تأكدنا من جودة كل شىء، كل شىء يعمل. لا زلتُ بجوارها أنظر إلى السقف، لازلتُ أخاف النظر إليها رغم أنها استضافتى. تركتُ أعصاب رأسى، فمال رأسى على خدى الأيسر، رأيتها.. رأيتها بعد أن استعملتها !، كانت مغمضة عينيها مع أنهما لو فُتحا لمَ شاهدا غير السقف. تأملتُها، حتى خفتُ عليها من صمتها.. نطقت بأحب أسمائى وأسمائها إليها..

«أنا»

فتحتْ عينيها، نظرتْ السقف، أخرجتْ زفيرا، ثم ابتسمتْ.. سَال شىء من منتصفها..أخذ يسيل شيئًا فشيئًا.. تقطّر.. تركَ جسدها، سقط .. شربته الزهرة الحمراء حتى ارتوت. لم تنحنِ لترانى، فارتفعت لأراها بأكملها.. مضيئة أكثر من ذى قبل.. مرهَقة أكثر من ذى قبل..عالمية أكثر من ذى قبل.

تمتمتْ..

"أنا من وجد المنجم"

(٩)

فى عيادة الدكتور علّام جلست (أنا) مع شريكاتها وأكمل دائرتهم د/ علّام. كانت الشريكات الثلاثة يفكرن فى نفس الوقت عن الكلمة المناسبة للتعبير عن مدى امتنانهن لصديقتهنّ (أنا)، وكم أنهن يتمنين إكمال المشروع معها ؟! لكن لولا المشاغل. أما هى، فقد كان جُل تركيزها مصبوبا فى أذنيها، إذ إنها لا تريد أن تسمع إلا صوت رنين الهاتف، لكن أحدًا لم يتصل. كان شبه اجتماع صامت، هى تريد مكالمة لا تدرى ممن يجب أن تأتيها، وهنّ يردن أن يقولن كلمة لا يعرفن كيف يقولنها !، وهو فى عياداته مشفقٌ على الجميع..

نطقتْ إحداهنّ مخاطبةً حبيبتى..

«انظرى يا best than marilyn ، لقد حققنا ما لم نكن نحلم به.. فقد عادت إلينا أموالنا، هذا مكسبٌ كنا قد يأسنا من تحقيقه، لكن..»

فقامت (أنا) وقالت فى كبير هدوء..

«المكسب لم يأتِ بعد، أيكون مكسبنا خمسة آلاف بعد كل هذا العناء المتقشف ؟ »!

ثم نظرت إلى حقيبتها وقالت:

"ثمة فرصٌ تأتينا، وثمة فرصٌ يجب علينا صنعها"

فتحت حقيبتها بقوة وأخرجت مذكرة صغيرة مليئة بأرقام هواتف، أمسكت قلمًا، وأمرت إحداهن أن تخرج ورقة كبيرة وقلما آخر. اتصلت بأول رقم فى مذكرتها..

"أهلا، معك مسئولة الدعاية لدى BTM"

"هذا عجيب، الصحافة تتكلم عن جرأة المسئولين فى مجلتكم. أمرنى رئيسى بالوصول إليكم.."

"جيد، لدينا مكانان فارغان فقط للإعلانات فى العدد القادم، ورشحناكم لوضع إعلانا لماركة الملابس خاصتكم بجوار إعلان سيارات BTM، وإعلان كوكاكولا، هل تودون وضع إعلانكم بجوار إعلان هذين الشركتين العالميتين.. لقد أنهى موزعونا عشرة آلاف نسخة فى أقل من ساعتين "

"هذا ما كنا نفكر فيه، لقد خشينا أن يسبقنا أحدًا. سيفرحُ بى مديرى، أرجوكِ لا تخبريهم بأنكِ من اتصلتِ، فسأخبرهم أنى من سعيتُ وراءكم "

"لا بأس، يمكنكُ زيارتنا اليوم لنتكلم عن التفاصيل"

نظرتْ حبيبتى إليهن، وقالت:

"اكتبن يا فتيات، شركة كارما للملابس الجاهزة ستكون أول شركة لديها

إعلان غير مجانى فى مجلتنا»

ثم لم تسمح لهنّ بالاندهاش، إذ نظرت للرقم الذى يليه بعد أن ميّزت رقم سكرتير مسئول دعاية شركة كارما بعلامة (صح) فى مذكرتها، ثم نظرت للرقم الذى يليه..

«أنا رئيسية تحرير مجلة BTM الشبابية، آسفة على عجلتى فى الكلام. لدينا إعلانان فارغان فقط بالمجلة ورشحنا إعلانًا لسلسلة مطاعمكم، سيكون إعلانكم بجوار إعلان شركةBMW، وشركة كارما للملابس، وشركة كوكاكولا.. هل ترغبون فى قبول ترشحينا لكم؟ أم ستفوز شركة أخرى بذلك ؟ »

بعد عشرين مكالمة، حصلت بها حبيبتى على سبع إعلانات، أغلقت (أنا) مذكرتها.. وجلست أخيرًا.. قالت وهى تنظر إلى السقف وتمد ساقيها أمامها كمن يسترخى بعد سباق جرى..

«الآن.. عرفتم ما فائدة الإعلانين المجانيين»

وكما يمكننى أن أتخيل تماما، أمسى كل تفكيرُ الشريكات الأخريات يدور حول مدى مكسبهن فى العدد القادم، بعد أن كن يحاولن إخبارها أن كل شيء انتهى..

والآن، لعلكم تتساءلون كيف حصلتُ عليها، أعنى كيف حصلتُ على حبيبتى (أنا)، كيف وجدتُ المنجم، أحيانا أتساءل بينى وبين نفسى بعد

أن ماتت، هل كانت (أنا) قصة من نسج خيالى؟ هل هى حكاية قصيرة ألفتها وبرعتُ فى تأليفها.. فقد يكون برأسى عطلٌ جعلنى لا أستطيع التفريق بين الواقع الذى أحياه وبين الخيال الذى أكتبه فى قصه، إلا أن الجميع لا زال يتحدث عنها، لؤى لا زال يبكى لموتها، وأمى كذلك، وأبى الذى قال لى إنه يتمنى أن لو يرزق ببنت مثلها.. هذا يقينى أنها كانت موجودة بالفعل، هذا يعنى أننى لازلت عاقلًا،..

ها هى البداية، حين اجتمع الريفى مع المدنية، والمتدين مع المؤمنة المتحررة، وغير الراضى عن ربه بالراضية!!، ثمة شىء آخر من سمات جمالها وتفردها، فأجمل ما فى (أنا) أنها كانت تعرف الحقيقة، تعى معنى النهايات، وهذا ما كان يجعلها دوما مستريحة، تشعرُ بانغماسها التام فى الأمان النفسى. لم تكن حدود نظرتها للأشياء تحسب بالأشكال أو الأثمان أو الأبعاد المتفق عليها لدى الجميع، بل كانت نظرتها تتخطى ذلك، فدائما ما تتعمق إلى الجوهر، أو تصلُ بعيدٍ إلى الغاية و المقصد..

"بعد إطعام جائع فى السر، أو كِسوة عارٍ

تأتى القبلة الممنوحة بلا سبب

كأجمل إحساس فى الوجود"

المؤلف

الباب الثانى:

(١٠)

(هالة) هو اسمها.. أول مرة سمعتُ فيها اسمها كان فى عيادة الدكتور حليم، عيادته تسمى هكذا فقط (عيادة الدكتور حليم) ثلاث كلمات باللون الأبيض على لوحة خشبية تم طلاؤها باللون الأسود.. واختصاره فى لافتة تلك عائدٌ بالطبع إلى شهرته الواسعة فى القاهرة، بل إن أبى أحيانا ما كان يتعرف أثناء انتظارنا لدورنا على أناس آتين إلى الدكتور حليم من محافظات بعيدة جدا عن العاصمة القاهرة.. كنت جالسًا على الكرسى المتحرك فى إحدى زوايا غرفة الانتظار الضيقة حين نادت السكرتيرة الكبيرة فى السن على هذا الاسم..

«هالة»

فصعدتْ أخيرًا، كانت واقفة على إحدى درجات السلم كما العديد من مرافقى المرضى. صعدتْ تمشى على قدميها، لم تبدو مريضة على الإطلاق، بل بدت وكأنها أكثر صحة من الدكتور حليم الذى يداوى الناس**!**. كانت ترتدى ملابس لا ترتديها الفتيات فى قريتى، يرتدون بنطالًا أزرق مشبع باللون الثلجى الباهت، وقميصًا باللون السماوى الفاتح، بدا واضحًا لى أنه

قميص رجالى، ثنت أكمامه مرتين حتى وصل إلى منتصف زند ذراعيها، واختفى الطرف السفلى للقميص إذ كان مستقرًا بارتياح خلف دائرة بنطالها التى تجاوزت ردفيها بكثير، وصعدت لتحيط أسفل خصرها.. ربما نبضات القلب المتزايدة فى صدرى، ودفعات الإدرينالين التى انتفضت كالموجات فى أنحاء جسدى وإحساسى بأن لدى ساقًا جديدة غير التى فقدتُها وأننى قادر على الوقوف والهرولة إليها لإخبارها كم هى جميلة، ربما هذا ما يسمى الحب.

لا أدرى هل أحببتُ الحياة حين رأيتها وطردت فكرة الانتحار من رأسى أم أن الحياة هى التى أحبتنى؟.. بالفعل، ولأول مرة منذ زمن بعيد تمنيت أن أعيش لحظات أخرى أرى فيها هذه الهالة.. كانت السكرتيرة العجوز تعرفها، ومعظم المرضى فى الغرفة كذلك، كانت هالة تصافحهم وهى تحاول أن تُظهر لهم أنها تعرفهم، مع أنى كنت أرى فى عينيها وهى تنظر إليهم أنها لا تعرفهم، لكن عينيها لم تقع علىّ، ولا حتى عين واحدة..

تحركت قدميها بتلقائية إلى غرفة الدكتور، وكأنها معتادة على هذا المكان، دخلت بمفردها، فلم يكن معها والدٌ ولا والدةٌ مثلى.. لا أدرى كم فات من الوقت فقد كنت مشغول الذهن، حتى سمعتُ السكرتيرة العجوز تنادى علىّ..

"زين "؟

نظرتْ السكرتيرة إلىّ وهى تبذل جهدا فى رأسها وتضيّق عينيها كى تتذكرنى،

فقد شعرتْ أنها رأتنى من قبل، وبالفعل قد رأتنى منذ أربع سنوات. دفع أبى كرسي المتحرك بلطف ينافى ضخامة جسده، ومشى خطوات بسيطة خلفى وأنا أتخيل لحيته الفحمية ذات الخط الطولى الأبيض، تهتز بتردد ثابت فوق رأسى وهو يوسوس لأمى بشىء. توقف أبى عند باب غرفة الطبيب، وأمسكت أمى بالكرسى، ورجع هو مكانه حيث كان يجلس فى غرفة الانتظار. أظنه نظرَ إلى الدكتور ولم ينظر إلى هالة، دخلنا أنا وأمى وخرجتْ من خلفنا السكرتيرة وأغلقتْ الباب.. كانت واقفة بجواره ينسدل شعرها اللامع على أحد كتفيها دون الآخر، فى حين كانت أمى تتأمل غرفة الدكتور حليم بشاشاتها الضخمة، وستائرها الخضراء، وأثاثها البنى المذهبة أطرافه، والمقاعد الجلدية بأكملها وتقارنها بعيادته القديمة التى زرناه فيها منذ أربع سنين. حينها، كنت أتأمل (أنا).. هالة.. هالتى فيما بعد.. رأيتها بوضوح على النور الأبيض القوى الصادر من كل سقف الغرفة. أحببتُ الله فى تلك اللحظة لأنه خلق شيئًا جميلًا ولم يسمح لأحد من خلقه بتشويهه ثم تركه على قيد الحياة.

حتى حبوب المراهقة التى تنتشر على وجوه الحسناوات، تبرأ منها وجه هالة، بل حتى نصف الكرة السوداء أضفت على وجهها المضىء جمال حين وضعها الله فى هذا المكان على خدّها، قريبا من يسار أنفها.. بدت حسنة بالفعل كما يطلقون عليها **!!**

سقطت عينيها من على والدتى علىّ، فابتسمتْ إلىّ وكأنها كانت فى انتظارى، فلم أبتسم لها متجنبا شعورى بأنى شاب مسكين برىء، تدفعه أمه أمامها

على كرسى متحرك ويشفق عليه الناس بحنان ابتساماتهم..

خطر ببالى أنها قد تكون مريضة بأحد الأمراض الداخلية الخبيثة، كأى مرض فى القلب أو الرأس، تلك الأشياء التى لا تعبث بشكلك ولكنها تنخر فى أشيائك بالداخل، ولوهلة ظننتُ أن الله لم يخلق شيئًا جميلًا ويتركه جميلًا قط.

تكلم الدكتور..

"ماذا بك أيها الفتى القوى"

ثم ابتعد عن هالة وجلس على كرسى مكتبه، وتابع قائلًا وهو ينظر إلىّ بفخر..

"أعلمُ أنك لم تجلس على الكرسى المتحرك إلا قريبا، لعلك لا تعتاد عليه بعد، أعلم هذا بسبب خبرتى بالطبع، فلو أنك اعتدت الجلوس عليه منذ زمن بعيد لصرت الآن ذا كرشٍ واسع كخزان سيارتى الجديدة، وكفٍ عريض، وقدمٍ لا يوجد أى حذاء يمكن أن يحتويها، هههههههه "!

فردتْ أمى.. وانتقلتْ عينى هالة من مكتب الطبيب إلى فوق بقليل حيث وجه أمى..

"لا يا دكتور حليم، إنه يرتاد هذا الكرسى منذ أربع سنوات، منذ كان فى الخامسة عشرة من عمره، إنك من أمرت بإحضار هذا الكرسى له.. يبدو أنك لا... "

«ما مرض هالة يا دكتور ؟ »

سمعتُنى أقول هذا فجأة، يبدو أننى من سألت هذا السؤال بالفعل، ظلت عيناى هالة الأسرتين تحدقان فى أمى للحظات وأنا أنظر إلى نقائهما من زاوية منخفضة.. ثم انحنيا برموشهما ببطء إلىّ، توترت ضربات قلبى ولم تنتظم، وأحسست بإحساس غير الخوف ولكنه يشبهه. قالت فى حين صمت كل شىء:

«هه.. أتعرف اسمى؟ »**!!**

«امممم،آسف.. فأنا أفكر أحيانا بصوتٍ عالٍ.. سمعتُ السكرتيرة العجوز وهى تنادى عليك»

فقال الطبيب وهى يطوى بعض الأوراق أمامه..

«لا تلقبها بالعجوز، إنها أمى»

فتعجبتُ، وكادت أن تخرج ضحكة هادئة من فمى، لكن أخفضتُ صوتى وقلت:

«لا مانع، إنها أمك يا دكتور، وهى أيضًا عجوز، أليست هذه حقيقة ؟»

فابتسم الدكتور ولم يبدُ أبلهًا فى هذه اللحظة.. وقال:

«إذن، أخبرنى حقيقتك. ماذا بك ؟ »

لعشر دقائق كانت تتكلم أمى مع الدكتور، وكنتُ أشرئبُ بنظرى إلى النور الطبيعى البشرى، وكانت هى تخطف نظرة تلو الأخرى ناحيتى، تصادم بصرنا مرتين أو ثلاثة فى العشر دقائق، وحين تتقابل العيون إذ لا مفر.. كان اللون الأحمر ينتشر فى خديها كقطرة من مسحوق وردة حمراء وقعت على سطح ماء نقى مضطرب..

لم أدرك فى تلك اللحظة أن هالة تستمع كما أستمعُ أنا إلى أمى وهى تحكى للطبيب عن بداية قصتى فى محطة القطار، وأنه حين فقدتُ ساقى اليسرى وقمتُ بعد شهرين لأقف على قدمى اليمنى، وجدتها غير قادرة على حملى. ولأنهم أهملوا قدمى اليمنى وانشغلوا بكونى فقدتُ ساقى اليسرى، ولأنى كنت لا أشعر بألمٍ فى اليمنى، إذ كان ألم المفقودة يطغى على كل ما هو موجود.. ظن الجميع أن اليمنى بخير، وهذا ما لم يكن. ففى الوقت الذى كانت ساقى اليسرى تنفصل عنى شيئًا فشيئًا، أثناء كنتُ محشورًا بين القطار الحديدى والرصيف الخرسانى للمحطة، وحين كانت أمى تصرخ بداخل القطار المتحرك وتحاول بجنون أن تجذبنى وسط ذهول الناس وجرى الشباب ناحيتى وتقىء فتاتين يحاولن منع أعينهن من النظر إلى، فى ذلك الوقت، كان مفصل قدمى اليمنى قد كُسر بالفعل " شىء فى الكعب بالإضافة إلى تمزقٍ فى الأعصاب " وإن بدت قدمى سليمة من الخارج.

كان جمال هالة ينسينى أنها تسمع حديث أمى، أو ربما يجعلنى أتجاهل كونها قد تُشفق على.. أو لا أدرى، ربما جعلتنى أتمنى شفقتها على. أوضحتْ أمى أنهم لما صُدموا بأنى لا أقدر على الوقوف على قدمى المتبقية أتوا بى إلى هنا..

إلى الدكتور حليم، لكن حين كانت عيادته لا تختلف فى شىء عن فصلى فى مدرستى بالقرية، وفى تلك اللحظة، تغيّرت نبرة أمى وأخبرت الدكتور وكأنه تتهمه بأنه من أخبرها بفوات الأوان وبأننى سأجلس على كرسى يتحرك بعجلات بلاستيكية مدى الحياة..

بدا على الدكتور أنه لم يتذكر أو حتى لم يبذل جهدًا ليجد ذلك فى ذاكرته، لكنه قال:

"امممم، لم أفهم سبب مجيئك الآن أيضًا، هل استطعتْ أن تتحرك بمفردك يا بنى؟ هل اكتشفت مؤخرا أننى مخطئ وأننى لا أفهم شىء فى الطب، وأن الشهادة المعلقة هناك مزورة، وأن كل هؤلاء المرضى بالخارج مغفلين؟ "!

فتكلمتُ لأن أمى فقيرة، والفقراء دوما خائفون، حتى وإن دفعوا ثمن تذكرة الكشف مثل الأغنياء..

"إننا لا نتحداك يا دكتور، كل ما فى الأمر أنه قد خطر ببال أبى أنه بعد أربع سنوات من جلوسى على هذا الكرسى، وانتظار الطب يجرى فى مضمار التقدم، يمكن أن يكون قد اكتشف أحدهم كيف يعالج ما بى وأمثالى. مع أننى لا أقتنع بما يقولون، فلو استطعتم أن تصلحوا قدمى اليمنى، بالطبع لن تستطيعوا إحضار ساق يسرى"!

رأيتُ انفراجة بين شفتى هالة الحمراوتين، وبدت أنها على وشك أن تقول شيئًا، فلّما رأتنى أتأملها كما لم يتأملها أحدٌ من قبل، سكتت، أخبرتنى فيما بعد، ماذا كانت تريد أن تقول... قال الطبيب:

«انظر يا بنى، لقد فهمتُ ما تعنيه الآن.. نظرا لخبرتى الواسعة فى طب الأعصاب، ونظرا أيضًا لكونكَ ووالدتكَ سافرتم من مكان بعيد لكى تصلوا إلى هنا.. حقا، لا أدرى، هل أنتم من بلدة بعيدة بالفعل، لا يهم.. ما أود قوله، أننى سأُجرى الفحوصات لكَ من جديد وأخبرك إن كان من الممكن إصلاح عطلكَ أو لا.. اتفقنا؟»

فقالت أمى وأنا أشعر بالحرارة فى يدها على الجزء العارى من رقبتى:

«اتفقنا»

فى نهاية حجرة الدكتور، والتى تبدو أكبر من غرفة الانتظار الخاصة بالمرضى والزائرين !، كانت ستارة سميكة، مشى إليها الدكتور وحرّكها حتى انكمشت بأكملها فى أحد طرفى الحائط، ظهر باب زجاجى فى منتصف الجدار، وهو المعبرُ السرى لغرفته السرية والتى بدت من خلاله الأجهزة البيضاء الكبيرة واضحة لنا، ضغط على زرٍ بجوار الباب، ففُتح الباب وصدر صوت جرس متحمس يختلف عن صوت الجرس الذى مملتُ من سماعه حين كنت فى غرفة الانتظار.. وبنفس حماسة الجرس دخلت أم الدكتور (أقصد العجوز)، فَتحتْ أحد الأدراج السفلية لمكتب الدكتور، وأخذت بعض المراهم والأكياس التى تحتوى على سوائل عديمة اللون، وحين همّت أمى لتتحرك بى خلف الطبيب إلى داخل غرفته السرية، منعتها العجوز من الدخول وأخذت مكانها خلفى ودفعتنى هى إلى الداخل..

بالداخل، كنت أنا والدكتور والعجوز، نظرتُ خلفى بعناءٍ كيما أرى أمى

واقفة قريبا جدا من الباب الزجاجى، والقلق كاسيها، وعن يمينها ومن ورائها قليلا، كانت هالة، تسترق نظرة متوترة إلى داخل الغرفة، حتى حين كانت متوترة كانت جميلة. لعنتُ نفسى ولعنتُ الدكتور وأمه، فقد تخيلتُ أنهما سيساعدان بعضهما فى أن يجردانى من بنطالى، ويدلكان ساقى وقدمىّ بالسوائل ليضعانى داخل أحد هذه الأجهزة البيضاء ليتم فحصى. تمنيتُ الموت فعلا، لكن ليس لى فى هذه المرة، بل للدكتور وأمه، فقد بدأت فكرة الانتحار تتزحزح قليلا عن ثباتها منذ رؤيتى لهالة، ظننتُ أن ثمة أشياء جميلة فى الحياة يجب أن أعيش لأراها، وها هى ذى سترى أشياءً ليست جميلة بالمرة، (سترى ساقا، ليست موجودة) وشابا لا يقدر على خلع بنطاله بنفسه.. وبالفعل، فَعَلا ما تخيلته تماما لكن بعد أن أسدلت العجوز ستارا أسودا داخل الغرفة، فحجبتْ الرؤية عن أمى وهالتى. وعندما فرحتُ لكونى بعيدا عن أنظارها، لم أكن أتخيل أنه فى ليلة ما فى مستقبلى، والذى أمسى الماضى الآن، ستساعدنى كما سأساعدها على التجرد من كل شىء. خرجنا، وأُغلق الباب الزجاجى خلفنا، وبدا الدكتور فرحا منشكحا للغاية فقد استطاع أن يثبت أنه على حق، وأننى لن أترك الكرسى المتحرك مدى الحياة..

العديد من الأشياء حدثت فى نفس الوقت.. دمعاتٌ منسابةٌ على وجه أمى فى صمت، درجٌ فى أسفل المكتب يُفتح وتُضع فيه بعض الأكياس، ابتسامةٌ لا تفسير منطقى لها على وجه الطبيب، خروج العجوز من غرفة الطبيب، ذهولٌ فى عينى هالة الواسعتين.. انفراجةٌ تزداد فى ثغرها. كان الجميع يُفكر فىّ بينما كنت أفكر فيها، إذ غدا واضحا أنى لن أراها ثانية، وأنه لا فرصة

لى كى أعود إلى هنا.. ربما سأعود بعد أربع سنين !!، فكرتُ فى أن أفعل أى شىء، أى شىء يمكن أن يُمدد من وقت وجودى معها أو وجودها معنا، لكن ما من شىء يمكننى فعله.

ضغط الطبيب على شىء بارزٍ فى مكتبه فصدح صوت الجرس الممل، وصاحت العجوز بالخارج تنادى على التالى، فقبضتُ كفى حزنا:

"هيا يا أمى، أخرجينى من هنا.. أخرجينى يا أمى العجوز"

ثم ارتفع ذقنى إلى أعلى وأنا أنظر أمى الباكية فوقى..

"ألستِ أمى؟ وألستِ عجوزا كذلك؟"!

فزمجر الطبيب، وضحكتْ عليه.. وسقط قلبى مغشيا عليه من الرقص.

(١١)

«اضحكى من أجلى يا هالة»

لم ترد على، بل قامت من جوارى، واستدارت حول السرير وفتحت النافذة عن آخرها..

«هالة.. اضحكى من أجلى.. يا أنا »

كنت أترجّها لكنها لا تدرك ذلك. جلستْ على حافة السرير حيث تسلطت أشعة الشمس من عبر النافذة..

«لا ، لن أضحك.. ولن أضحك لك للأبد »

حاولتْ أن تظهر تعبيرات الغضب، لكنها لا تجيد استدعاءها.. فضحكتُ أنا، فبدت غاضبة حقا..

«أتعلم يا هذا؟ لولا أن والدتك اتصلت بى فى الصباح الباكر، لمَ أتيت إليك.. هذا شىء هل أخبرك شيئًا آخر ؟.. أنت أنانى ولا تحب إلا نفسك »

أخرجتْ زفيرا طويلا، وكأنها كانت فى سباق ركض طويلٍ وانتهت منه لتوها، تكلمتُ وأنا أحاول كتم ضحكتى..

"لكن أمى لم تتصل بكِ.. أنسيتِ أنه لا يوجد فى البيت من يستطيع استعمال الهاتف غيرى "

وكزتنى فى كتفى بضربة قوية آلمتنى، حتى أننى وضعتُ يدى على كتفى مدة طويلة لم أستطع منع نفسى فيها من الضحك.. قلتُ ولازلتُ واضعا يدى على كتفى..

"إذن، هل أخبرك أنا شيئًا ؟ لا أريدكِ أن تضحكى تبدين جميلة وأنتِ غاضبة.. وبالمناسبة مضطرٌ لإخباركِ أنى مشغول هذا المساء، وبالطبع لن أشاهد معكِ أى أفلام.. امممم، لكن انتابتنى فكرة، يمكنكِ المكوثُ هنا، ومشاهدة الفيلم بمفردكِ فى هدوء.. وعندما أعود سيكون باستطاعتكِ أن تحكى لى الأحداث.. اممممم، كل الأحداث "

سكتُّ لمّا شعرتُ أنها ستحطم كتفى، فى حين قامت هى وأخذت حقيبتها وخرجتْ ثم دخلتْ فى هدوء ووقفت بجوارى ووكزتنى حتى صرختُ.. ثم خرجتْ !

لا أدرى لماذا قفزتُ ثمانين يومًا فى أحداث قصتى، لعلنى حين كنت أحكى لكم عن ابتسامتها الأولى لى فى عيادة الدكتور حليم، تذكرتُ رجائى لها بعد ثلاثة شهور أن تضحك من أجلى، هذا يومان سيظلان قائمين فى ذاكرتى كصنمين تواطأ عليهما والناس والزمن.. ذلك اليوم الذى خرجتْ دون أن تضحك لى، وذلك اليوم الآخر يوم أن ماتت ولم تضحك أيضًا، وأنا على يقين، سواءٌ صدقتمونى أو لا، أنها كانت تحاول أن تضحك من أجلى وهى على

فراش الموت.. رأيتُ ذلك فى عينيها، بل كانت عيناها الدامعتين تبتسمان.. لكنها لمّا لم تقدر، رمقتنى بضعفٍ وقالت:

"ابكِ يا أنا"

هذا لأنها كانت تعلمُ من تكون بالنسبة لجسدى.. وقلبى وروحى وعقلى، بل من تكون بالنسبة لدنياى وآخرتى. مهلا دعونى أبحث فى نوتات ذاكرتى المبعثرة، وأكمل لكم من حيث توقفنا.. لمّا عدت وأبى وأمى إلى القرية بعد انتهاء كشف الطبيب، وبمجرد أن أنزلونى من السيارة الخاصة التى أخذ سائقها نصف الأموال التى فى جيب أبى، علما بأن جيب أبى يحوى كل الأموال التى يمكن أن نمتلكها أنا وأمى وأخى على المتوفى، وفرج وبسنت.

حركتُ بذراعىّ عجلات الكرسى، وهذا نادرا ما يحدث، إلى أن اجتزت حوش البيت دون أن تصاب عجلاتى بأى أذى من روث الغنم الحر.. كنتُ متوجهًا بصدرى وكرسيي ناحية باب المنزل المنتصب بين نخلتين صغيرتين. فى الحقيقة كانت نخلة واحدة طويلة، لكن أبى قسمها من منتصفها إلى نصفين مناسبين لأن يحتويا الباب بينهما، وأن يساعدا بقية أفرع الأشجار وسيقانها فى حمل سقف منزلنا. دائما ما كنتُ أكذب على أصدقائى القدامى فى المدرسة، حين كان عندى ساقان وأخبرهم أن لبابنا عمودين من النخل، يقف الباب بفخر وهما يسندانه على جانبيه كجناحى النسر الشامخ المرسوم فى منتصف علم دولتنا، إذا كان معظم أصدقائى الفقراء لا تحتوى منازلهم إلا على نخلة قصيرة واحدة تقف طوال عمرها فى منتصف البيت لتحمل

معظم ثقل السقف المكون من كل شىء فى الطبيعة عدا الخرسانة.. حتى أولئك الذين بنوا منازل جديدة لهم أيام ثورة الخامس والعشرين من يناير، حين كان لا يجرؤ موظف فى الحكومة أن يدخل قريتنا أو أخرى بجوارها، ويسأل إن كان هذا المنزل مرخصًا أم لا. أترانى لما كذبتُ عليهم وقلتُ أن لبابنا نخلتين، عاقبنى القدير الذى يتحكم فى بيوت كل الناس وسيقانهم، وجعل لى ساقا واحدة لا يمكننى استعمالها ؟!!

بعد أن اجتزت الحوش وتبقى أن أدخل المنزل، انتظرت أمام الباب المفتوح والذى ظهر من خلاله فجأة التوأمان فرج وبسنت يحدّقان فىّ ولا يجرؤان على أن يسألانى عمّا قاله لى الطبيب، فقد كانا يتجنبانى منذ أن فسّر لهم والدى، كيف أنى أصبحت عصبيا جدا بسبب المخدر، والمنوم الذى كنت قد أدمنته لفترة، حتى طفق هذا المنوم كشىء ضرورى من ضروريات الأشياء التى تأخذ نصيبا من جيب أبى الفقير. لو كانا يستطيعان حملى بعجلاتى إلى الداخل لأمرتهما بذلك لكنهما كانا لا يزالان فى الثانية عشرة من عمرهما المشترك.. أصلا لم يكن للباب عتبة، هو لوحٌ خشبىٌ ماهوجنى ليس بسميك، ويعتبرُ هذا اللوح هو ثانى أغلى قطعة فى بيتنا بعد حديدة الفرن، وجد أبى هذا اللوح وسمّره على النخلتين أمام الباب، كى يمنع الفئران من الدخول ليلا والأكل من عجينة أمى التى تتركها لتتخمر طوال الليل. وكم أفرحنى ذلك؟ ليس لكون عجينة أمى لن تأكلها الفئران، بل لأننى وجدت سببًا مقنعًا يمكننى أن أصرخ به حين تنادى أمى..

«لماذا لا تخرج من غرفتك، وتستنشق الهواء الطلق فى الغيط مع أبيك؟»

التفتُ برأسى إلى ورائى لأنظر لمَ لم يأتِ أحد ليحملنى؟ وعندما لم أتمكن من رؤية شىء، قبضتُ بكفى اليسرى على العجلة اليسرى وثبّتها كى لا تتحرك، ثم حركت اليمنى رويدا رويدا حتى استدار الكرسى بكامله وأصبح ظهره للتوأمين. أتى فى طيف مخيلتى صورة لأختى بسنت وهى تقف خلفى تحتضن بذراعيها إحدى النخلتين وتنظر إلى النتوءين البارزين فى ظهر الكرسى بشفقة.. لا تخدعكم هذه الصورة، إنها لا تُشفق علىّ بل على نفسها، فهى الوحيدة من أفراد أسرتى التى أمنعها من أن تقودنى مثل الجميع، وأحيانا ما كنت أسمعها تبكى لأبى وتشتكى له من أخيها فرج الذى يذهب لإغاظتها بعد أن أمره بأن يعيد توجيهى عندما لا أستطيع الدوران أمام المدخل الضيقة والمشتركة للحمام والمطبخ، وأيضًا عندما أريد أن أنهض من الكرسى إلى السرير وأخشى أن يأمر الله العجلات أن تتحرك فى تلك اللحظة التى أقفز فيها، كما أمر عجلات القطار بالتحرك فى اللحظة التى قفزت فيها، لكن ضحكة أبى كانت تنقطع حين يسمعنى أغمغم بذلك بين أسنانى وأنا أسحب غطائى على جسدى بعد أن أطمئن على السرير، كان يصرخ فى صالة البيت..

«لو أرادَ الله أن يحرك عجلات كرسيك يا زين، فلن أستطيع أنا إيقافها، فما بالك بأخيك الصغير؟»

وكانت أمى ترد عليه من مطبخها لتنهى حوارنا الذى لم يبدأ..

«ربنا لا يريد إلا الخير، كلنا تحت رحمته»

إلا أن هالة قالت لى فيما بعد، ما فاجئنى حينها.. قالت:

«ليس شرطًا أن يحرك الله العجلات، أو أن يجعلك تفلتُ من يد حاملك، قد يجعلك تسقط دون أن يتحرك شىء، حتى دون أن تتحرك أنت»

«كيف ذاك ؟ »!

«لا أدرى لكنى مؤمنة بذلك»

وماتت هى دون أن يتحرك شىء. كانت أبواب السيارة الخاصة لازالت مفتوحة، وكان أبى وصديقه العم مسعود يتحدثان للسائق، وستة أيدٍ تتحرك فى الفراغ بينهم.. وعلى بعد منهم كانت، من المؤكد وصديقه كانا يحاولان إرجاع شىء من المال الذى خرج من فضاء جيب أبى، وشعر بالدفء فى وسط المال الكثير فى جيب السائق..

أغلق السائق أبواب سيارته، وارتفع صوت محركها وهى تبتعد عن منزلنا، مشى أبى إلى داخل الحوش وعن يساره العم مسعود الذى إن افتخر أبى بعرضه لافتخر هو بطوله، ثم ظهرت أمى عن يمينه بعد أن تلاشت السحابة السوداء التى ولدت من الرحم الخلفى للسيارة، أصبحتُ لا أعرف إن كان أبى حزينا منكّس الرأس لأجل ما قاله الدكتور عن قدمى التى لن تسير أبدا، أم لأجل بطون أسرته التى ستنكمش فوق انكماشها طيلة أيامٍ لا يعلم عددها إلا الله.

ابتسمتُ لأبى حين اقترب، وأعرف أنهما (أبى وأمى) تفاجأ لكونى ابتسمت،

حتى أن خطوات أبى إلىّ تسرّعت.. سأله العم مسعود وهو يسند أحد ذراعيه الطويلين جدا على كتفى..

«ماذا قال الطب يا أبو زين ؟»

فتناول أبى ذفنى وحملها بإصبعين فقط إلى أعلى كى ما يرى بسمتى، فزدتُ ابتسامتى فكادت عيناه أن تدمع.. انحنى أبى إلى العجلة وأمسكها بيدٍ وبالأخرى أمسك النتوء الحديدى..

«سنتحدث بالداخل يا أبو لؤى، احمل معى.. »

فانحنى العم مسعود ودخلت أمى تهرول قبلهما، حملانى، دون أن يستديرا بى ويوجهانى ثانية إلى الباب، قِبلتهما إلى الداخل ووجهى المستدبر لهما تزول منه البسمة وأنا أنظر إلى خروف وقف فجأة فى منتصف الحوش يتأملنا.

بمجرد أن لمستْ عجلاتى الأرض، حتى طرتُ إلى غرفتى، وأغلقتُ الباب، ولم أنادِ على فرج كى يمسك بالكرسى إلى أن أقفز على السرير، بل شعرتُ أننى أريد أن فعل ذلك الشىء الذى يفعله أحدكم حين يشغله أمر ما ويدور بذهنه.. حين يظل يمشى ذهابًا وإيابًا فى غرفته، يجىء ويروح فى نفس المكان. وبالفعل، قررتُ أن أفعل ذلك بكرسي...... حدثتُ نفسى:

«ماذا يا زين؟.. ضاعت منك، أليس كذلك ؟.. حتى لو كانت أمامك الآن،.. هه.. ماذا ستفعل وأنت جالس على كرسيك هذا؟ »

كنتُ قد وصلتُ إلى نهاية الغرفة، فثبّتُ عجلة وحركتُ الأخرى حتى

استدرتُ..

"حتى كرسيك اللعين هذا، بدأ الصدأ يستشرى فيه.. لماذا لا تبدو حزينا يا زين ؟.. عجبًا أنا لستُ حزينا.. ما هذا الذى يحدث ؟.. يا زين، إنك ذا ساقٍ واحدة لا تعمل، ولا يمكنك أن تقف فضلا عن أن تتباهى بجسدك.. فضلا عن أن تخبر إحداهن كم أنت معجبٌ بها.. أهذا شىءٌ يدعو إلى عدم حزنك، ما هذه الطمأنينة ؟"

استدرتُ وبدا صوتى يرتفع وأنا بمفردى فى الغرفة..

"أعلمُ لماذا لا يبدو عليكِ الحزن يا نفسى العجيبة،.. لأنكِ ستعاودين كتابة القصص، أشتاق إلى وصفها. سأحيكُ رواية من خيالى وأجعلها بطلتها.. آها.. ومن الممكن أن ينجح الأمر، وأتمكن من صنع عملٍ روائىٍ كامل، ومن ثَم يمكننى بيعه وإسعاد أمى وأبى وبسنت وفرج.."

بدأت ذراعىّ يؤلماننى، لكننى قاومت واستدرت..

"لا بأس يا زين.. لعلها أتت لتلهمك فقط برؤيتها، وأنت بارع فى الباقى. انسج حولها عالما بأكمله من خيالك.. أحبَ الحياة ثانية أرجوك.. ألا يوجد أى شىء يجعلك تحبُ الحياة ؟.. إنك لست أعمى.. نعم لست أعمى.. لديك عينان شاهدا أجمل فتاة فى العالم اليوم، هل أحببتها ؟.. بالطبع أحببتها، لكن، هل أحببتها لجمالها، أم أن هناك شىء لا تجد له تفسيرا ؟"

ترخى ذراعىّ كرجلين امتدا مفترشين الأرض بعد عمل يومٍ شاقٍ اشتركا فيه،

رفعتهما بجهد وأسندتهما على العجلات، وقاوما معا حتى استطاعا تدوير عجلاتى دورة واحدة استطعتُ بعدها أن أمسك طرف السرير. أخذتُ كل التدابير التى يمكن لمثلى أن يتخذها إذا أراد أن يقفز بمفرده على السرير، أخذتُ شهيقا ثم أخرجتُ زفيرا، وأخذتُ شهيقا آخر ثم أخرجته، ثم أخذت الثالث وبسرعة أمسكت بشمالى فرش السرير، وضربتُ بيمناى على المسند الحديدى للكرسى.. وكرصاصة فارغة، أو بلون كبيرة تصنعها بين شفتيك باللبان فى فمك ثم تتهشم وتنهار على نفسها، أو كفيلمٍ درامى مثير قتلتك برودة نهايته.. شعرتُ بعضلات ذراعى المنهك الذى دفعنى وهى تخرجُ الزفير الثالث على أرض الغرفة، والكرسى يتحرك ببطء وبمفرده إلى الوراء، وفرشة السرير تسقطُ على من الهواء لتغطينى وتغطى باقى الحصير وينحدر طرفها تحت السرير... !

(١٢)

استيقظتُ على النداء المكتوم الصادر من حلق صديقى، والذى اعتدت على الاستيقاظ عليه منذ الصغر، رأيتُنى على السرير ولست على الأرض، بل على الأرض كان يقف لؤى. خطفت شفتاى بسمة سريعة كوردة لم تُرد أن تتفتح فى الصباح مع أنها تستمتع ببادرة شروق الشمس. أمرته أن يفتح شباك النافذة، فحدّق فىّ برهة يتأملنى وأنا أعلم أنه يرى فى وجهى ما لم يره منذ زمن، دخلت أشعة الشمس حتى كادت أن تنير ثلثَ سريرى، فعلمتُ أن الساعة قد تجاوزت العاشرة وأننى نمتُ الكثير.. غمغم لؤى وتبدو عليه اللهفة وأمكننى أن أخمن عن أى شىء يسأل.. أجبتُ:

«لأننا يمكن أن نصير أغنياء »**!!**

فابتسم وقفز إلى جوارى، وإذ لم يستقر بعد، قفز ثانية وأحضر ورقته وقلمه، فالحديث سيكون مهما على ما يبدو..

كان يحاول أن يسألنى «لمَ تبدو سعيدا ؟»، فلم أستطع أن أخبره أنى وقعتُ فى الحب.. بل قلتُ.. إنه ربما قد أصير غنيا. وكلما أتذكر وصفى الأول لسعادتى وأنى ألبستها غير لباسها وزعمتُ أن سببها احتمال الحصول على المال، فى حين كان سببُ سعادتى، هو تأكد وقوعى فى الحب، أتذكر حينها

وصفها الدائم لى لمدة ستة شهور بأنى أنانى..

"أنت أنانى، لا تعرف معنى القيمة، ولا تحب إلا نفسك"

علمتُ أن كل النساء يصفون كل الرجال بأنهم أنانيون، فبسنت تصرخ بها فى وجه فرج، وأمى تجعلها نعتُ أبى الدائم.. الأنانية.. حتى أننى فكرتُ فعليا (ماذا لو كانت النساء على حق، وكان كل الرجال أنانيون ؟)!، لكن ذهنى أجاب مدافعا عنى، بأن الرجال أنانيون فيما يخص الرجال، أنانيون فى الخلوة أحيانا، فى الضحكة التى لا يفهمُ النساء سببها ولا يجبُ لهن ذلك، فى الصمتِ حين يجبُ أن يتحدثون، وفى الغضب أيضًا لأتفه الأسباب بالنسبة لهن.

أذكر أنه قد حدث منذ ست سنوات، أنى جمعت كلا من أبى وأمى بعد رجاء كبير لهما أن يتركا أشغالهما وجلسا فى حوش المنزل ليسمعانى، كان أبى جالسا مسندا ظهره إلى إحدى النخلتين، وجلست أمى على دلو الماء المصنوع من الصفيح، وذلك بعد أن أفرغت ما كان به من ماء فى برميل الماء الكبير، والذى أشرت إليه ذات مرة، حين سألتنى بسنت (ابنة الست سنوات فى ذلك الوقت) وهى تقرأ كتابا فى يدها..

"ما معنى بئر يا زين ؟.. أخبرنى وإلا سأصرخ وأقول لأبى أنك ضربتنى بشدة !"

كنت واقفا فى منتصف الحوش، تترامى على وجهى ظلال شجرة برتقال تحتضر فى سن صغيرة. بمجرد أن أخبرت والداى عن سبب جمعى لهم، سمعتُ

صخب التوأمين يهرولان داخل المنزل، وإذ بهما أمامى فجأة يتسابقان على من يجلس فى حجر والدى، وسبقتْ بسنت لأنها كانت الأقرب، وجلست فى حجره وهو يقهقه ويحاول أن ينأى بشعر لحيته عن وجهها الضاحك. فى حين فتحت أمى ذراعيها لفرج فذهب منكس الرأس وكأنه خسر رهان. كانت قصة قصيرة ألفتها، وقبل أن أتكلم رفع أبى إحدى يديه بطريقة أضحكتنى وأضحكت لؤى المشرئب لينظر جمعنا من نافذة غرفتى.. سألنى أبى كطالب يسأل أستاذه..

«هل هذه قصة مرعبة ككل قصصك أيها الكاتب الكبير ؟»

فأوقفتُ ضحكتى، وضيّقتُ عينىّ، وقلت..

«لا ليست مثل باقى القصص.. إنها الأشد رعبا »!

ثم بدأت فى سرد القصة..

«... ثم قضت الخادمة ليلتها كلها تبكى حتى الفجر، ولما أوشكت الشمس على الشروق، قررتْ أن تخبر سيدها بأنها حطّمت المرآة المستطيلة المعلقة فى غرفة الضيوف حين كانت تنظفها، وهى مرآة عزيزة جدا على قلب زوجته. وعندما استيقظ سيدها، وتناول إفطاره السريع، وجلس أمام التلفاز ليسمع النشرة الإخبارية الصباحية التى اعتاد سماعها قبل ذهابه لعمله، مثُلتْ الخادمة الشابة أمامه تخبره بما اقترفته، وتترجاه أن يحميه من زوجته التى قد تقتلها لفعلتها هذه.. فقام وصفعها على وجهها، وحاول أن يتماسك ولكنه أفلتها من بين أسنانه ونعتها ببنت السوداء، وهو يعلم أن لو نعتها ببنت

الزانية لرحمها، ثم توعدها بإخبار زوجته وبأنها ستحبسها فى الحمام لمدة أسبوع. وفى المساء، ولمّا عاد السيد من عمله لم يجد زوجته، كما لم يجد الخادمة حتى أنه بحث عنهما فى المطبخ..بل وجد صينية الطعام معدة له وقد تم طبخُ كل ما عليها بعناية ما عدا قطع اللحم لا زالت فى متبلاتها على الطاولة لم تلمسها النار، ولما سئم الانتظار، ورجّح أنهما قد ذهبا إلى السوق، طهى اللحم بنفسه ووضعه فى مكانه على صينية الطعام، وأكل دون انتظار زوجته.. وبعد ثلاثة أيام، انهار الزوج أمام مكتب الشرطة حين عثروا على الخادمة الهاربة، وعلم أن اللحم اللذيذ الذى طهاه بنفسه واستمتع بمضغه، هو قلب زوجته "

انتشر الصمت شيئًا فشيئًا، حتى وكأن الماشية ماتت فى أماكنها، ولم يتحرك شىء فى هذا المشهد بأكمله إلا عينىّ لؤى المذهولتين، تتنقلان بينى وبين الجميع، وببغاء يطير عاليا جدا ويكرر آخر ما قلتُه بصوتٍ سميك: (قلب زوجته.. قلب زوجته.. قلب زوجته)

انتظرتُ أقل من دقيقة ثم بدأتُ فى العد التنازلى للشجار الذى سيحدث بين أمى وأبى..

"شاطر يا زين.."

ثم تصفيق بيديه.. تابع:

"شاطر يا بنى، استمر فى مشوارك، وربنا يرزقك من حلاله "

فانفرط انفعال والدتى.. ردت عليه:

"حلاله؟.. أى حلال يا أبو زين ؟.. أحلالٌ ما يكتبه ؟ ألا يهمك غير حصول ابنك على المال حتى ولو على حساب الأرواح التى يزهقها فى قصصه ؟ "!

فتحركتُ نافشا صدرى، ومحاولا تغليظ صوتى، مقلدا لأبى، وتكلمتُ ناظرا لأمى وأنا أروح وأجىء..

"يا أم زين.. ابنك سيصير مشهورا، وسنحصل على الكثير من المال، وسأبنى لك بيتا جدرانه من الطوب الأحمر وسقفه من الخرسانة الممتلئة بأسياخ الحديد، كسقف المدرسة، وسأشترى لك وعاءً كبيرا تضعين فيه العجين بدلا من الطست الصغير"

فرمقنى أبى فانكمشت، وقال وهو يمرر يده على شعر بسنت فى حجره، وصدره منفوش لكنها طبيعته..

"اهدئى يا أم زين.. أخبرينى ماذا يضايقك فى كونه.. ربما.. يصير ناجحا، أتظنين أنه لو نجح فى هذا الأمر سأتركه وشأنه.. كلا.. بل حتى لو أصبح رئيسا للبلاد كما يدعى، سآخذ ابن الكلب هذا، وسيعمل معى فى الحقل كما كان يفعل أخيه من قبله.. لكن دعيه يعيش صباه "!

فانتقلت عينى لؤى إلى والدتى حين ارتفع صوتها..

"إذن لماذا لم يقتل ابنك الرجل فى النهاية؟ لماذا من ماتت هى زوجته ؟ كما

أنه طبخ قلبها وأكله.. "!

ففتح أبى ذراعيه كجناحى طائر وقال فى لهفة:

"يا سبحان الله، كأنكِ تقولين لو ترك ابنك المرأة وقتل زوجها، وجعلها هى من تأكل قلبه فى النهاية، لم أخبرته بأن قصته جميلة ولأمرته بأن يتوقف عن الكتابة. القصة جميلة سواء أكل الزوج قلب زوجته، أو أكلت الزوجة قلب زوجها "!!

أمسكت أمى رأسها وتلك عادتها عندما يؤلمها، أن تدعى أنه يؤلمها..

"أتقول هذا أمام الأطفال ؟ أتساعد ابنك فى أن يصير مجرما؟.. إنه يقتل النساء فى كل قصصه المرعبة، وأنت من شجعته على هذا منذ البداية، كان لا يجرؤ على النظر فى عينى، والآن، أنت تدرى كم شكوى أتتنا من المدرسة بسبب مضايقته للمدرسات "

أنزلت يدها من على رأسها..

"آه.. هى يا بنتى.. قومى يا بسنت، فأبوك وابنه لا يحبون النساء.. "

فقامت بسنت لتزيد الجو إثارة، فجذبها أبى وأجلسها فى حجره رغما عنها، وهى تضحك لغضبه..

"اجلسى مكانك " يا بنت الكلب " امممممم .. أيها الجنس الملعون.. أخبرينى.. ها.. صحيح، أخبرينى.. "!

ثم ضرب بسبابته فى الأرض ضربات متتابعات وبعصبية، وكأنه يشرح خريطة واضحة وسهلة لشخص لا يفهمها..

«أخبريني من الذى قتل الزوجة، أكان الرجل ؟ أكان زوجها ؟.. أم قتلتها خادمتها ؟.. كانت الخادمة. الخادمة التى تنتمى لصنفكن الخبيث.. كلكن متشابهات »

فنظرت بسنت له فوقها، فانحنى برأسه إليها.. وهمس لها:

«ما خلا أنتِ يا عزيزتى»!

ثم تابع بنفس بنبرته السابقة..

«كلكن متشابهات.. زوجة قاسية ترهب خادمتها، وخادمتها شقية تكسر لها مرآتها.. فتحاول القاسية عقابها، فتقتلها الشقية وتمزق قلبها. ما دخل الرجال بأفعالكن الخبيثة إذن؟.. وفى النهاية، من الذى انهار بمفرده؟.. إنه الزوج.. أتذكرين؟ لقد قال ابنك إن الزوج انهار أمام مكتب الشرطى لمّا علم الحقيقة.. أستحلفكِ بالله، لو كنت أنا الرجل الذى قتلته خادمته، وأنتِ التى أكلتِ قلبى دون علمك.. أستحلفكِ بالله، هل كنت ستنهارين حين تعرفين الحقيقة؟.. بالطبع لا، صنفكن لا يعرف معنى الانهيار، كل ما تعرفنه هو التمثيل. كنتِ ستضعين يدكِ على رأسكِ وتصرخين.. من أين سأطعم الأولاد من بعدك يا روحى.. أما أنا فكنتُ سأنهار، أتدرين ما الانهيار. أخبرها يا زين »

وما كدتُ أتكلم حتى تكلم فرج بكلمات متقطعة بطيئة وهو ملتحفٌ بحضن أمه..

«تقول المعلمة، انهارت القطة لما مات صغيرها، أى فقدت القطة توازنها »!

فصرخ أبى ضاحكا:

«هع هع هع هههخه.. صح، ما يعرفها إلا رجالها يا فرج يا بنى، أنت منى وأنا منك.. يا ابن الكلب.. »!

لم يبدو على أمى أنها تُلقى عرضا تمثيليا.. قالت:

«كلكم فى صفه الآن. هو دوما من كان يحفزكم على أن تكرهوا أمكم.. أخبر أولادك يا أبو زين، لماذا خافت الخادمة عندما حطمت المرآة لسيدتها؟ سأجيب بدلا عنك، خافت لأنها حطمت شيئًا عزيزا جدا على قلب سيدتها. وأخبرهم أيضًا، لماذا قتلتها الخادمة؟ قتلتها لتنتقم من زوجها حين نادها بما يهينها.. بنت السوداء.. إنه يعلم أنها تكره نعتها بذلك، وإن كانت هذه هى الحقيقة، فلماذا يلفظه؟ إن أولادك لن يفهموا شيئًا مما أقول، لكنك تعى أنه لو كان الرجال يعرفون معنى الانهيار حين ينهارون، فإن النساء يعلمون معنى كلمة القيمة، حين ينهانون فى شىء عزيزٍ بفقدانه أو احتقار قيمته »!

فابتسم لها أبى فى سذاجة فور انتهائها وكأنه كان ينتظر النهاية ليبتسم، فقامت على بغتة إخافتنا، وأخذت بسنت من حجر أبيها ودخلت إلى المنزل ولم تخرج طيلة النهار.

أحضر لؤى الورقة والقلم وقفز ثانية إلى جوارى.. كتب:

"كيف سنصير أغنياء كما تقول؟ تبدو سعيدا للغاية، هل قال الطبيب إنك ستقف على قدمك الوحيدة؟ لكن أبى أخبرنى أن أبوك قال له بأنك لن تستطيع المشى إلى أن تموت "!

فسحبتُ جسدى قليلا من تحت غطائى وأسندت ظهرى إلى الحائط خلفى..

"لا تذكرنى يا لؤى، هذا صحيح، قال الدكتور إنى لن أقدر على الوقوف.. لكن، ثمة طريقة يمكننا أن نجنى بها المال ونحن جالسان على هذا السرير، إنها الطريقة التى لطالما أخبرتك عنها، لكنها فى شكل جديد هذه المرة. قصة جديدة، فى أماكن جديدة.. انتظر.. ليست قصة مرعبة كما تظن، بل ملحمة رومانسية، بطلها شابٌ بُترت إحدى ساقيه، بالطبع لستُ أنا ذاك الشاب.. والبطلة فتاة جميلة كل الجمال، شعرها طويل وبنى، مقصوصة أطرافه من سقف كتفيها، ولحضورها هالة نجومية ذات تأثير، لا ترتدى عباءة كفتيات قريتنا، بل ترتدى بنطالًا أزرق كالرجال، حتى حذاؤها ليس كأحذية البنات عندنا، امممم.. ولا كأحذية الرجال أيضًا، أقصد الرجال الذين رأيتهم من قبل، بل هو حذاء غريب لونه ضارب فى الارتفاع، ملتهما ساقا بنطالها.. ربما قد أسميها هـــ.. أو لا أدرى.. ,, ربما أسميها هالة يا لؤى، وربما سأجعل مكان التقائها بالبطل فى عيادة طبيب ما.. لكن لم أتخيل النهاية بعد، هل سيجتمعان؟ أم هل ستنظر إليه فيتجنب نظرتها كى لا يشعر بشفقتها، ثم يخبره الطبيب أنه مريض للأبد، ويأخذه والداه أمام ذهول عينيها، وتنتهى القصة بانتهاء الفصل الأول فقط "

لاحظ لؤى أن الحزن يعترينى شيئًا فشيئًا، كما اعترتنى السعادة شيئًا فشيئًا حين كنت أحدثه أننا سنصير أغنياء. كنت من أعماق من اعلمُ أن هذه هى النهاية الحقيقية للقصة الحقيقية، أن كل منا ذهب إلى حاله.. كما كنت واثقا أننى أيضًا قادر وأنا جالس على سريريهذا وتحت سقفى المصنوع من جريد النخل وشبكة صيد السمك، أننى قادر على إضافة ٩٩ فصلا من خيالى إلى الفصل الحقيقى، لأصنع مسرحا كبيرا كاملا بكل تفاصيله وألوانه وأصواته، لقصة رومانسية من طراز الرفيع، لكن هذا لم يحدث، لم يتعب ذهنى ولم أرهق خيالى بعد أن طرقت أمى باب غرفتى ولم تصرخ كعادتها من المطبخ، وحالت بطرقها بينى وبين إفهام لؤى، كيف سنصير أغنياء.. فقام لؤى وفتح الباب، وكان فتحا لم يقفل إلا بموتها، بجوار أمى كانت واقفة.. أمى وهالة، عند الباب.

(١٣)

«احم... أنااا.. احم، أنا هالة »

صمتُّ..

«أتيت لأتمكن من الحديث إليك.. أعنى الحديث إليك فى أمر يخصك »

تكلمتُ:

«لا بأس، بالطبع يمكنكِ أن تحدثينى على انفراد، أقدر لكِ رغبتك فى الخروج يا أمى، وأنت كذلك يا لؤى، لكن أغلقوا الباب خلفكما »**!**

فنظر الثلاثة إلىّ، ثم خرجا وأخذا الباب خلفهما. كانت لازالت واقفة، مستقرة، هادئة، عند الباب المغلق، (لا أحد إلا هى وأنا)، لم أكن حينها أصبحتُ قادرا على أن أقول (إلا أنا وأنا).. قالت:

«أنا لم أرد أن أحدثك على انفراد»

«لكنى أريد..»

«نعم »**!!**

.. قلتُ:

"يعنى.. أريد أن.. أو أخاف من..... من كونك قد تحملين أخبارا سيئة فتسمعها أمى "

فنظرتْ هى إلى السقف فجأة وكأنها أدركت لتوها أعواد الحطب المتدلية كمصابيح الزينة الرفيعة الطويلة فى أعياد الميلاد، يخالطها القش الأصفر الذى اسودت أطرافه من روث الذباب، ثم انزلقت عينيها بعيدا قليلا إلى أحد أركان الغرفة، حيثما تقف قصبة طويلة وغليظة من الغاب، يستخدمها أبى فى قياس قراريط الأراضى الزراعية، همّتْ قدمها اليمنى أن تتحرك ناحيتى.. إلى سريرى.. ولكنها، أدركت فجأة هول ما قد ترتكبه فى حق استقلالية أنوثتها، كَرِهتْ أن تكون هى صاحبة المبادرة الأولى للتقدم ناحيتى، حتى وإن كنتُ عاجزا عن الحركة.

وكلوحة فى متحف انفردت بها ليلا، بعد أن غادر كل الزائرين، تأملتها.. هى كما هى، كما كانت من قبل عند الطبيب، غير جاكيت طويل بنى اللون قد ارتدته فوق قميصها ذا اللون السماوى الفاتح، وكذلك تأملتنى لحظة بعينين أكثر بياضا وبريقا من عينىّ.. أتانى سؤالًا أحمقًا من داخلى.. يا ترى إذا استطعت الوقوف بجوارها، فمن منا سيكون الأطول ؟! ثم أتانى السؤال الذى يجب أن يأتينى منذ البداية، ما سبب مجيئها؟

لم تكن أشعة الشمس قادرة على اللحاق بها عند الباب، فى حين كانت الشمس تعرى نصفى ونصف سريرى، وهذا ما وتّرنى للحظة، فالآن يمكنها أن ترى كل قسمات الحزن وتفاصيل اليأس على وجهى، كأن شيئًا (غير

جمالها) يجذبنى إليها، لأنى (فيما بعد) رأيتها جميلة فى فرحها وحزنها وغضبها وعصيانها، بل حتى جميلة حين أبكيتها.. فإما هى جميلة فى كل أحوالها، وإما أنه ذلك الشيء الآخر الذى لم أكن أدرى له تفسيرا بعد هو ما يجذبنى إليها. طال صمتها وتمادت نظراتى وانحرفت.. ثم أتى صوت من بعيد لإصبعٍ واحد يدق الباب، فعلمتُ أنه لؤى. دخل حاملا كرسيا لا ينتمى إلى دارنا، بل إلى دارهم، كرسى خشبى من كراسى الأفراح.. والمياتم!

وضعه عند طرف سريرى، ثم، وليس الذكاء من صفاته، حرّكه قريبا من منتصف السرير، قريبا منى.. ثم ابتسم دون أن ينظر لها! وخرج.. كفاها صراعها الداخلى، حول من منا يجب أن يتقدم.. جلست:

«باختصار، أود أن أخبرك أنه قد يمكنك الوقوف مرة أخرى على الموجودة، كلام الطبيب حول مفصل قدمك اليمنى، وأنه لما كُسر وتُرك لأنكم انشغلتم بالساق الأخرى التى بُترت.. هو كلام صحيح.. لكن الخطأ فى قوله إن هذا لا يمكن معالجته»

فسألتُ وكأنى منتبهةٌ لكلامها، وليس لمخرج كلامها..

«كيف ذلك؟»

«يقول الدكتور من خلال الأشعة التى أطلقها على قدمك، أن كسر العظام فيها التحم مع الوقت بطريقة خاطئة، لا يمكن معالجتها.. لكن، فى الحقيقة من الممكن معالجة ذلك، وهذا إذا كُسرت قدمك من جديد ثم تم جبرها على الطريقة الصحيحة»

«كيف وصلتِ إلى هنا؟»

خجلتْ وتنهدتْ وكأنى أحصرها فى منطقة أضيق من غرفتى..

«سألتُ السكرتيرة عند الطبيب عن عنوانك»

ثم وكأنها تذكرتْ شيئًا فابتسمت.. وازدادت ابتسامتها لما قلتُ:

«السكرتيرة العجوز؟»

ثم تابعتُ بعد الاستفاقة من أثر ابتسامتها..

«إذن شكرا على مجيئك، لكنى لا أريد الوقوف... »!

فذهب خجلها، واستردت جديتها:

«لماذا لا تريد الوقوف؟ ما هذا الذى تقول؟ »!

«وما شأنكِ ؟ »

سألتُها بعفوية، فى مزاح، فردت بغير مزاح..

«ما شأنى يا هذا ؟.. لقد استيقظتُ باكرا، وسافرتُ إليك.. و..»

ثم نظرت إلى غطائى الذى يستر عدم وجود إحدى ساقاى.. وتابعتْ:

«وسافرتُ إليك لأرحم ما بك من ألم »

فكان كل الألم فى جملتها الأخيرة. أشد أنواع الألم، لم أكرهها فى تلك اللحظة، كما لم أكرهها فى أى لحظة بعدها، لكن أشتد كُرهى لنفسى.. صرختُ فيها وقد نسيتُ جمالها:

«أتشفقين علىّ؟ أكان ذهولك فى العيادة وأنا أغادرها، شفقة؟.. أنتِ مثلهم أليس كذلك؟.. من قال لكِ إنى أتألم؟ وحتى لو كان ألمى واضحا للجميع، من نصحكِ أن ترحمى ما بى؟ »

ثم تابعتُ بصوتٍ منتحب..

«الكثير من الناس يرحموننى، الكثير من الناس يشفقون على.. لا حاجة للمزيد»

نظرتْ إلى الباب، ثم نظرت إلىّ فى توتر..

«لا، أنا لا أشفق.. أنا أحاول.. فقط أن»

«أن تكونى صالحة، ألا تكتفى بكونكِ جميلة، أن تضيعى الثقة فى نفس من هو مثلى..»

التفتت بوجهها ناحيتى، وأهملت ترقبها للباب، تناسيتُ أنى اعترفتُ بجمالها، استمر ذهولها، واستمرت معاناتى.. تابعتُ:

«أنا أكره كل شىء جميل، كل شىء كامل.. كل الطيور التى بجناحين وكل الناس ذوو الساقين، وأكثر ما أكرهه، الشفقة حين تأتى ممن لا يعانى، حين

يزداد الكمال جمالا بإظهار رحمته على أمثالى.. الآن، أصبحتِ تثيرين إعجابى أكثر، ها أنت ذا صالحة أكثر مما ينبغى، وها أنا ذا أحببتكِ أكثر مما ينبغى. لكن، لا عدل، الرب ليس بعادل.. الرب دوما ينحاز للأقوى، ينحاز دوما للأجمل والأكمل والأغنى، يعطيهم مع أن لديهم الكثير، ولا يحتاجون إلى المزيد، إلى ما يُزيد بريقهم»

ثم حضر فى بالى ما فاجأتها به، وأنا أرمقها على بغتة..

«وماذا بعد أن تستطيعى إصلاح قدمى كما تدعين، كيف ستأتين بساقى المفقودة؟ أو كيف ستعودين بالزمن إلى الوراء وتوقفى القطار، أو تعينينى على القفز دون السقوط.. أو تجعلى أمى ترفض أخذى معها، وتذهب بمفردها لتحضر النتيجة ؟»

«اهدأ أرجوك.. لا أفهم عن أى شىء تتحدث.. أنا لم آتِ لأغضبك »

«أنا هادئ بالمناسبة، أنا أهدى ما أكون.. لأنى حين أغضب أطرد الجميع وأختلى بنفسى..»

رمقتنى..

«الآن، أصبحتَ وقحا للحد الذى لا يمكننى تحمل وقاحتك»

«أنا ؟ »**!!**

«أتهددُ بطردى إذا ما غضبتَ؟**!** ولماذا تغضب؟ لأن أحدهم يعرض عليك

مساعدة أو نصيحة"

فسألتها، وأنا أشير إلى صدرى، سألتها كمن يلوم عِشرة دامت لقرون..

"أنا وقح؟ "!

فصمتت، وبدا أنها تتخذ قرارا..

"أتدرى، كان يمكننى أن أرفض خروجهم وأن أتحدث إليك أمام الجميع، كان يمكننى ألا أهتم وألا آتى، أنا فقط.."

دق قلبى.. أضافتْ:

"لم أتخيل أن يصل الأمر لهذا السوء، هناك حين رأيتكَ تنظرنى، كأول رجل ينظرنى.. أقسم أنى تمنيتك واقفا، ليس شفقة على حالك، بل حاجة إليك.. أليس الحب حاجة؟.. .. أعلمُ أنى ما أحببتك بقدر ما أحببتنى، أعلمُ أنك وقعتَ فى حبى، وما لا تعلمه أنك أيضًا سقطت فى قلبى، وتلك هى مرتى الأولى، أن أختار أنا من يجب أن أحبه "

أشارت إلى قلبها..

"رغم نقصانك، سقطتَ هاهنا، ولم يهمنى الأمر حين اكتشفتُ أنى أحببتك، بل لم أفكر حتى فى أن لديك ساقًا واحدة، لأنى لم أكن أهتم بسيقان من سأحبه فى أحلامى، ثم ها أنا أمامك، آتيةٌ إليك لأكتشف أنك أحببتنى رغما عنك، وأنك تحاول طردى من قلبك، كأنكَ كرهت حبك لى"

«أحببتكِ وكرهتُ نفسى، أتدرين كيف كنت أحاول أن أكسب المال من مجرد رؤيتكِ؟ كنتُ سأؤلف كتابا أصفُ فيه امرأة تُشبهكِ ورجل يشبهنى، تقابلا عند الطبيب.. ولم أعلم كيف ستكون النهاية ؟ لكن كنت موقنا أنى سأجعلها نهاية سعيدة، وهكذا – دوما » أداوى أمراض واقعى بأحلامى وخيالاتى.. مهلا، أحببتكِ لأنه يجبُ أن يحبكِ كل من يراكِ، بعيدا عن كونكِ جميلة فأنتِ عطوفة، وهذا سببٌ يجعلنى أحبكِ لا يوجد سبب لاستجلاب غضبى، لكن عطفكِ على كل الناس ما عدا أنا، هو ذلك العطف الذى أحبه.. وعطفكِ علىّ هو ما يغضبنى. أنا لا أكره الشفقة، بل يوجد من أشفق عليه، إننى أشفق على لؤى، فهو أخرس لو أدركتِ ذلك.. كما أنى أتخيلُ الأعمى فأشفق عليه، ولا أطيق أن يُشفق على نفسى إلا نفسى، والآن، أتيتِ أنتِ لتزيدينى كرها فى نفسى، أتيتِ لتخبرينى بحبكِ لى.. وماذا تحبين فىّ؟! وماذا تنتظرين من رجل رآكِ يوم رآكِ وقد انكسر من داخله فوق انكساره، وازداد فُتات قلبه، لكونه لا يقدر على أن يخطو إليك ليخبركِ.... ليخبركِ كم أنه معجبٌ بكِ»

دمعت عيناها، وتماسكتُ أنا..

«صدّقنى أنتَ من يفعل هذا بنا، أنتَ ضعيف لا تستطيع تجاوز ما بك، أحببتكَ هناك لأنك لا زلتَ تبتسم وتمزح رغم ما بك، بل شعرتُ بثقتكَ فى نفسكَ لمّا تجرأتَ ونظرتَ إلى كرجل يجلس على كرسى من ذهب ويضع ساقا على ساق، ولمّا تجرأت أكثر وسألتنى إن كنتُ مريضة أم لا.. هل أعطيكَ الجواب الآن؟ أنا لستُ مريضة، بل معتادة للذهاب إلى مثل هذه العيادات

والمستشفيات، وذلك لأنى أشعر بحياة قلبى هناك وقابلتُ من هم أشد منك كربا وأشفقت عليهم، لكن لم أذهب إلى بيت أحدهم وأتصنع حوارا معه، لأخبره أنى أحببته.. وها أنا ذا أفعل ذلك معك »

«دعينى لا أطفئ هالتكِ أكثر من ذلك، سألتكِ، ماذا تحبين فىّ ؟ »

مسحتْ دمعتها..

«يا ويلى، الحب يا زين، شىء بلا تفسير، إحساسُ يأتى بلا مقدّمات، أنتَ جميلٌ لو تعلم، رغم أن الجمال ليسمن متطلبات الحب، كما أن الغنى ليس من متطلباته، وكذا ليست الساقان من متطلباته، لكن التجاوز هو الطريق إليه، أن تتجاوز كل الفروق بينكَ وبين من تحب، أن تساعده وأن تحنو عليه،لا أن تشفق عليه كما تقول، أن تكون قادرا على أن تتخلى عن بعض الطموح للحصول على الأمان النفسى بجوار من تحب، هذا هو الحب، ليس أن تتقن دور الضحية، ولا أن تبحث عن الشىء الذى تكرهه حتى إذا وجدت منه أثرا طبيعيا لا يدَ لأحدٍ فى وجوده، أمسكتَ فى ذا الأثر، وصرختَ تبكى أنك لا تحبه، لا تحب الشفقة..»!

أضافت بعد أن تذكرت شيئًا..

«وأيضًا، الحب ألا تنجذب لشىء من أجل شكله، إن كان شكلى هو ما جذبك هناك، فلا تسمى ذلك حبا، يمكنك أن تسميه إعجابا، لأن الإعجاب شىء مؤقت، أو إحساسٌ عابر.. كأن أعجبُ بفستانٍ وأنا مارة بجوار فتاة ترتديه، ثم أرى فستانا آخر فى مكان آخر وترتديه فتاة أخرى، فينال هذا إعجابى لأنه

أجمل من نظيره، هذا ما يسمى الإعجاب، لذلك لا ينال إعجابنا إلا الأشياء القابلة للتغيير، التى يمكن أن نرى ما هو أجمل منها لأننا بالفعل رأينا ما هو أقل منها جمالا. أما الحب فإحساس ثابت فى الوجدان لا يتغير باكتمال أو نقصان.. لم أكن أتخيل أن أبكى فى أول لقاء يجمعنا بعد أن أحببتك، أتعلمُ شيئًا؟ دائما ما كنتُ أرسمُ صورة فى مخيلتى لفارس أحلامى.. كنتُ أتخيل ست عضلات بارزة تشد بطنه، وبالطبع كنتُ أتخيل ساقين وذراعين قويين، وأيضًا أحلم بمال فاحشٍ وجمالٍ فاتن، وكل ما يمكن أن تحلم به الأنثى فى الرجل.. وبالفعل حصلتُ على فرسان كُثر من هؤلاء فيما مضى، وهم من علمونى الحب بأن افتقدته معهم، وفى حين كانت كل صديقاتى تحسدننى وأحد فرسانى ممسك بيدى فى طلة مسائية فى احتفال ما، كنتُ أنا أحسد بنت الطباخ التى استطاعت أن توقع بسائق سيارة والدى فى غرامها، من نظرة واحدة لمّا رءاها فى المرة الأولى، لم أحسدها رغبة فى السائق، بل افتقادا لإحساس السعادة بينهما.. حماسهما، واضطرابهما، واطمئنانهما، وشغفهما ببعضهما.. كنتُ أفتقد هذا مع فُرسانى..»

توقفتْ، وكأنها تستجمع شيئًا فى ذاكرتها ولا زالت تنظرنى فى الوقت الذى كنتُ أفكر فى أن أنهض وأعطى أول قبلة فى حياتى. كما لا يجوز أن يجتمع الماء بالزيت، أو يجتمع بالنار، كذلك لا يجوز للشخصية الفذّة أن تجتمع بالجمال أو الخجل!.. إلا هى، اجتمع فيها الجمال بالشخصية، وخجلها بجديتها، ولولا أنى رأيتُ ذلك لمَ صدقته، إذ إنى- سابقا» لم يكن يمكننى أن أتخيل جميلا يسيطر، أو لديه قوة غير القوة الناعمة فى ابتسامته وملامحه،

لكن ليس فى نبرات صوته أو نظرات عينيه أو إشارات يده من شىء، بل قد تكون كل ملامح أفعاله بلهاء، ولا يشفع له إلا جماله، أما هى فقد كانت شيئًا آخر، وكان اكتشافى لذلك فيها هو إجابة الشىء الذى شغلنى بها منذ أن رأيتها فى عيادة الطبيب (ماذا بها " غير جمالها " يجذبنى إليها ؟!) ولقدُ تخيلتُ أنثى أخرى غيرها، جميلة بجد جمالها ثم حاولتُ فلم أقدر إلا أن أضيف لأنثى مخيلتى خجلا فى عينيها حين تبتسم، وتلعثما حين تعترف، وخوفا حين يحصرها أحد، ونبرة رقيقة حين تحن أو تطلب أو ترفض،.. وهذا خلاف ما فى (أنا)، فالجمال فى كل أحوالها كائن، للدرجة التى يمكننى أن أقول أنها جمالٌ يضحك، أو جمالٌ يغضب، أو جمالٌ يبكى، أو جمالٌ يغير.. وأقصد بذلك أنها جميلة حين تضحك وتغضب و.... إلخ، ففى اللحظة التى ضربنى فيها القدر بمطرقة على رأسى، وأخبرتنى أنها تبادلنى ما أبادلها من حب (لكن فى بعض صوره الأخرى)، أذهلنى أنها لم تخجل، أو لم تلمّح إليه بغيره، بل قالتها صريحة، أشارت إلى قلبها وقالت إنى سقطتُ فيه، وغير ذلك، عيناها، كانتا ثابتتان لا تطرفان، وبعد ذلك، بعد زواجنا وقبل موتها، كنتُ أعلمُ أنى أكثر من فى الأرض حظا حين تلمحْ صورتها فى المرآة وهى تمرُّ من أمام سريرى لتغلق نافذة أو تحضر شرابا أو تخلع ثوبا، فتتذكر وكأنها كانت قد نست، أنها جميلة لحدٍ لا يمكن تجاهله، فتلتفتُ إلى كأنها شخص ثالث فى الغرفة يفصلُ بينى وبين صورتها فى المرآة، ثم تُشيرُ إلى نفسها وتعرّفُنى بها، ثم تقفزُ إلى جوارى، وكذلك أثناء غيرتها، أو دلعها لأتقبل شيئًا أرفضه، أو تمثيلها الفاشل بأنها شخصية (لويزا كلارك) اللطيفة فى فيلم (أنا قبلك)، أو حين تكون لطيفة بصدق، أى بلا

تمثيل، فى تلك الأحيان كلها كنتُ أحتسبُ أنها أوقاتٌ لا يمكن نسيانها، أو التعامل معها كأنها أشياء اعتيادية سأملُّ منها فى النهاية.. قلتُ:

"لم يكن شكلكِ وحده هو ما جذبنى هناك، بل يوجد شىء آخر لا أعلم ما هو "

أسرعتْ..

"إذن، ما دمتَ لا تعرف لأى سبب أحببتنى، فلماذا تُجبرنى على أن أجد سببا لحبك؟"

رفع أبى صوت المذياع، فصدحت أصالة تغنى..

"يجرا أيه لو عاتبتك وعاتبتنى.. وسامحتنى وسمحت نفسك؟"

الحب كفيلٌ وحده بأن يغيّر نظرة العيون إلى الأشياء، حتى نظرتنا إلى الدين وكل ما لنا فيه اعتقاد، فالحب قادرٌ على التأثير فيها، وكم من أنثى كفرتْ بدينها ودخلتْ دين رجلٍ أحبته ؟ أو كره رجلٌ دين رجلٍ آخر يوم أن رآه يرتكب جرما أو حمقا لا يليق.. ولا أهيئ بذلك أو أبرر به كونى تصالحتُ بينى وبين نفسى مع إعاقتى وقدرى بعد أن أحبتنى وأحببتها، وأيضًا لا أنكر أنها كانت سببا كبيرا لمَ استحدث بداخلى من إيمان كان له أثره فى الماضى، ربما كان صاحبُ الفضل فى جذور إيمانى هو الشيخ مصطفى حين كنتُ أحضر له دروسه التى يتحدثُ فيها عن الله، أو ربما كان ذلك بسبب بعض أفراد جماعة الإخوان المسلمين الذين لا يشبهون قادتهم فى شىء، ولا

تتوقف ألسنتهم عن ذكر الله حتى فى الجولات المرهقة التى كانوا يطوفون بها القرية ليجمعوا تبرعات للصومال وغيرها من البلدان الأكثر فقرا منّا، وربما كانت الفطرة هى أصل إيمانى ورضاى عن ربى، تعجبتْ (أنا) مما اكتشفَتْه فىّ من إيمان، وراحت تتابع تفاصيل معاملتى لربى، وكيف أنى أكبح لجام غضبى وجحودى حين يقسو علىّ القدر ويشتدُّ فىّ الألم ؟ وقد ظنّتْ مرةً أنى أفعل ذلك لأجلها وهذا ما كان يضرمنى خوفا، أن يكون إيمانى نفاقا لها، إذ كان لا زال حديث الرسول، صلى الله عليه وسلم، يتردد فى مسامعى بصوت الشيخ مصطفى.. (إنما الأعمال بالنيّات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه)، وأيضًا مما استدعى تعجبها لمّا سألتنى عمن كان له السبب فى بناء جذور علاقتى بالله؟ إجابتى "بعض رجال الإخوان المسلمون"وكنتُ قد حكيتُ لها سابقا عن كُرهى لتلك الجماعة وتحسّرى على استغلالها لاسم الدين فى السياسة وأنهم لا يشبهون أتباع الدعوة السلفية أولئك الذين أيضًا يستمدون قوتهم فى السياسة من قوة الدين، وفسّرت ذلك، أننى لا أرفض تتدخل الدين فى السياسة، فهذا يشبه رفضى لتصرف الله فى شئون عباده، وأيضًا أرى كما يرى السلفيون أن الرسول هو أعظم سياسى فى الوجود، وإلا كيف بنى هذا الرجل الأُمى إمبراطورية الإسلام فى خمسة وعشرين سنة؟ وأيضًا لا يمكننا أن ننكر أن الإخوان كُثر وأنه لا توجد أسرة فى مصر إلا وأحد أتباعها ينتمى ولو ضمنيا إلى تلك الجماعة، لكن كُرهى، كل كُرهى، لقادتهم الذين لا يعملون بما يدّعون، ويقولون ما لا يفعلون، ويغيبون بعض أتباعهم

فكريا عن الواقع باستغلال عاطفة كذابة، وسيلتهم إليها صورة لجثةٍ داميةٍ فى الميدان أو صراخ لفتاة فى أحد السجون، وهذا كفيلٌ لأن يكون حافرا لمن كان له قلب، لكنه الاستغلال، حين يعلمُ القادة أنها قضية خاسرة، وأنه لا عودة للحكم فى ثوب الشرعية (الشرعية الحقيقية لهم، فيما مضى)، ومع ذلك يُصرون فى عنادهم وتشتيت أتباعهم، وصراخهم على شاشتهم "الله غالب، مرسى راجع "بجوار صور الاعتصامات فى الشوارع والميادين، وكأن قضيتهم هى قضية فرد واحد، ليست قضية دولة بأكملها، وليست قضية الدين كما يدعون، لأن الدين لا يقبل بهذا، ولا يرضى بأن تتوقف حياة مائة مليون مصرى من أجل شخص لأن السياسة غير الحب، ففى الحب شخصٌ واحدٌ يكفى أما السياسة فروحها فى الأعداد الكثيرة والمنشورات الأكثر فشخص واحدٌ لا يكفى، حتى وإن كان هذا الشخص مظلوما، حتى وإن كان ذا شرعية. وفى الوقت الذى يغرق فيه المغيبون بداخل عواطفهم الوهمية، يستمتع آخرون منهم بخبر مقتل مائة أخرى فى الميدان، فهذه مائة عائلة جديدة ستدافع عن قضيتهم وتأتى لتبيت فى الشوارع بجوارهم ثأرا لمن مات منهم، وهذا يعنى أيضًا صورا جديدة ملوثة بالدم الأحمر سيدهنون بها شاشات قنواتهم، وأسماء جديدة تظهر على شريط الأخبار لديهم، وحين رفض حزب النور أن ينادى بما ينادى به الإخوان.. أعنى أن ينادى بالشرعية، علمتُ أن هذا الحزب وإن كان فوضويا فى تنظيم فئاته وأعماله وأفراده، إلا أنه منظم لأبعد الحدود فى أفكاره، قال الشيخ مصطفى إنه لا يرفض أن ينادى بشرعية الرئيس مرسى ويصطف فى الشوارع هو وأتباعه بجوار شباب الإخوان لأنه يرى أن شرعيته باطلة، بل لأنه يرى أن هذه هى

السياسة الصحيحة لحماية نفسه وأتباعه من بطش أى سياسة أخرى، وقد كان، وكان اللوم فى النهاية من قادة الإخوان أن الشيخ مصطفى السلفى عميلٌ لدى دولته! وحينها لم يمانع أن يضع الشيخ مصطفى أن يضع يده فى يد من يمسك بمفتاح قيادة الدولة آنذاك، إذ قال:

«المهم أن تسير السفينة، لكن ليس من المهم إطلاقا أن أكون أنا القائد»

سألتنى (أنا)..

«لكنهم يقولون إن قائدهم قد غُصب حقه »

فأجبتُ:

«أخبرتك أنه لو عاد لترصد له الكثير، ولو استمر العناد لمَ يبقَ منهم إلا القليل».

(١٤)

بعد شهر ونصف (تقريبا)

لم تكن هالة قد رأت تلك الطقوس فى حياتها قط، ولم أرها أنا منذ أكثر من ثلاث سنوات قبل مجيئها، لأنه لم تلد جاموستنا منذ ثلاث سنوات.. لدينا جاموسة واحدة يمكنها أن تلد، أى أنها أنثى! لكن ليس لدينا من جاموس ذكر ليساعدها فى تنفيذ هذا القرار، الذى يتخذه أبى سنويا، أما العم مسعود فلأنثاه ذَكرُها، ويمكن أن نقول إنه ذكر جاموستنا أيضًا، لأننا نستعيره دوما ليبتدأ مهمة جاموستنا فى رحلتها لعمل أكبر معجزة تحدث فى أجساد الأحياء، ألا وهى معجزة الخلق، لكن فى السنوات الثلاثة الأخيرة، لم ينجح ذكر العم مسعود فى أن يكون طرفا فى هذه المعجزة، وبالتالى، لم تحدث، ولم تلد جاموستنا، ومع أنه كان ينجح مع جاموسة العم مسعود، فقد أنجبت ثلاث جاموسات يشبهنها إلى حد كبير فى السنوات الثلاث الفائتة، بمعدل جاموسة كل ٣١٥ يومًا، مما جعل أبى مضطرا إلى أن يذهب إلى صديق آخر له، يسكن فى منتصف القرية تماما، ويأتى ومعه جاموس ضخم، ما إن رأته جاموستنا حتى علمتْ أنه إما أن يكون هذا الجاموس سببا فى خلق روح جاموسة صغيرة فى رحمها، أو أنه سيكون سببا فى إزهاق روحها نفسها.. استسلمت له تماما، ونجح الأمر.

بالطبع لا تعلمون ماذا يعنى هذا بالنسبة لصاحب الجاموسة، بالنسبة لصاحب الجاموسة وزوجته، أمى، فهذا يعنى أن عملهما لمدة سنة كاملة لم يضع سدى، فقد كانا يجمعان كل ما يكسبانه طوال اليوم ليشتريا علف الجاموسة وولدها الذى فى بطنها، كانا يأخذان اللقمة من أفواهنا ليضعاها فى فم الجاموسة، وحينها يصيح التوأم وبالأخص فرج، فقد كانت أمنا تُعطى رغيفا كاملا لأبى، وتقسم رغيفا بين بسنت وفرج، فيعترض فرج فى كل عشاء ذلك الاعتراض الذى لا يصدر إلا من صغير جائع يشعر بأن أمه ظالمة تأخذ من حقه وتعطى لأبيه! فتجيب أمى بأن أبى كبير وجسده ضخم ويعمل طيلة النهار، ولهذا يحتاج إلى رغيف كامل، فيرد فرج محاولا أن يعلو بصوته على صوت ضحك بسنت الضاحكة دوما، بأنه كذلك يلعب طيلة النهار، وأنه يقضى حاجته أكثر من أبى، ولهذا فإنه يحتاج إلى أن يمتلئ كى يتمكن من أن يُفرغ. وبعد صراخ من الصغير، وتجاهل من الكبير، ثم صراخ منها (أمى) وضحكٌ من الصغيرة، يفلتُ لسان فرح ويقولها..

"لن آكل شيئًا يا بائعة روث الجاموس "

وعندها تبكى بسنت لأجل أخيها الذى سينام بلا عشاء، ولأجل أمها بائعة روث الجاموس، ولا يكون من ضاحك إلا أبى.

لا توجد إلا ثلاث عائلات فى قريتنا تمتلك ما يسمى بالبوتاجاز، أحد تلك العائلات هى عائلة صديق أبى الذى يسكن فى مركز القرية، فلديه بوتاجاز يُخرج النار من أربعة دوائر نحاسية، كما أن لديه الكثير من البقر والجاموس والأغنام وجملٌ واحد.. ولذلك فعادة أهل القرية أن يصنعوا نارهم بما لديهم،

فيستخدموا القش والخشب وفروع الأشجار بعد تكسيرها ويضعونها فى فرن مبنى من الطين وفقط، وبواسطة النار المنبعثة من أسفل هذا الفرن يتمكنون من طبخ الأشياء التى لا تحتاج إلى نارٍ شديدة ومستمرة، وبالتالى لا يمكنهم طبخ الأرز مثلا فى هذا الفرن، لكن شوى السمك والبطاطا وتحميص الخبز، أما اللحم ففطائر روث البهائم هى وقود نار طبخه لمن لا بوتاجاز له، وامرأتين فقط فى القرية، أمى إحداهنّ، يصنعن وقود هذه النار.. إذ يُفتح باب بيتنا قبيل شروق الشمس من كل يوم وتخرج أمى، تجرّ خلفها عربة أبى الخشبية، لتبدأ عملها من أقصى طرف المدنية، هناك من عند أول زريبة بجوار مجلس القرية، تنحنى أمى تحت كل بهيمة وتجمع الفضلات التى لم تكن قد جفّت بعد. وهكذا بقرة تلو والأخرى، وزريبة بعد التى تسبقها حتى تصل أمى إلى حوش منزلنا، وعربة أبى ممتلئة بروث البهائم السائل بعضه، والذى يرسم لعربتها أثر طوال الطريق من خلال فتحة دائرية فى طرف العربة، يدل على أنها قد مرّت من هنا، ودخلت إلى هذه الزريبة، وتلك.

تَقْلبْ أمى العربة لتفرغ ما تبقى من روث فى منتصف الحوش، ثم تهرع إلى برميل الماء، وتنضح الماء بزورق صغير على العربة الخشبية حتى تصبح نظيفة!.. أو حتى تصبح كما كانت، وعندها أسمع صوت خطوات أبى، ثم يُفتح باب بيتنا ثانية، ليأخذ أبى العربة، يجرها خلفه، ويذهب إلى الغيط. وما أن ينصرف أبى حتى تعود أمى إلى عملها، تنحنى تحت جاموستنا، وتجمع روثها، تزيحه إلى أن تلصقه بأسفل كومة روث باقى البهائم.. ثم تتحرك إلى

شباك نافذتى المغلقة دوما فى تلك الساعة، وتأخذ الحصيرة المعلّقة به من الخارج، ثم أتخيلها تجلس على نصفها، وتغطى ساقيها بباقيها، ثم تبدأ فى صناعة فطائر الروث.. تكورها بيدها، وتضعها فى قالب خشبى، ثم تُفرغ القالب على الأرض، وهكذا، فطيرة بجوار فطيرة حتى تملأ محيط الحوش، ولا يأتى المساء إلا وقد تغير لون الفطائر من الأخضر المائل إلى الصفرة إلى بنيٍ فيه شىء بسيط من الحمرة، وقد جفّت وأمست صلبة يمكن رصّها فوق بعضها إلى أن يتم بيعها فى ظهيرة اليوم التالى.. فى قريتنا، هذا يُعتبر أسوأ عمل لا يمكنك ذكره أمام أصدقائك إذا سألك المعلم، ماذا تعمل والدتك؟

لكن لا أخفيكم سرا، ليس أفضل عندى من اللحم المطهى فوق روث البهائم، بل أنا واثق مما أخبركم به، إننا لا نأكل اللحم إلا مرة كل ثلاثة شهور، ولكل مرة ذكرياتها وتفاصيلها كأنه حفل عُرس إحدى بنات العائلة.. إلا أن ثمة شىء مشترك، شىء غير اللهفة فى كل مرة، والشبع بعد كل مرة، والمتعة فى كل مرة.. ألا وهو الطعم والرائحة، إننى أصبحت لا أعرف اللحم إلا إذا كانت تفوح منه هذه الرائحة. وما جعلنى أصرّح بأنه لا أفضل من اللحم المطبوخ على فطائر أمى، أنه قد تمت دعوة أبى وأسرته إلى حضور حفل زفاف ابنة صديقه المستحوذ على مركز القرية، وقد انتشر فى القرية أن هذا الرجل قد ذبح عجلا كاملا لأجل هذه المناسبة، بالطبع لا يمكننى تخيل ذلك، لكن هذا ما حدث بالفعل، فقد كان لؤى موجودا أثناء الذبح. المهم، ذهب أبى وذهبنا معه، وهناك تم توزيع الطعام فى أطباق بلاستيكية لها نفس الشكل واللون لدرجة مستفزة جدا، ثم وزعوا الملاعق

علينا، ولم يكن غريبا، أن أُستَفز من جديد، وحين أنهوا التوزيع، واطمئن فرج إلى أنه قد حصل على قطعة اللحم الأكبر، بدأنا الأكل، وكانت الدهشة أن الطعام غير الطعام، ليس كاللحم الذى تطبخه لنا أمنا، لم تكن به رائحة الغيط، ولا نكهة الطبيعة، ولا لون التربة، بالطبع عرفت السبب، فقد طُبخ اللحم على نار البوتاجاز، وليس على فطائر أمى، وكانت الصدمة الثانية أن أبى قال موجها قوله إلى فرج الصغير..

«لن نشترى اللحم بنهاية هذا الشهر، أعلمُ أنه قد فات شهران ونصف منذ آخر مرة، وأنكم تنتظرون أن أشتريه، لكن حمدا لله، لقد أكلنا بالمجان اليوم..»!

ثم نظر إلى أمى بجوار فرج وقال:

«افتخرى يا أم زين أمام أولادك وبنتك، فوالدهم لديه معارفه وأصدقاؤه الأغنياء، ما كنتم ستأكلون اللحم المطبوخ على نار البوتاجاز لولا أنى والدكم الذى أنجبكم يا صغار»

وعدتها فى هذه الليلة أن ترى شيئًا لم تره من قبل، ورأيته أنا كثيرا فيما قبل، أخبرتها أن أسرتنا سترزق بمولود جديد وأن عليها أن ترى ذلك. لستُ مغفلا لهذا الحد كى تكون أدعو فتاة بمثل هذا الجمال، ومعها هذا القدر من المال، أن تأتى لبيت مبنى من الخشب والجريد والطين، لتشاهد ميلاد جاموسة صغيرة، لكنها هى من ساعدتنى على اتخاذ مثل هذا القرار، فلسبعة زارتنى فيها على مدى شهر ونصف، لم تبدِ حبيبتى أية اشمئزاز من

أى شىء، وقد مشت حافية على أرضيتنا، بشكل مبالغ فيه، ومن المؤكد أنها رأت عندما أتت للمرة الأولى، فرن الطين الذى نشوى فيه السمك بجوار باب البيت، وأيضًا رأت فطائر أمى.. ورغم ذلك لم تقرر العودة، واستمرت متجاوزة باب منزلنا ونخلتيه إلى أن وصلت إلى غرفتى وأخبرتنى بأنها تحبنى.

حملنى والدى والعم مسعود، وبالخارج كان أبى وأمى، بسنت وفرج، صديقى لؤى، وبالطبع ملكة جمال أفريقيا للمراهقات.. لم نكن أصبحنا حبيبين وقريبين (أمام أسرتى أعنى) للدرجة التى تجعلها تقف خلف كرسي، وتضع يدها على كتفى، أو أن تجلس على مسند ذراعى وتحمل هى ذراعى، لكن حبيبتى بما يكفى لأن تقف بجوار أختى بسنت، وتمسك بيدها، وتنظر إلىّ وتبتسم دون أن يثير ذلك أى شىء فى نفس أى أحد.. إلا لؤى.

كانت التاسعة والنصف مساءً، ويوجد مصباحان زيتان معلقان على فرعٍ واحد لشجرةٍ فى الحوش، أنهى أبى نضح الماء على الأرض بعد أن كنسها جيدا.. ثم بدأت أمى فى فرش القش على الأرض، حتى لمع ذلك المنظر أخيرا الذى من المؤكد أنه أعجب هالة، كنت أراه دوما بعين أخرى لكن قبل أن تحدثنى حبيبتى عن طبيعية قريتى وجمالها، كانت الأرض صفراء بسبب القش، كان أصفرا من إثر أشعة الضوء المنبعثة من نار الزيت.. وكان ثمة صوت الذباب والناموس يطوف حول كل مصباح كأنه الإله الذى طال بحثهم عنه إلى أن اهتدوا إليه، وككل مرة ستأتى فيما بعد، أحببت كل شىء بتفاصيله لأنها بدت أنها تحبه. سحب أبى الجاموسة وهو يكرر عاليا..

«الله أكبر»

بينما تهمس بها أمى وكذلك العم مسعود، سحبها، حتى أوقفها فى المنطقة الصفراء، كانت تتألم لكن دون أن تصرخ كما نفعل نحن حين نشعر بالألم، أتذكر أن العم مسعود جمعنى أنا ولؤى مرة حين كنا نقذف حمارة ضالة بالحجارة، وقال لنا ما أحزننا وقتها، قال إن الحيوانات تبكى لكن بلا دموع، وأتذكر أيضًا أننا نسينا حزننا فى اليوم التالى، لمّا وجدناها ثانية وبدأنا فى قذفها من جديد.

تحدثت هالة وهى تبادل نظرتها بينى وبين أبى..

«يعنى،.. ماذا بعد؟»!

فوضع فرج وبسنت أيديهما على أفواههما، وأخذا يضحكان بمكر، وقال أبى..

«لا شىء، سننتظر إلى أن تلد»

وأكمل العم مسعود..

«لا تقلقى، إنها فى ساعاتها الأخيرة»

فرفعت حبيبتى حاجباها، فعلمتُ أن كلمة (ساعاتها) تبدو طويلة جدا بالنسبة لها، ليست نفس المدة بالنسبة لقعيد على كرسى منذ أربع سنين.

وليزيل غبار الملل الذى طفق ينتشر فى الفراغ بيننا، تكلم والدى، أمسك لحيته ونظر للأرض، فعلمتُ أننا جميعا سنضحك فى لحظة واحدة..

«أنتِ ابنة مليونير.. امممممم، هذا رقم كبير، حتى أننى لم أحلم به يوما، هل رأيتِ أبوك وهو يرصُّ هذا المال كله فوق بعضه من قبل ؟.. أظن أن مليون جنيه تصنع كومة مثل هذا.. أو أكبر، مثل هذا «!

لا يتكلم أحد، الجميع يبتسم فقط، حتى أنا لمّا رأيتها تبتسم، كان لا زال يرفع كلتا يديه فى الهواء ليمثل لها كومة المال التى يمتلكها أبوها.. أنزل يديه حين وجد أن لا أحد يتكلم، قال:

«لا عليكِ، من الطبيعى أنه لا يعد أمواله أمامك، فالأموال ستأتيك فى النهاية، يمكنكِ عدّها حينها... امممم.. أنا أشترى لأولادى فطائر « حواوشى » الواحدة بثلاثة جنيهات، بالطبع يشترى لكِ والدكِ» حواوشى » من ذاك الذى باثنتى عشرة، وبالطبع أيضًا يركب والدك بجوار السائق فى سيارات النقل، لأنه يستطيع دفع ثمن كرسيين.. أليس كذلك؟ «!!

لم تتمكن هالة من إمساكها أفلتت ضحكتها بكل قوتها، وتسلّقتُ أنا بعينى على وجهها، حتى تأملتُ عينيها المغمضتان وهى تضحك، لم يوقف ضحك الجميع، إلا ما فعلته أختى بسنت.. تحررت بسنت من يد هالة بسهولة وجرتْ نحوى ثم قبّلتنى فجأة، لم تكتمل ضحكتى لكنى نظرتُ إليها، صدمتنى فكرة أنها فعلتْ ذلك لأجل أنها رأتنى أخيرا أضحك، أو.. لأنها غارت من هالة، إذ إنها من تمكنتْ من إتمام صفقة الصلح بينى وبين الحياة، نظرتُ إلى بسنت، فوجدتها بريئة أكثر، جميلة جدا وتنبض بالحياة.. لم أكن ذلك الأخ الأكبر الذى يحنو عليها يوما، بل كنت ذلك الذى يحقق الجميع رغباته، بل حتى الصغير يتجنبه خوفا من صراخه، خفتُ أن تموت

الحياة فى وجهها، أو تندم على أنها فعلت ما فعلت أمام الجميع، وذلك لمّا رأيتُ الخوف يتسرب إلى عينيها، حضنتها، وحملتها على ساقى الوحيدة، لم أضحك لها منذ أن كنت أحكى لها قصصى قبل الحادثة، ويبقى الفضل لحبيبتى هالة. بسنت مرحة بطبعها، تضحك دوما، إلا حينما أنظر إليها وأنا على الكرسى أو السرير، فتسحب طرف ثوب سعادتها الطويل وتمضى بعيدا عنى وتتركنى فى عزلتى. نظرتُ لهالة، ها هى تبدأ فى تكوين ذكريات لها معى وأسرتى، وفى منزلنا الذى ينتمى إلى ذلك العصر الطينى، إن كان ثمة ما يسمى ذلك.

اقتربتُ إلى أذن أختى، وهمستُ لها بشىء أنعشها، وجعلها تنظر إلى فرج نظرة من كسب التحدى الذى لطالما خسره.. ثم صاح أبى:

"اللعنة عليك يا زين، تخطف أنظار البنات، فى حين أن الجاموسة بدأت إخراج وليدها"

"واااااو"

طويلة هكذا خرجت من فم هالة.. كان شيئًا لا تدرى هالة ماذا يكون؟ قد بدأ فى الخروج من رحم الجاموسة، كنتُ أعلم أنه الرأس، فهذا أول ما يخرج دائما، إلا أن يكون من اختلاف هذه المرة.. خرج الرأس بأكمله مع أحد ساقيها أو ساقيه الأماميين، لم يتدخل أبى أو العم مسعود فى مساعدة الجاموسة فى إخراجه، هكذا علّمانا دوما..

"ستفعلُ هى كل شىء، إنها الأم"

بدأت الجاموسة فى الانحناء من الخلف، كأنها تخاف على وليدها أن يسقط من مسافة عالية، لكنها هى من سقطت، سقطت الأم على جانبها الأيمن مع شهقة فى صدر أمى، وإحدى يديها على رأسها !.. كان كل تركيزى على هالة، بينما الرأس الصغيرة تستحوذ على كل اهتمامها. خرج الرضيع بكامله، كان مبللا لكنه كان جميلا فى عينيها، تأملنا الصغيرُ جميعا، فنحن أول من رأته عينه. مكثت أمه لحظاتٍ تستجمع قواها كى تنهض من جديد، قامت بالفعل ولعقت طفلها حتى نظّفته.. ثم حدث أن قام الرضيع يمشى..

"واااااااااااو "

هكذا ثانية قالتها، لكنها أخذت وقت أطول، وفمها المفتوح قد أضاءته فتيلة المصباح حين ترامت النار ناحيتها.. صعقها أبى..

"صبية"!!

صمتت مرتعبة.. حاولتْ أن تبرر ذهولها لمّا رأتنا ننظرها جميعا..

"أنا فقط.. الصغير مشى.. أو الصغيرة، لا أدرى هه، احم.. أتعلمون؟ شىء عجيب،.. يعنى، لماذا لستم منبهرين مثلى.. لم أقصد يا عمى، أو أقصد أننا لا نمشى بعد ثوانٍ من ولادتنا، ألا يستدعى هذا تعجبكم.. ظننتُ أنها تقضى شهورا حتى تحـــــــ.. تَحْبِى مثلنا "!

فربتت أمى على كتفها..

"تحبى.. يا عينى عليكِ يا ضنايا"

وبالطبع كانت تتمنى الموت فى هذه اللحظة لولا ضحكات بسنت العالية الناعمة.. قالت وهى تحاول منع ضحكتها..

"كيف ستحبى على أربع قوائم، هاااا ؟.. أتمنى أن أصير مثلك لما أكبر، أمتلك خيالا واسعا هههههههه "

ابتسمت لها هالة ثم انتقلت بعينيها إلى العم مسعود الذى قال:

"لا تقلقى يا جميلة، فخيالك به بعض الحقائق، إنها سترضعُ مثلك حين كنتِ صغيرة.. بالطبع هذا لن يبهرك"

فرد عليه أبى لينهى احتفالية المولود الجديد..

"اربط كلبك يا مسعود"

(١٥)

اعتذرت لها عما حدث، وعن كونها بدت عبيطة بيننا، تناولنا عشاءنا، وجلسنا فى غرفتى.. وبعد نصف ساعة:

«بما أنك تجيد تأليف القصص القصيرة كما يقولون، فلماذا لست أغنى شاب فى هذه القرية؟ »!

رفعتُ أحد حاجباى، فعلمتْ أننى سأسخر منها.. فقبضتْ ساعدها استعدادا للضربة الثالثة فى نفس الموضع فى كتفى..

«لأننى أنانى »

صرختُ صرخة مختلطة بضحكى المتقطع من فجأة ضربتها الثالثة التى أصابتنى بها ونحن لا زلنا لم نتكلم إلا القليل، لا زلنا فى مبتدأ الليل.. دخلت أمى مسرعة، ثم دخلت فجأة تتأملنى بعد أن استقر الضجيج فى فمى على ضحك دون صراخ..

«ماذا بك يا مجنون؟ أتصرخُ أم تضحك ؟.. معذرة يا بنتى أرجو ألا تصيبك عدوى جنونه »

«حسنا يا أمى لن يصيبها شىء، اخرجى واغلقى الباب خلفك الآن، هيا

الآن.. لماذا تنظرين إلى هكذا؟ أنا متعصبُ جدا الآن بسبب الدواء "!

خرجت أمى، وهالة لازالت تتحسس أصابعها التى بدأ الاحمرار يغزوها شيئًا فشيئًا من قوة ضربتها..

"كاذب.. أى دواء يعصبك؟.. مهلا،.. ماذا تريد؟"!!

سكتت قليلا محاولة إظهار لامبالاتها لكنها لم تستطع..

"يووووه.. ماذا تريد ؟ لماذا تنظر إلى هكذا؟ "!!

فابتسمتُ أنا، حتى ضحكتْ..

"لا أدرى كيف لم أخبركِ أنكِ منذ الأمس جميلة؟ "

"أخبرتنى كثيرا دون أن تدرى"

"متى ذاك؟ "

"آخرها كان الآن، وأنت تتأملنى "

ثم قامت من على الكرسى الخشبى الذى ظل فى مكانه منذ وضعه لؤى قبل أسبوع. قالت بعد أن وصلت إلى عود الغاب الخاص بأبى، تحاول قياس طولها..

"ثم إننى لا أحتاج إلى من يخبرنى بجمالى.. أنا جميلة، الكثير أخبرنى بذلك فعلا "

ضحكتُ وأنا أحاول الاتكاء على جنبى الأيمن لأنظرها..

«لا يمكنكِ أن تكونى مغرورة يا حبيبتى، إنك لا تجيدين هذا الدور، انظرى لنفسك.. جميلة، طويلة، بلهاء»

لم ينقذنى من ضربتها الرابعة إلا لمّا فاجأتها وأفلتها من بين شفتىّ دون إدراكى.. قلتُ:

«اجلسى بجوارى يا هالة»

لم تكن قد فعلتها من قبل. وكعادتها كانت «أيضًا» جميلة حين ادّعت أنها لا تريد شيئًا، تشتاق من أعماقها إليه، بدت هناك فى زاوية الغرفة بعد أن أسندت العود فى مكانه كأجمل ما رأيتها، كان الليل قد اكتمل دخوله، ورمت شمعة الزيت ضوء نارها بحياء على وجهها اللامع دوما فى ظلمة ما حوله. كل تفاصيل وجهها كانت واضحة للحد الذى يرهقنى، الوجه الأبيض، الشفتان المنفرجتان ذهولا مما سمعا، تظهر من خلالهما قمم أسنانها السفلية مرصوصة ذات بريق بحرى هادئ مبتل! وبالأعلى قليلا، فوق شفتها العليا، وقريبا من يسار أنفها، تسترخى حسنة جمالها السوداء، كزهرة وحيدة أو فرسٍ أسودٍ نائم فى أرض بيضاء.. قالت بصوت خافت كطفلة تتصنع الإباء..

«لا أريد ذلك»

ثم لاحظتْ كما أنا أن هذا لا يكفى لإظهار إبائها.. ارتفع صوتها:

«هاااا.. كيف تجرؤ على طلب ذلك؟»

«كيف أجرؤ على طلب ماذا؟.. أقول إنه يمكنكِ أن تختبرينى بنفسكِ فى تأليف القصة.. امممم.. تختبرينى وأنتِ بجوارى جالسة على السرير بجوارى، كى لا يصيبك.. البرد»

ابتسمتْ بخجلٍ وهى تتقدم، ولمّا كانت أمامى مباشرة، ولازلتُ متكئا على يمينى.. قالت بجدية:

«سأفعل، لكن أرجو أن تفعل شيئًا لأجلى»

«ماذا؟ »

«أن ترفع عنك الغطاء »!

ففقدتُ التحكم فى تعبيرات وجهى، واعترانى الحزن المختلط بغضب، كنت لا زلت غير قادر على تقبل رؤيتها لى معاقا، قلت دون النظر إليها..

«لا، لن أرفع الغطاء »

«اهدأ، حسنٌ جدا، لا بأس، لا تغضب.. انظر إلىّ »

نظرتُ إليها، وأنا أحاول النهوض من اتكائى والاعتدال.. قالت:

«امممم.. هيا اطلب منى ثانية،.. لماذا تنظر ببلاهة هكذا؟ أنا لا أطلب منك النظر إلىّ لتجبرنى على الابتسام،.. يا ويلى، اطلب منى ثانية يا عديم الرومانسية »

فقلت: لأسكتَ خجلها المتوتر..

«اجلسى بجوارى يا سيدة الكون، ارجوكِ»

ثم حملتُ جسدى على يدىّ، وتحركت قليلا إلى اليسار حتى أفسحتُ لها نصف سريرى.. ودون أن ترفع الغطاء، جلستْ وأدخلت ساقيها تحته، أحسستُ بمجرد أن جلست ببرودة قدمها اليسرى تلامس قدمى اليمنى، قدمى التى لم تشعر بالبرد مذ كنت فى الخامسة عشرة من عمرى...

التفت هى أخيرا إلى..

«إذن، أرنى ما لديك.. أريد أن أشعر بالرعب من فضلك »

«هل تصرين على قصص رعب، فى هذا الوقت من الليل»

قالت.. وخيالها يشط منها بعيدا فى حين تجره هى إلى عقلها..

«لا، لستُ مصرة على شىء، لكن عن أى شىء سنتحدث إن كنا لن نتحدث عن قصصك المرعبة؟»

فأجبتُ بسرعة:

«لا أقصد أى شىء على الإطلاق.. إنا فقط،.. أو أقصد أن الليل هنا قد يخيفك حين تستمعين إلى قصصى »

فقالت:

«لا بأس، احكِ»

«حسنا، مثلا... عن أى شىء أحكى، أريد أن أصنع لكِ شيئًا جديدا.. احكِ لى موقفا بسيطا حدث معك اليوم، وأنا سأحوله لك إلى أفزع شىء قد تتخيلينه فى حياتك».

ثم توقفتْ عن الكلام فجأة، لمّا شعرت بنفَسها الثلجى يخالط نفسى، ولم أكن متأكدا بأنى سأقدر على الإبداع فى هذا الوقت، أعنى الإبداع فى تأليف شىء مرعب، وأعنى وقت أن كانت هى جالسة بجوارى، وأقرب إلىّ منى..

«إذن إليكَ آخر موقف غريب حدث معى اليوم، بعد أن ركبتُ الحافلة فى طريقى إليك. ركبتْ بجوارى فتاة قريبة من عمرنا، وتحمل حقيبة سفر كبيرة، وبعد أن اكتملت الحافلة ولم تمضِ إلا عشر دقائق منذ انطلاقنا، إذ بها تنادى على السائق صائحة، تريده أن يقف، لأنها بحاجة إلى أن تقضى حاجتها»

فسألت:

«وما معنى أن تقضى حاجتها؟»

«يعنى أن تذهب إلى الحمام، أن تفعل كما تفعل كل الفتيات. لا أدرى كيف تكون كاتبا، ولا تعرفُ معنى أن تقضى المرأة حاجتها؟.. المهم.. تشاجر السائق معها واتفقا على أن ينزلها فى أولى المحطات التى سنصل إليها، بشرط ألا تكمل رحلتها معنا، وسيعيد هو إليها ثمن تذكرتها من جيبه.. امممم،

حسنا، أظن أننى انتهيت، ها هو الموقف، فلتجعلنى أشعر بالرعب إذن.. "

"تمام، تخيلى معى الآن.. أرجو فقط ألا تنظرى إلىّ لأنى لا أستطيع إلا التركيز فى عينيكِ وشفتيكِ.. آآه، إنها الضربة الرابعة يا ظالمة، لن أمزح معك ثانية، ها هى القصة.. "

شحذتُ حلقى.. ثم بدأتُ:

"كانت العاشرة والنصف مساءً.. إحدى ليالى الشتاء، تساءلتْ المسكينة وهى تنظر إلى الناس حولها فى حيرة، هل تذهب إلى ذلك الحمّام العام، عند تلك الاستراحة، وترجع مرتاحة بسلام؟ أم هل ستمسى قصة جديدة تحكيها الأمهات لبناتهن الجامعيات، لتحذرهنّ من خاطفى الفتيات ليلا ؟!..

(أصبح الأمر لا يطاق، أريد أن أقضى حاجتى، يجب أن أدخل الحمّام)

ثم نظرت إلى ساعتها، وقالت تحدث نفسها مشفقة عليها..

(بقيت ساعة حتى أصل إلى سكنى الجامعى... أووووه، يا إلهى ساعدنى، أنا التى امتنعتْ عن دخول أى حمام طوال سفرى منذ الفجر، وها قد أتى الليل ولا زلتُ أعانى.. أتمنى أن تكون عصابات الخطف هذه مجرد إشاعة)

تماسكتْ وجلستْ على أحد المقاعد الخرسانية، والتى لم تكن مناسبة لحالتها هذه، فى إحدى استراحات محطات النقل العام. قررت أن تنتظر حتى تخرج أو تدخل أى امرأة من هذه الحمامات الحكومية المخصصة للنساء،..
ولم تمر إلا دقائق حتى اطمئن قلبها تدريجيا، إذا دخلت أم وابنتها، ثم

خرجت عجوز.. ابتسمت بشدة، وقالت: (إشاعة) !

ثم قفزت مهرولة إلى الحمامات، تجتاز الطريق بمرونة مفاجئة فى ساقيها، ثم استدارت فجأة، ونادت على سيدة كانت تجلس إلى جوارها، وأخبرتها أنها لن تتأخر، إن كانت لا تمانع فى أن تحفظ لها حقيبة سفرها إلى جورها حتى تعود.

اجتازت مدخل الحمامات وهى تضع يدها على حزام بنطالها، بشكل قد يلفت الأعين إن كان ثمة أحد يراها. أدركت حماقة هرولتها المسرعة، ويدها فوق مكمن مشكلتها، إلا أنها لم تغير من حالتها، حين لاحظت أن ما من أحد يراقبها، لكن الكثير كان يراقبها. دخلت الحمام الثالث من ناحية اليسار، أغلقت الباب خلفها، انقضّت بكلتا يديها على مربط بنطالها.. انطفئت كل المصابيح فجأة، فُتحتْ كل الأبواب إلا بابها، ثم فُتح بابها فى حين لم تفتحه هى، لم تستطع أن ترفع بنطالها.. ضاق الحمّام وهم بداخله، كثُرت الأنفاس اللاهثة، والأيدى المعافرة.. قاومتْ.. حاولتْ أن تصرخ، لكن حزام بنطالها اشتد على رقبتها، ضربتْ بكل أطرافها كأنها تغرق.. أخرجت إحداهن مصلا مخدرا، وحاولت تقريبه من فمها، طار المصل فى الظلام، فلعنتها.. أخرجَ رجلٌ خنجرا.. استقر الخنجر فى رقبتها.. هدئت أطرافها، ولمع ماءٌ دافئٌ فى الظلام، ينهار من رحمها على فخذيها العاريين.."

هززت قدمى اليمنى بعفوية مصطنعة، لأشعر بالحرارة ازدادت بالفعل فى قدمها، التفتت إلى بعد أن امتنعت أن تنظر إلىّ طوال سردى للقصة. لم

أستطع أن أحدد رأيها من خلال نظرتها إلىّ، إذ كنت كلما دققتُ فى ملامحها التى لم أعتد عليها بعد، أصابتنى تلك الغريزة المزروعة فينا، والتى ترغبنا فى لمس كل شىء جميل...

"واو.. يا للهول، لا يمكننى أن أقول إننى شعرتُ بالرعب، لكن ما سأكون صادقة فى قوله، إننى مذهولة حقا، ما لا تعلمه أنك تمتلك شيئًا لا يمتلكه الكثير، وما لا تعلمه أيضًا، أنك تستطيع تكوين ثروة من المال أكثر مما يظن والدك.. وذلك من خلال مخيلتك فقط.. ها أنا ذا أكتشف صفة أخرى فيك يا عزيزى، غير أنك أنانى، فلديك القدرة على الكذب.. هههههه لا تغضب"!

وبقدر ما أسعدنى وصفها لى، إلا إننى قررتُ أن أستحث غضبها..

"لدى القدرة على الكذب المتقن، واختلاق القصص، وهذا ما يجعلنى أكثر صلاحا منك.. فالقادر على السرقة ولا يسرق، ليس كالذى لا يسرق لأنه لا يقدر"

قالت:

"حسنا حسنا، لن ندخل فى جدال، لأنك تعرف أنى سأنهيه بقبضتى فى النهاية.. ما يجب عليك فعله الآن، بل ما كان يجب عليك فعله منذ زمن بعيد، أن تستثمر مخيلتك تلك فى جلب المال والثروة، لعل هذه الفكرة لم تأتك من قبل.. لكن، ها هى الفكرة هدية لك، اكتب كتابا"!

نظرت إليها، أضافت..

"اكتب كتابا يحوى مجموعة من قصصك القصيرة، فلهذه القصص جمهورها من الكبار والصغار.. ومن الواضح أنك لن تتعب فى تأليف مثل هذا الكتاب، فيبدو أن القصص تنزل على رأسك كما الوحى"

قلتُ:

"أوافقكِ، لكن فكرة الكتاب هذه واتتنى بالفعل منذ سنين، حتى أننى كنت قد نويت كتابة رواية كبيرة حين أُلهمتُ برؤيتكِ كما أخبرتكِ من قبل، فقد فكرتُ جديا فى الأمر منذ الصغر.... لكن"

تحفزتْ هالة.. فتابعتُ:

"لكن حين كنت صغيرا، كانت الأحلام الكبيرة تطغى على أحلامى الصغيرة، كتأليف كتاب، ثم أتت لحظة إصابتى فمات الكل، الأحلام الكبيرة وكذا الصغيرة"

"والآن يا زين، يا أنا، ألن أمثل أى تغير فى حياتك؟.. على الأقل اسمح لى، بأن أكون السبب فى عودة أحلامك إليك.. أو عودتك إليها"

لم أتكلم للحظات، ثم..

"أنتِ سبب لم هو أعظم، أنت سبب لعودة روحى إلى.. وعودة إيمانى بربى إلى قلبى.. ألا يكفيكِ ذلك..؟"!

أجابتْ:

"يكفينى يا زين، لكنى أريد المزيد، ويجدر بك أن ترنوا إليه أنت كذلك"

ضحكتُ..

"ههههههههه.. بالطبع أريد المزيد، لكن ليس بهذه الطريقة، لا أريد أن ألجأ إلى الكتابة لأنها السبيل الوحيد لقعيد على كرسيه، كنت أريد امتهانها لكن كرجلٍ على ساقين، والآن، إن نجحتُ فى الكتابة، سأظن أن نجاحى صدقة من النجاح علىّ لأجل ظروفى.. شفقة منه على حالى"

ذبل وجهها، قالت بحزن:

"الشفقة، من جديد.. فكر بالأمر من زاوية أخرى، وستجد أن هناك دوافع كثيرة أخرى تحفزك لعمل مثل هذا الكتاب، ليس لأنك قعيد لا تجيد شيئًا سوى ذلك، بل لأنك الوحيد الذى يمسك حبل نجاة أسرة بأكملها، فكّر فى بسنت التى ستزول من العالم وتنعزل، إن كبرت ولم تجد عندها ما عند غيرها من فتيات جيلها، فكّر فى أخيك فرج الباكى من الجوع، أليست كل هذه دوافع.. إننى لا أتخيل أن أسرة بأكملها، تتكون من خمسة أفراد تنتظر كل سنة أن تلد بقرتهم، حتى إذا كَبُر مولودها قليلا واشتد عظمه، باعوه واقتاتوا على ثمنه إلى السنة التى تليها، والمولود الذى يليه"

لم أتكلم.. تابعتْ:

"وماذا إن لم تلد، كما قلتَ لى إنه قد حدث من قبل، ماذا إن مات صغيرها؟

أو ماتت هى وأغلق رحمها للأبد؟ "!

بلعت ريقها، واتسعت عيناها، ثم وضعت يدها على كتفى كأنها أم تراود صغيرها العنيد، الذى تخشى على زعله..

"لا أحد يشفق عليك يا زين، حتى أنا لا أشفق عليك، أنا أترجاك أن تشفق عليهم.. إنهم أهلك. ثم إن ثمة شىء آخر، هل اعتدت أن تخاطب الناس وأنت تشرئب بناظريك إلى الأعلى، ألا تشتاق إلى أن تنظر أحدهم فى وجهه دون أن ترفع صوتك كى يبحث عنك ليراك أسفله؟.. أريدك أن تقف يا أنا، ما دمتَ لا تقبلى مساعدتى فى علاجك، وما دمت لا تريد مساعدة نفسك، من أجل نفسك، فافعلها من أجلى أنا. هل أقولها لك حتى ترضى، ها أنا ذا أقولها، اشفق علىّ أنا، واصلح نفسك وأسرتك وبيتك لأجلى... يا أنانى"

كانت يدها لا زالت على كتفى، شعر عقلى براحة، فتركتُ لرأسى القرار، فمال رأسى على كتفى، فقبلتُ يدها. رفعتُ رأسى أنظر إليها والخجل فى عينى، فرأيتها وليس فى عينيها حجل، بل فى شفتيها بسمة.. نطقتُ بها لأول مرة..

"أحبكِ يا هالة.. يا أنا"

فنطقتْ بها لأول مرة..

"قبّلنى يا زين "

(١٦)

"قبّلنى يا زين"

شعرتُ بالدفء يزداد أكثر، كدتُ أقتل خيالى الذى يُرنى ما ليس له وجود، ويسمعنى ما لم يتحدث به أحد..

"قبّلنى يا زين "

ظل نظرى معلق بالباب، لا أجرؤ على ان أنظر إليها..

"قبّلنى يا زين "

التفتُ ببطء إلى شفتيها، كانتا مقفلتان.. مغلقتان ومرسومتان بالأحمر، كان كل شىء يومى بالدفء، وزاد شعرها البنى المستكين من حرارة الموقف.. يبدو أننى أتخيل ما سمعت! تزايدت نبضات قلبى فى حين كان صدرها هادئا مطمئنا،.. حملقتُ أكثر فيما أسفل حسنة وجهها.. ركزتُ فى شفتيها، هل تحركتا؟ هل نطقتا بما سمعتُ؟.. أمسيت لا أرى إلا ثغرها الأحمر، كأن الغرفة مظلمة ذلا لنور شفتيها،.. انفرجتا أخيرا، شقّتا ظلام الغرفة ببزوغ الضوء من إشراقة أسنانها البيضاء.. ازداد انفراجهما.. ركزتُ أكثر، وهيأتُ أعصاب أذناى، سمعتها تقول..

"قبّلنى يا زين"

قالتها حقيقةً.. قبلنى يا زين، اجعلنى أشعر بهما.. فكل شىء دافئ إلا هما. لوّث شفتاك باحمرارهما، تذوقنى، ودعنى أتذوقك، دعنى أشم رائحة الطينة والنخلة والخضرة فى جسدك.. اسمح لنسيم حقولك أن ينعش سكون أطرافى، وأن يتوغل فى ثغورى. اجعل أمواج اضطرابك تضرب استكانة شاطئى. لنقصانكِ سأفى، وباكتمالى ستكتفى. انسى ما يملكونه وقد خسرته، فقد امتلكتنى.. أنت أنا، كلى لك.. لا بأس بى، لا بأس بك..

"قبّلنى يا زين"

طهرنى بماء قبلتك الأولى وامحوا عنى آثار طغيانهم، اغسل بنقائك خيمات سكناهم بداخلى.. واعفو عن نقص تاريخى، واغمرنى فى اكتمال ماضيك. لو كنت أعلم أنى سألقاك لمنعتهم من أن يلجوا ما لم يكن يوما سكنا له، (لا تخف، لازلتُ نقية بيولوجيا، لكننى أقصد القلب) لهربتُ منهم وانتظرتك، كانوا فرسانا أحلم بهم مع البنات فى صغرى، لكنهم كانوا ملثمين، كانوا غاصبين لأرضى، مع أن لكل واحد منهم قصة حب غير الأخرى، فى مكان مختلف، وأحداث مختلفة، ونظراتٍ أولى مختلفة..

كانوا دوما هم البادئين، ومعك فأنا البادئة. علّمنى أن أكون مثلك.. علّمنى ألا أطلب رغم أنى أشتاق، علّمنى أن أرفض كى لا أستعر إشفاق.. علّمنى أن أهرب، أن أغلق غرفتى، أن أصرخ بمفردى.. لن أبدأ قصة حبٍّ قد تنتهى بفراق.

أخبرنى أن أرسم بخيالى أشخاصا غير الأشخاص. كيف أبنى عالما ممتدا لا ينتهى، أو ينتهى، لكن كما أحبه أن ينتهى؟.. أن أكتب أنا النهايات، أن أشعر أن الكل أرضا، وأنى من غرفتى أسافر بعيدا فى الأفاق. علّمنى كيف وصلت إلى الأعماق؟.. أو قبّلنى.. عوضنى عن سفرى إليك، قبّلنى وأرحنى من كل إرهاق، علّمنى الاكتفاء وسأعلمك الوفاء.. سأعلمك الوفاء. سأعلمك الجوهر والغايات، سأعلمك أن العبرة بالنهايات، أن المريض مريض القلب لا المعاق.. وأن الرب عادل لا ينحاز، لا يخلق عبثا، ولا يعطى فوق الفقر مرضا، لأنه يعلم أن هذا لا يطاق، ولهذا لا يكلفُ نفسا إلا ما بوسعها، ولا يصيبها إلا ما كتب لها.. ولم يكتب غير أن رحمته سبقت غضبه، وأنه رغم أنه شديد العقاب، فهو غفور رحيم واحد لا غيره خلّاق.. لا غيره يبدأ أو ينهى أو يختار.. فها أنت حيٌّ لم تمت من الألم لأن كل شيء عنده بمقدار...

«قبّلنى يا أنا»

أُخرج من كل كبتٍ يُرهق حُريتك، اسمح لأحلامك المقيدة بالشكل والزمان والمكان أن تنطلق دون قيود، كن مبدعا فى أحلامك وسيكن الواقع مبدعا فى تحقيقها لك، لا تحلم بالمال لكن احلم بالغنى، لا تحلم بكونك مرشحا فى الانتخابات لكن احلم بالشهرة.. لا تحلم بأشخاص كثيرين حولك لكن شخصٌ واحدٌ يكفى.. اجعلنى تلك التى بها تكتفى، اجعلنى ذلك الشخص الواحد... قبّلنى

«قبّلنى يا زين»

كانت الأولى لى معها كما كانت الأولى فى حياتى.. لاحظتُ نفسى أقترب، أغمض عينى،.. أرتوى.

ما أن بلل ريقها شفتىّ، حتى حدث شيئين فى آن واحد.. إشعارٌ من هاتفها الذى أضاء فجأة، وصراخ أمى قادمٌ من الحوش بجوار نافذتى.. نظرنا إلى الهاتف فإذا بالإشعار يقول إن الساعة الثانية عشرة. أمسكتْ يدىّ وهى تترقب النافذة المغلقة، وضعى كفى على صدرها، فإذا بقلبها يجرى بسرعة مائة وتسعين كيلو فى الساعة.. بصوت خافت قلتُ:

«اهدأى يا هالة، لم يحدث شىء»

عدّلت ملابسها، وإذا بأحدهم يطرق الباب طرقات متتابعات غير منقطعة.. فقامت هالة، وفتحت الباب، فإذا ببسنت تتجاوزها و تقفز فى حجرى باكية تقول:

«أكل كلب مسعود بطن الجاموسة الصغيرة »

زحفتُ على سريرى إلى النافذة، فتحتها هالة، سقطت أعيننا على أبى يجمع ما بعثره الكلب من أشلاء الصغيرة ويكومها فى صمت رهيب، وأمى تبكى فى صراع ما بين السكون والصراخ، والعم مسعود هناك فى آخر الحوش، يمسك الكلب من حبله المقطوع، يسبّه ويلعن ويركله أمامه. أغلقتُ النافذة، وعدتُ إلى مكانى على السرير، مسحتُ بيدى على شعر بسنت، قلتُ وأنا أنظر إلى ورقة لؤى وقلمه البائتان عندنا فى زاوية الغرفة..

«إنى أُشفق على الجميع، يجب أن نحصل على المال»

(١٧)

أخذتُ حماما منعشا بماءٍ باردٍ رغم الشتاء، هذبتُ شعرى، ومسحتُ على حواجبى بإصبعى، وناديت على بسنت وفرج كى يأتيا إلى.. أخبرتهما أن هذا اليوم سيكون شاقا للغاية، وأنه بمجرد قدوم هالة وبسنت سنبدأ العمل حتى المساء، أو حتى منتصف الليل، أو حتى الصباح التالى إن تطلب الأمر ذلك، وما هى إلا دقائق حتى دخل الاثنان معا، هالة ولؤى.. ثم وزّعنا الأدوار.. سيذهب فرج مع لؤى وستكون الوظيفة أن يبحثا عن كل الأوراق الصغيرة المتناثرة والمترامية فى بيتنا وبيت العم مسعود، فعلى كل ورقة صغيرة منسية، كانت ثمة قصة قصيرة مرعبة كتبتها حين كنت أكتب.. وفى غرفتى سأكون أنا وأختى بسنت، حيث ستكتب ما أملى عليها من قصص جديدة، أما حبيبتى هالة، فوظيفتها تعدُّ أصعب وظيفة بعد وظيفتى، فإنها ستأتى لى بالأفكار الجديدة للقصص المرعبة، ستأتى بالموقف، وأنا سأضيف عامل الرعب إلى ذلك الموقف، هذا قد يعتبر عملا صعبا إن تحول أى شىء عادى أو غير عادى، إلى شىء مخيف، لكن هذا أيضًا ما يتفق الجميع على أنى أجيده، خرجتْ هالة لتجوب القرية إذ قالت إنها تريد مكانا مزدحما بالمواقف فليس فى بيتنا الصغير من مواقف يمكننى أن أخلق منها شيئًا مرعبا، ثم عادت بعد نصف ساعة، وأخبرتنى أنها يجب أن تذهب إلى المدينة حيث الناس تركض للحاق بالحافلات، والبائعين المتجولين

والأطفال المشردين، فيمكنها هناك أن تسجل أحداث عدة قد أستطيع أن أصورها فى كتابى فوافقتُ رأيها، وبالفعل ارتدت الجاكيت الأسود خاصتها ثم انطلقتْ، استمر لؤى وفرج الصغير فى جمع الأوراق الأثرية تلك حتى فرشوا سريرى بالأوراق من حولى، إلا موضع جلوسى وموضع تمدد أختى على بطنها ممسكة بالورقة والقلم.. قلتُ:

"لقد عانينا الكثير من الفقر يا بسنت، أليس كذلك ؟ لكن أعدك يا حبيبتى أنى سأعوضك"

فقالت بسنت:

"قل إن شاء الله "

كنت قد أمليتُ عليها ثلاث قصص تباعا، إلا نهاية القصة الثالثة، فتوسلتْ إلىّ أن أتوقف، لأنها لم تكن تعلم أنى أصبحتُ شريرا لهذا الحد..

"لقد أصبحت قصصك أكثر وجعا من ذى قبل، اجعلنى أنام بجوارك الليلة، فأخى فرج لن يستطيع إنقاذى إن جاءنى أشرار قصصك فى منامى "

"حسنا سنكمل قصتنا الثالثة، ونتوقف قليلا، لقد تخيلتُ كل لحظات الدهشة وتعبيراتها، أريد شيئًا ناضجا آخر لنكمل قصتنا تلك، امممم... يا بسنت، اجعلى من وجهك وجها مندهشا غاية الدهشة "

فقامت عن بطنها واعتدلت جالسة.. نظرتْ إلى النافذة المفتوحة خلفى ثم توهمتْ شيئًا يخيفها، ثم شهقتْ وانتفش صدرها.. صاحت:

"يا لهوى "!!

تداركتها..

"اهدئى، لقد أخفتنى، وأخفتِ ما تتوهمين "!

ثم تابعتُ بعد أن نامت على بطنها ثانية..

"اكتبى.. فأخرج السكين من بطن شقيقه الثالث، ثم نظر إلى شقيقته، وهى الأخيرة، فقد حان دورها.. نظرتْ إلى أشقائها الثلاث، ولازالت أرواحهم تسيل مع أنها الدم المتدفقة من بطونهم، سألته المسكينة (ألا زلت مصرا على قتلى، وقتل نفسك يا أخى ؟ ألا يكفيك الانتقام من إخوانك الثلاث؟) فتأمل بطنها العارية بعينيه الضيقتين خلف نظارته.. قال (لن أقتل نفسى) فسألتْ واللون الأحمر ينعكس فى ماء عينها (لماذا لن تقتل نفسك؟ ألست مخطئا مثلنا ؟) فقال وهو يرسم دائرة صغيرة فى جانب بطنها بالدم على حرف السكين (لأنه يجب على أحدنا أن يعيش، فمن سيبكى علينا إذا متنا جميعنا ؟) ثم ضرب بالسكين ضربة واحدة فى مركز الدائرة الدموية، وسقط الدمع من عينيه على بسمته المرتعشة فى فمه.. "

ثم نظرتُ فإذا بلؤى يقف عند الباب ويضع كلتا يديه على أحد جانبى بطنه، وظهره مقوس، وفمه مفتوح عن آخره كأنه يصرخ لولا كونه لا يستطيع، وفرج بجواره يرفع ناظريه عليه فى تعجب، فصحتُ..

"مكانك يا لؤى، اثبت على هذه الوضعية أرجوك، اكتبى يا بسنت بسرعة..

فوضعتْ الأخت المسكينة كلتا يديها فوق بئر الدم أسفل جانب بطنها، ثم انحنى ظهرها وكأنها كَهُلت فى ثوان، وفتحتْ فمها تصرخُ بلا صوت، كأمٍ خرساء تزعق فى ابنها البليد، وهى تشير فى كراسته على حرف هااااااء "

تقدم فرج وفرش باقى الورق الذى وجدوه فى بيت العم مسعود، حتى غطى به ظهر بسنت، وبدا السرير وكأنه مغطى بلحافٍ مصنوع من ورق مصفر ذابل، تخرج من منتصفه رأس بسنت أختى، ثم دقائق ودخلت هالة وقد بدا عليها الإرهاق، خلعت الجاكيت الأسود..

"لا أدرى لمَ أصبح التنفس صعبا فى مثل هذه الأيام "!

"عجبا يا أنا، ظننتكِ لم تصلى إلى المدينة بعد، هل رجعت من منتصف الطريق "

"آهاااا.. لم أصل بالفعل، لقد استطعتُ أن اكتب لكَ مجموعة أحسبها كبيرة من الأفكار يمكنها مساعدتك، لقد ملئتُ لك ورقتين، كان هذا أثناء انعزالى فى آخر كرسى فى الحافلة، ثم إنى شعرتُ بالإرهاق بمجرد أن وصلتْ الحافلة إلى حافة المدينة. يبدو أننى سأعيش مستقبلى فى قريتكم"

"أنتِ لن تعيشى إلا هنا "

ثم أشرتُ إلى قلبى.. أضفتُ:

"الآن، اجمعى كل هذا الورق المبعثر، وحاولى إعادة كتابة ما تستطيعين قراءته من تلك القصص التى جفت عليها السنين، وإن تعثر عليكِ شيئًا فأخبرينى

وسأحاول التفتيش فى ذاكراتى لآتيكِ به. وأنت يا فرج، اذهب وابكِ إلى أبيك وأخبره أنك تريد حلوى، فإن نجحتَ وأعطاك جنيها، فاذهب واشترى لنا كراسٍ جديدة "

فتوقفتْ هالة عن جمع الورق برهة وهى تتأملنى، وفى فمها وعلى طرف لسانها تقف كلمة بخجل، فابتسمتُ وقلت:

"ماذا تريدين ؟ "

قالت:

"لا شىء، كنتُ أريد فقط أن أقول إن لدى أوراق بيضاء فارغة فى حقيبتى، كما أن لدى مجلتين من BTM يمكنك أن تكتب على المساحات الفارغة فيهما، وأيضًا فى الحقيقة أمتلك جنيها معدنيا يمكنك أخذه إن كنت لا تجد واحدا.. امممم... بالطبع لن تغضب، يمكنك أخذه كقرض مثلا، وإعادة مثله فيما بعد..."

لم يتكلم أحد، أخرجتْ هى زفيرا طويلا، ثم قالت:

"سأبدو كحمقاء، إن جاريت مجانين مثلكم، افعل ما تشاء، أنا أصلا لا أريد مساعدتكَ، كما أنك أنانى.. أنانى كالعادة "

فقاطعها فرج:

"أرسل أختك بسنت، فوالدك يحبها أكثر منى، سيعطيها جنيها أو جنيهين "

فقلت::

«لا بأس، سنشفق على إحداهن هنا، ونقبل مساعدتها لنا»

....

بعد إحدى عشرة ساعة، كانت قد اكتملت ستة وثلاثون قصة، وبقيت سبع قصص غير مكتملة. تثاءبت بسنت فى حين تنهدت هالة وهى ترقم آخر ورقة، وتضعها فى مكانها بين الورق.. سألتها:

«كم ورقة معك يا أنا ؟»

قالت..

«ستة وثلاثون قصة، فى مائة ورقة بالضبط»

فقلت::

«لا أدرى ماذا أقول، لكن أشعر أنها أرقام تبشر بخير»

تابعتُ:

«فى الغد سنكتبُ مائة أخرى إن استطعنا..»

فقالت بسنت وهى تكرر تثاؤبها..

«قل إن شاء الله»

فالتفتُ إليها لأريها أن فمى مطبق، ولن أقولها، ثم مرّت ثوان، لم أشعر فيها أنى بخير، فقلت: ها فى نفسى.

قالت هالة:

"لن تكتب شيئًا فى الغد، لقد كتبت كل شىء"

"لماذا؟.. توجد سبع قصص عير مكتملة، كما أنه يوجد فى العالم العديد من الأفكار التى لم تخطر ببالنا بعد"

فقالت أنا:

"مهلا يا أنا، إلى هنا ويجب أن تصمتَ وتسمعنى، كونكَ أنهيت ستة وثلاثون قصة فى يوم واحد، أبلغ تأثيرا فى قلب القارئ حين نقول له أنك أنجزت مائة قصة فى يومين، كأن تعرض على أحدهم أن يختار بين أن يعمل لديك بمائة جنيه فى اليوم أم بسبعمائة وخمسون فى الاسبوع.. فيحتار لوهلة، وكأنه لا يريد أن يخسر المائة جنيه فى اليوم"

توقفت أعيننا أنا ولؤى عندها فى نفس اللحظة..

"لا نفهم ماذا تعنين؟!"

"المعنى، أن هذه ستكون ورقتنا المضمونة للترويج لهذا الكتاب، ما رأيك يا أنا فى كتاب مكتوب على غلافه بالخط العريض، ستة وثلاثون قصة فى يوم واحد.. أو.. انتظروا، يمكن أن نكتب بجوار اسمك أو أسفل منه،

الكاتب الذى استطاع بقلمه أن يصور ستة وثلاثون عالما من الخيال فى يوم واحد.. أو أى شىء من هذا القبيل "

كان الجميع يفكر.. تابعتْ:

"صدقنى يا زين، إنها لعبة الكلمات، هذا يؤثر على الناس بشكل كبير، من المفترض أنك كاتب ويجب أن تكون أول العارفين بذلك"

"امممم.. موافق"

ثم أشرتُ إلى لؤى فأمال رأسه موافقا.. ارتفع صوت بسنت فجأة..

"ماذا تقولون يا كبار ؟ "!

وإذا بالنوم طار من عينيها.. قالت:

"كيف تقول أنك كتبت ستة وثلاثون قصة فى يوم واحد، ونحن قد جمعنا أكثر من عشرة قصص من بين سطور ورقكِ القديم،هذا غش أكيد"

فتبرم الجميع يتصنع الفجأة.. قلتُ:

"لا تقولى أكيد، قولى إن شاء الله "!

فاحتارات، ثم فيوسط حيرتها نظرتُ إليها.. نظرتُ إليها، ومن بعدها هالة ثم قلت..

"يمكننا الآن أن ننام، أن ننام بعد أن نجحنا فى كتابة ستة وثلاثون قصة فى

يوم واحد.. أو.. نهارٍ واحد"

فقامت بسنت تترنح حتى تهادت إلى يد هالة، فأمسكتها وقالت لها:

"قومى يا هالة، قومى للنام فى غرفتنا، فزين سيصير غشاشا مثل أمه.. تنادى على حين ألعب بالخارج وتقول.. تعالى وسأعطيكِ تمرا، فأذهب إليها فتدخلنى وتغلق الباب وتقول.. كفاكِ لعبا اليوم، لقد أعطيتك تمرا بالأمس"!

فتقوم هالة، ويترنح الاثنان إلى الباب كالسكارى.. ثم تتذكر بسنت شيئًا فتقول وهى تغلق الباب..

"مع أنها لم تعطنى تمرا ذلك الأمس"!

(١٨)

عند الفجر استيقظتُ، كنت على طرف السرير، وبجوارى أخى فرج، وبجواره لؤى.. يغطّان فى نوم عميق. نجحتُ فى ركوب الكرسى، وتحركتُ إلى غرفة والدى. أعلمُ أنه لا ينام فى سريره حين يغضبُ أو يحزن جدًّا، ولا أحزنَ منه فى حداد جاموسته الصغيرة، ذهبتُ إلى غرفة أخى (على) المغلقة منذ أكثر من سنة، لأن أبى لم يحزن أثناء تلك المدة، أزحتُ الستار فإذا به نائم على سريره، أدرتُ عجلاتى حتى اقتربتُ منه، كان نائما وكان الحزن نائمًا فى وجهه، كل شىء به كان خاملًا حتى لحيته تغطى صدره فى بؤس هادئ وتتشابك مع الشعر الأبيض فيه.. وضعتُ يدى على كتفه فاستيقظ، أبصر السقف قليلا. لا أصعب من أن تجد رجلا ضخما يحب الأكل، ولا يسأم الضحك، ولا يبالى بأحد.. وقد تمكنت منه الدنيا..

«ماذا يا زين، هل عادت أمك وغسلت العربة؟»

«لا يا أبى، هى لم تخرج بعد، لعلها ستخرج الآن »

صمتُ قليلا فى وسط صمته، ثم قلت:

«كم بقى لدينا من المال يا أبى؟»

ففتح عينيه فجأة، وكأنى ذكرته برضيعه الذى مات منذ نهارٍ وليلتين.. قال:

"ما يقربُ من مائة جنيه "

"أريد نصف ما لدينا يا أبى "

فسألنى..

"هل شعرتُ بالألم ثانية "

"لا يا أبى، سأسافر إلى العاصمة، لقد أنهيتُ تأليف كتابٍ صغير ليلة أمس، وآملُ أن بالمدينة فرصة لبيع الكتاب "

"متى قررت الذهاب ؟ "

"اليوم، بعد أن يتنفس الصبح. سأذهب أنا وهالة "

"أنت تتعبها كثيرًا، وواضحٌ للجميع أن طينتها ليست كطينتنا، ولا تتحمل السفر إليك فى كل يوم"

"إنها هنا يا أبى، نائمة مع بسنت "

سحب أبى نفسه من تحت غطاء أبى المُترب، ذا رائحة الروث الجاف حتى استقر جالسا، قال ولم ينظر إلىّ بعد منذ أن دخلت..

"ستجدُ النقود تحت رأس أمك، خُذ نصفها، وانتظرنى حتى آتى إليك، سأحاول المجىء قبل الشروق "

ثم نهض بقوة تغلب كآبته، لبس جلبابه ثم أخذ غطاء أخى يجره خلفه، خرج من الغرفة وخرجتُ خلفه إلى أن صدمتنى خشبة عتبة المنزل.

مشى إلى محيط الحوش، والغطاء يكنس الأرض من خلفه، أمسك فطيرة من فطائر أمى وضغط عليها؛ ليختبرها من جميع أطرافها.. ثم غمغم قائلًا:

"ستحتاج إلى يوم آخر حتى تجف، لكن لا بأس، سأخبرهم أنها لا زالت رطبة من الداخل"

تكسّرت فى يده ثلاثة أقراص، ورصّ أكثر من عشرين قرصًا دائريًا فى منتصف لحاف أخى، جمع أطراف اللحاف فى يده، ثم رفعه عن الأرض بقبضة واحدة، وسار بحذر إلى الخارج، وهو يؤكد علىّ بيده الأخرى أن انتظر..

....

بعد أن حملنى أبى ووضعنى فى السيارة الخاصة، وأغلق باب السيارة.. رجع إلى الخلف ليقف مع الباقين ويودعوننا.. قارنت نفسى بحبيبتى هالة الجالسة بجوارى بمجرد أن انطلقت السيارة. مع أنى أخذتُ نصف ثروة والدى، ومع أن أبى باع بعض من فطائر والدتى، قبل أوان بيعها، وأعطانى ما حصل عليها إلا أن ألف جنيه فى حقيبتها، كانت أكثر بكثير من سبعين جنيهًا فى جيبى. رغم أنها لم تستعد، ولم تأخذ نصف ثروة أبيها بعد، ورغم أنه لا يوجد فى بيتها فطائر لتبيعها، ومع ذلك هى أغنى منى أو منّا فى أية لحظة، حتى فى لحظة عدم استعدادها واستعدادى.. كأنها كانت تجبرنى على

حبها، حتى أننى ظننت أحيانًا أن أفعالها تلك إكراها على الحب. أتذكرُ أننى كنت ذات مرة ذلك المحب الذى يبحث عن أى سبب ليكره محبوبه، لكنه لا يجد، كيف أكرهها وكل شىء فيها يجبُ أن يُحب، وكلُ شىء فىّ مكروه؟ ظننتُ أن عمرها سيطول معى، وأننى فى يوم ما ربما ستكون فى ذلك اليوم قاعدة على كرسى مثلى، وأحفادنا يمرحون حولنا، سأخبرها بأنى آسفٌ شديدُ الأسف لأنى لم أكن سهلًا لينًا بالنسبة لمعاقٍ معدم، لم يكمل تعليمه ووقعتْ فى حبه فتاة مصنوعة من اللؤلؤ المضىء بنفسه فى الظلام.

كانت السيارة تتأرجح بنا، فطرق قريتى وعرة، أعلمُ أن هذا لا يعجبُ السائقين بالمرة، وبالأخص إذا كانت السيارة ملكهم، لكن ما كان أكثر مضايقة للسائق هو روث البهائم الذى أراه أمامنا يزين الطريق الريفى، وأتخيله يتحول إلى فطائر مهروسة من خلف السيارة، كان هذا أيضًا من ضمن الأشياء التى تجبرنى على حبها بممارستها لها دائما. قد كانت لا تتذمر ولا تتأفف، بل حتى لا تضع يدها على فمها ولا أنفها حين ترى عندنا ما لم تره عند أبيها، وقد كنتُ أتعجبُ لأجل ذلك، فيجب أن تكره هى ما لم تعتد عليه، ويجب أن تتراجع أو تختلق عذرا، أو تعتذر حين ترى أنها ستتورط معنا فى ثقافتنا البدائية، ويجب أن أكرهها أنا لذلك وأتهمها وألومها.. لمَاذا تنفرين من معيشة حبيبك؟ أو كيف تتذمرين من أبى الضاحك بمائة حنجرة، وتتأففين من أمى بائعة الفطائر؟ أو لنكن أكثر واقعية.. كيف ترفضين الرجل الذى يحبكِ ويسعى إليكِ، لأجل أنه فقير؟ أو لأجل أنه معاق بلا ساق، لكن شيئًا من هذا لم يكن، بل كانت القصة على النقيض

تماما. لم أسعَ خلفها كى أنال حبها، فرفضتنى هى كى ألومها، وحتى بعدما أحبتنى وأحببتها، لم تدع لى شيئًا ألومها لأجله حين أراها، مثلا تنظر إليه وتمتعض، أو تتغمغم بشىء لا أفهمه حين تجلس معى وأسرتى لتناول الطعام فى منتصف الحوش على الحصير.. وحين لم أجد أى شىء، حوّلتُ حبها لى إلى شفقة علىّ، وحاولتُ كرهها لأجل ذلك، فجعلتنى أشفقُ أنا على نفسى، لذا فشخصٌ واحد لديه هذا القلب، وها أنا وجدته.. والجميع كذلك يحصل على قلب كقلب هالة، ربما يجده ذلك الإنسان فى نهاية حياته، أو ربما مثلى هكذا يأتيه فى وسط عتمته فيضيئها له، ثم يرحل.. هل كل الأشخاص، مثلها، يرحلون؟.. يموتون، وكأنهم ما أتوا إلا ليكونوا فداءً لأمثالنا نحن البائسين، والمنتحرين نفسيا..

«لم أفاتحك منذ فترة فى هذا الموضوع يا زين، كيف ترى الانتحار الآن ؟ »

كنا قد خرجنا من القرية، وأصبحنا على الطريق السريع المرتفع عن قريتنا كأنه تل.. أو كأن قريتنا منحدر، أمسكتْ يمناى وأحاطتها بكفيها كأنها تدفئها..

«قررتُ أن أنتحر إن نجحنا فى طباعة الكتاب »

تركتْ يدى من يديها فسقطتْ على فخذها، ثم انزلقت بين فخذيها بتلقائية فيزيائية وبدعمٍ بسيطة منى..

«ماذا تقول.. هل أنت جاد يا زين؟.. أنت تمزح، صحيح؟ »

«إذن أخبرينى أنتِ ما الحل؟.. لقد استعمرتِ كل مكان فى قلبى، وأنا أعلمُ ما تفعلينه بالقلوب حين تستعمرينها، أيرضيكِ أن أنتحر بنفسى أم أن تكونى السبب فى جنونى من حبك؟ »

فالتقطت يدى وهى تبتسم، واحتوتها ثانيةً لتدفئها، مع أن يدى كانت قد بدأت تشعر بالدفء هناك.

استمرت تبتسم وتنظرنى، دائما ما تحب مغازلتى لها.. رفعتْ كفى إلى خدّها، فتحسستُ بإبهامى حسنة وجهها.. قالت لتربكنى:

«نار جهنم.. حرّها شديد، وصقيعها سموم.. وأنا أخشى عليك إن قتلت نفسك أن تعاقب..»

قبّلتْ باطن كفى القريب من فمها.. ثم تابعتْ:

«ثم ماذا سأفعل أنا، إن مُت وتركتنى، ماذا سأفعل إن رحلت وأنت غايتى.. ووسيلتى »

«لن أرحل يا عزيزتى، لن أرحل لأجل غضب الله، ولأجلكِ»

ثم ابتسمتُ وقلت:

«الله عادل »

قالت وهى تحتضن ذراعى وتنام على كتفى..

«الحمد لله، أيقنتَ أخيار أنه لا ينحاز.. لكن لمَ ؟»

«لأنه كافئنى بكِ.. بكِ وبلؤى »

غَفلتْ على كتفى قرابة النصف ساعة، كنا قد اجتزنا ذيل المدينة، وما لبثت الطرق تضيق شيئًا فشيئًا أثناء توغلنا فى مدينتهم، العاصمة، فى تلك اللحظة، شهقت هالة وانتزعت رأسها من على كتفى، وكأنها حلمت بكابوس مخيف.. حاولتُ طمأنتها، فقالت:

«لستُ خائفة، لم أحلم بشىء، بل شعرتُ فجأة أننى سأموت من الاختناق »

ثم أنزلتْ الزجاج حتى ملأ هواء المدينة الساخن سيارتنا كبرميل فارغ اندفع ماء المحيط بداخله فى منتصف الظهيرة حتى غرق..

«آهااا يبدو أنك تريدين شيئًا ما. ولم تخبرينى به بعد، هل تودين إحضار المليونير وتسكنا معنا فى القرية.. كفاكِ تمثيلا، المدينة هواؤها ساخن، لكنه يعمل»

«لا أمثل يا أنانى، أنا بالفعل أشعر بالتعب.. ألأنك مرتاح فيجب على الجميع أن يكون مرتاحًا أو أنه يمثّل »

نشلتُ ذراعى من حضنها، وأشرتُ فجأة إلى حقيبتها..

«أمعكِ قلم وورقة فارغة..»

قالت:

"نعم، بالطبع"

قلتُ:

"إذن، فلنجعلها سبعًا وثلاثين قصة.. "

فقالت وهى تضرب كفها بكفى:

"لقد ألهمكَ اختناقى بقصة.. هيا اجعلها سبعًا وثلاثين قصة.. فى يوم واحد "

ضحكنا خلسة كأننا نتخفى من شىء، ثم طلبتُ منها أن تكتب..

"كانت هى وصديقتها فى العيادة عند طبيب الصدر، كانت أجواء مرعبة بالنسبة لها، فالطبيب عجوز، يرسم البرص على جلده، وقد شابت بعض دوائر شعره، فدائرة بيضاء ودائرة لا زالت سوداء.. كانت تفيق ثم يغمى عليها، وصديقتها تحمل رأسها بعد أن وضعوها على أحد الأسرة المتحركة، وتخبرها بأن تحاول الاستنشاق من فمها إلى أن يعدوا جهاز التنفس الاصطناعى، مرّت خمس دقائق وبعدها جلس الطبيب على مكتبه ونظر نظرة طويلة وثابتة فى حاسوبه.. ثم قال: (أشعرُ بالأسف، صديقتكِ لديها سرطان بالرئة) "

قاطعتنى(أنا).. ورفعت القلم عن الورقة..

"سرطان رئوى، يا قاسى.. طبعا أنا البطلة التى تتخيلها الأن لقصتكِ تلك ؟!"

"لا.. لا لا لا.. ليست أنتِ "

«إذن لماذا أتت بمخيلتك هذه الفكرة الآن ؟ »

فمدّت شفتيها كغاضبة وتابعتْ:

«أنا أعرف أنك تريد الابتعاد بأى طريقة، إما أن تنتحر أنت، أو أموت أنا»

فنظرتُ إلى السائق فى مرآته فوجدته، لا يبالى إلى بالطريق.. فقلت: بصوت خافت:

«عذرا سيدتى»

ثم التهمتُ شفتيها.

«ظن الطبيب كما الفتاة أن صديقتها نائمة أو مغشىً عليها، وتفاجئ الجميع حين فتحتْ عينيها ونظرت إلى الطبيب لتعلمه أنها سمعت جملته الأخيرة (لديها سرطان فى الرئة) عند النافذة كان شابٌ يقف، لا يبدو مرتاحا فى وقفته، ولا مريحا لأحد، ينظرُ فى تعجب إلى ما يدور بين الطبيب والمريضة وصاحبتها، ورغم أنه لا يمتُ بقرابة إلى المريضة، بل يبدو وكأنه تائه فى المشفى، أو آتٍ لزيارة أحدهم ونسى رقم غرفته، أو أنه ينتظر الطبيب ليستشيره فى أمر ما. الغريبُ، أنه سقط لمّا سمع بمرضها، سقط على الأرضية الصلبة اللامعة وهو يمسك بستار النافذة، وكان لسقوطه دويا فى المشفى، كأنه صندوق ألعاب خشبى كبير سقط وتناثرت منه الألعاب فى كل مكان..»

بعد عشر دقائق من إملائى وكتابتها..

"ثم ماتت "

صاحت هالة..

"لا يمكن، لن أكتب موتها بيدى"

فانفعلتُ:

"موتها هو عامل الإثارة فى القصة، يظن الجميع أنها ستقاوم، إلا أنها انهارت ميتة، وفاجأت الجميع.. آه.. أنتِ تريدين أن أجعلها تتعافى، وتقوم، وتعانق صديقتها، وتتزوج حبيبها، وتنجب له أبناء وبنات بصحة جيدة.. هذه نهاية سعيدة.. من أخبركِ إنى كاتب النهايات السعيدة.. إنه كتاب رعب"!

قالت بعد تفكير..

"أيقظها إذن"

"من هذه؟ "!

"صديقتها، أيقظ صديقتها لتكتشف أنه كان حلما، وأن صديقتها المريضة لا زالت نائمة بجوارها فى سلام "

"يا حبيبتى، هذه أيضًا نهاية سعيدة، ما بكِ؟ إنها ليست الأشد رعبا، ولم تعترضى إلا عليها "!

صمتتْ.. فقلت: وأنا أنظر عبر النافذة السيارة المغلقة بجوارى..

"بلهاء"

فقالت، وهى تنظر عبر نافذتها المفتوحة، والهواء يضرب شعرها..

"أنانى "

(١٩)

فى الطابق الأرضى، حاولتُ إقناع مسؤول الاستقبال أنى لن أستطيع الصعود لمقابلة مدير النشر، وأنه لو يستطع إخباره بذلك، ومحاولة إنزاله لمقابلتى، لكنت له شاكرا.. قال:

«لن أستطيع، إنه لا يقدر أحدهم على أن يصعد إليه بهذه السهولة فضلا على أن ينزل هو إليه، أعذرنى، إنه حظك أن يتعطل المصعد الكهربائى »

فنظرتُ إلى هالة فوقى.. فإذا بها تنحنى، وتهمس قائلة:

«ما باليد حيلة »!

غيّرتْ ملامحها فى جزء من الثانية.. ثم حملتْ يدها عن كرسي، واقتربت جدا منه، لا يفصل بينهما إلى مكتبه الزجاجى العالى.. تنفستْ ببطء وثقة، ثم قالت بصوتٍ ناعم لزج ومسكّر.. لا يكاد يسمعه أحدٌ إلا أنا وهو..

«ألن ينزل إلينا حتى لو أخبرته أننا من قرية بعيدة، وأنها فتاة رقيقة واثقة من نفسها، أم سأضطر أنا إلى الصعود إليه وإخباره أن عليه النزول إليه، وأن عليه أيضًا أن يغيّر موظفى الاستقبال فى شركته »

فنزل بعينيه إلى شعرها الذى تداعبه بأطراف أصابعها، ثم نظر إلى.. فتابعتْ

هى:

"صدقنى سأقنعه بتغير أشياء كثيرة، أليس واضحا أنى بارعة فى الإقناع ؟ "

اتصل بأحدهم، بينما اقتربت هى منى، لتتفق معى على ألا يتكلم أحد إلا هى..

"تعلم منى، واعلم أنه لا زال لدى الكثير لأفاجئك به "

فقلت::

"وماذا سأفعل أنا، وليس لدى شعر طويل ملوّن أداعب أطرافه، أو أمتلك عينين ملونتين يتعلق الناس بهما "

فضحكتْ ثم خلعت الجاكيت الأسود خاصتها، وعلقته فى ظهر كرسي وفرشت شعرها على ظهرها وأحد كتفى قميصها الأبيض، تأملها موظف الاستقبال فقد بدت مثيرة له كما هى لى، فأظهرتُ بعضا من الغضب منها على وجهى، وأدركتْ هى ذلك، ولكنها همست لى لتستدر رضاى..

"لكلٍ منا قدراته وإمكانياته يا أنا، إنها هبات الرب، يجب استخدمها.. أليس كذلك يا حبيبى؟ "

فحرك الموظف رأسه متعجبا منا، ثم أشاح ببصره إلى أحدهم الخارج من مصعد كهربائى مخفى، لم يبدو كمصعد إلا حين خرج منه، كان يشبه أولئك الأربعينين فى العمر، الذين لا زالوا يمارسون الرياضة رغم اكتشافهم حقيقة

الحياة. كان يرتدى قميصا أبيض مثلها، وتظهر تضاريس عضلاته من خلاله، لم ينظر، إلى ولا لحظة، نظر لها وحدها ثم سلّم عليها..

«أنا هالة، صاحبة الحقوق الملكية والفكرية لمجلة BTM »

فقال.. ولا زال لم ينظر إلى:

«يا إلهى، بالطبع يجب أن تكونى أنتِ يا جميلة، إنها أجمل مجلة أقرأها إنصافا لكِ من الغيرة التى أشعر بها ناحيتكم، لقد حصلتم على جائزة أسرع شركة ربحية ناشئة يديرها الشباب، هذا شىء لا يصدق.. أو يُصدق ما دمتم تستطيعون سبعون ألف نسخة شهريا»

فقالت:

«شكرًا جدا لك»

اندهشتُ أنا مما قال، وما شكرته عليه (هذا يعنى أنها غنية جدا، ستصير أغنى من والدها)، بينما استدار هو وأشار إلى أحد الأبواب المغلقة وقال:

«هلمى بنا، نجلس ونشرب شيئًا، فأنا فخور بك»

فتراجعتْ خطوتين إلى الخلف حتى أصبحت ورائى، ثم استندت بيديها على كتفى.. قالت:

«هذا من يجب أن تفتخر به الآن، مشروع شبابى جديد، ليست مجلة للبيع بالطبع، وإلا كنت احتفظت بها لنفسى، بل كتابٌ جديدٌ ومؤلف جديد،

سيخطف الأضواء، عليك الطباعة والتغليف والتوزيع، وسأتولى التسويق إذا أردتَ منى ومؤسستى الصغيرة ذلك "

أضافت، بعد أن وجدت الصمت يخيم..

"آسفة، يبدو أننى وصلتُ إلى نهاية اللقاء سريعا دون استئذانك، نحن شباب متسرعون"

فقال:

"تعجبنى روحكِ تلك "

ثم نظر إلى أخيرا، وقال بنبرة أحببتها:

"إذن يجب أن نصعد إلى مكتبى أيها الوجه الجديد اللامع"

فدفعتنى هالة أمامها، وهى تقول:

"أخبروا مسئولى الاستقبال لديكم، أنه لو كان مصعد الموظفين معطل، فمصعد المدراء يعمل.."!

فضحك وقال:

"لا ذنب له "

(أحببته).. هكذا قولت لنفسى. بالأعلى ابتدأ هو الكلام..

"بالطبع تعرفين أننا أفضل دار نشر فى العاصمة"

فقالت:

"ولهذا لم آتِ إليك إلا بصحبة أفضل كاتب"

فأزاح بيده شيئًا وهميا فى الهواء..

"هذا ما كنت أريد لفت انتباهك إليه، وعلى كل فأنا واثق فيكِ، وفى من ترشحين"

أخبرته هى بكل شىء، كانت تحرك يدها فى الهواء، وتغير كثيرا فى نبرات صوتها، وتصمتُ لحظات معينة بعد بعض الكلمات، ثم تتابع الحديث، مستخدمة يديها وعينيها بنشاط.. أحسستها أخرى لا أعرفها، لم أتكلم أنا منذ أن رأيته، كنت شفافا فى اجتماعهما لكن تعجبتُ من كونى لم أغضب، أو أشعر بالشفقة على نفسى، بل شعرت بالفخر! فهذه من تعشقنى وأعشقها، عليها فقط كان تركيزى، ومن حين لآخر كنت أخطف نظرة إليه، وهو مسند ذقنه على تشابك أصابعه..

"لا أخفيكِ سرا، فدارنا لم تنشر إلا روايتى رعبٍ فقط طوال سنوات عملها.. لكن أيضًا لا يمكننى إنكار أنى أحببت فكرة كتاب قصصٍ قصيرةٍ لأحداث متباعدة مرعبة "

نظر فى زاوية بعيدة، ثم ضرب بإصبعيه على مكتبه، وقال:

"ما دمنا وصلنا إلى هنا، فدعينا نتحدث عن كيف سيتم الأمر؟ "!

لم أفهم ما يقصده، وأحسست أنه يعنينى أنا بسؤاله لمّا لم أنظر إليه.. فسرقت هى انتباهه ثانية بكلمة واحدة..

"لا تمويل "

قالتها ثم نظرت إلىّ، وفى عينيها اللوم، فهمتُ ما كان يعنى بقوله، كيف سيتم الأمر؟، تمنيتُ أن تراجعتُ عن عنادى وقبلتُ مساعدتها لى بتمويلى لطباعة الكتاب، لمّا أدركت أن الفضل فى الأصل كله لها، فهى من شجعتنى على الكتابة وهى التى راجعت كل القصص ونقّحتها بيدها، وها هى توصلونى إليهم وتجبرهم بأسلوبها على أن يوافقوا على نشره، ثم أزعم أنا أنى لا أريد مالها لأنى لا أحتاج مساعدة أحد.. قال:

"هذا يعنى أننا من سنموّل طباعة الكتاب"

فقالت:

"أرجو ذلك "

غيّر جلسته، وقال بنبرة تدل على أنه سيقول شيئًا كثيرا ما قاله..

"تعرفى إذن كيف سيتم الأمر، سنموّل المشروع، تصميما وطباعة وتغليفا وتوزيعا.. ودعاية كذلك،.. انظرى، الكتّاب المحترفون يأخذون ثمانية عشرة بالمائة من الأرباح إن كان التمويل من جهتنا، أما المبتدئون،

فيحصلون على اثنتى عشرة بالمائة من الأرباح، ومع ذلك ولأجل أنى أثق فى منتجات الشباب، سأجعل له مكانا فى الصف الأول، وسيحصل على ثمانية عشرة بالمائة من الأرباح"

فقالت:

"لا، نحن نريد اثنى عشر فقط.."

ثم أضافتْ دون أن ينطق أحدنا بكلمة..

"اثنا عشر بالمائة من الإيرادات.. لا الأرباح"!

فضحك فى هدوء كرجل اعتاد على مثل هذه المناوشات التجارية..

"هذا جنون"

فقالت:

"لا، ليس جنونا، بل كل العقل فيما أقول. يمكنكَ أن تخبرنى بالسعر الذى ستود بيع الكتاب به، وتخبرنى بالتكاليف، وأنا بدورى سأحسب لك الأرباح، وأحسب لك كم ستكون نسبة الاثنى عشر بالمائة من المبيعات بالنسبة للأرباح.."

صمت هو، فهزّتْ رأسها، كأنه تريد توصيله إلى حقيقة معينة يعرفها من قبل..

«أنت تعلم يا سيدى أنك فى حالة إن أخذ هو اثنى عشر بالمائة من الإيرادات.. ستكون داركم هى الفائزة، وفى حالة أخذه لثمانية عشرة من الأرباح، ستكون داركم هى الفائزة أيضًا لكن بجدارة، وأظن أنك تعلم أننا أصبحنا الآن فى مصر ندرك معنى المبدأ المسمى win win situation »

فابتسم لها.. فأضافتْ:

«لقد كنتم السبب فى فهمى لتلك القاعدة الخاصة بالمعاملات، لقد طبعتم كتاب يشرحها »

فقال، ولا زال يبتسم..

«يبدو أن سياسة تثقيف الشباب فى الناحية المالية، سيودى بنا نحن إلى أسفل دركات الفشل المالى»

أخرج زفيرا، ثم تابع..

«إذن أوافق، أوافق على عشرة بالمائة من الإيرادات»

فقالت:

«وهو كذلك موافق.. موافق على عشرة بالمائة من الإيرادات.. وثلاثون ألف جنيه»

فتراجعت يده، فمدتْ يدها أكثر، وقالت:

«وإعلان مجانى، هدية منى له، فى مجلة يقرأها سبعون ألف قارئ»

فمدّ يده وتصافحا **!** ولم يمدّ أى منهما يده إلى **!!**

كنا شبه قد اتفقنا (أو اتفقت هى) على كل شىء تقريبا.. لكنه أراد أن يقرأ الكتيب (كما يسميه) قبل أن نوقع العقد، قال إنه لن يستغرق أكثر من نصف ساعة، وتعلمون بالطبع أن هذه ليست معجزة، فالمعجزة الحقيقية هى أنى كتبته فى يوم واحد. تجوّلنا بين المكاتب الإدارية وكأننا أصحاب دار النشر.. طلبتُ منها أن تقترب..

«أنا آسف، كنت أحمقًا حين رفثت تمويلك »

«أنت لم ترفض تمويلى، أنت رفضت مساعدتى لك، أظن الآن بعد أن حاولتَ أن تصير شخصا أفضل من أجلى وحاولتُ أنا مساعدتك على ذلك، أننا تخطينا كوننا شخصين، نحن شخص واحد يا أنا، ألا تبادلنى نفس الشعور »

«أبادلك منذ اللحظة الأولى، لكنكِ تغفرين لحالمٍ أشفق عليه الناس »

قالت:

«قبل أن أنسى..»

ثم هزّتْ كتفها تفتخر..

«لقد حظيت على نسبة كان من المستحيل أن تحصل عليها حتى لو كنت أشهر كاتب فى مصر »

فقلت:

«ارتدى الجاكيت، واسترى جمالك هذا»

فقالت:

«وإلا ماذا ؟ »!

«وإلا سأبدو مسكينا جدا وأنا أدخل فى قتال مع كل هؤلاء الناظرين إليك»

(٢٠)

كنا فى مكتبه ثانية بعد أن أنهى القراءة، وقّعت فى نهاية ورقة ثم وضع هو اسمه بجوار اسمى، ثم أعطانى كيسا صغيرا جدا عمّا كنتُ أتوقع، لقد كان هذا الكيس الصغير يحوى ثلاثين ألف جنيه، وبينما كنتُ وحبيبتى فى الخارج، كنت أفكر بصمتٍ هل ستتمكن حقيبة هالة من ستر الثلاثين ألف جنيه بداخلها؟ أم أننا ارتكبنا خطأ بعدم إحضارنا حقيبة كبيرة، أمسكتُ الكيس فى قبضتى.. وتلك كانت أول كلمة أقولها فى مكتبه، ويسمعها منى..

«هل هذا جزءٌ من المال ؟ »

فقال متعجبا:

«لا تلك ثلاثون كاملة، يمكنك عدّها إن أردت»

فقالت هالة، تحاول كبح ضحكتها..

«لا، شكرا لك، إنه مازحٌ بطبعه »!

ودّعناه وذهبنا إلى هناك، إلى المؤسسة الصغيرة BTM، حملنى ابن البوّاب بالكرسى دون الحاجة لمساعدة أحد، حملنى ست درجات فقط ثم أنزلنى

عند لائحة متوسطة الحجم مسندة على الأرض، وبها الكثير من الكلام، لكن ما لفت انتباهى إلا تلك الحروف الكبيرة BTM ، لقد كنتُ مبهورًا بالفعل من شيئين، الأول، أن مقر الإدارة هذا، كان أصغر كثير عمّا تخيلتُ، فقد كانت شقة تدير طباعة سبعون ألف نسخة فى كل شهر، الشىء الثانى، أنها كانت نظيفة جدا، أكثر نظافة من الشركة التى تعاقدت مع مديرها لنشر كتابى. ورغم أنه لا يوجد هناك مكتب لموظفى الاستقبال، أو مصعد خاص بالإداريين وآخر للموظفين، إلا أن وجودى هناك كان منعشا بالنسبة لى، حيثُ رائحة جميلة يبدو أنها تخرج من الجدران، وصور كبيرة لرجالٍ لا أعرفهن ونساء لم أعرف منهن إلا الممثلة emma stone التى هى الأولى من بين النساء اللاتى أحبهن بعد هالة وبسنت وأمى. تجمّعتْ حولى الشريكات، تأكد فى نفسى أن كل الفتيات اللاتى يلبسن البنطال، هن أجمل من غيرهن، الثلاثة كنّ يرتدين ما ترتديه حبيبتى دائما، لكن لكل منهن لونها، فهذه ترتدى جاكيت أسمر فوق قميص أبيض، وتلك ترتديه أحمر فوق قميص بنى فاتح.. وكذلك يختلف لون البنطال من واحدة للأخرى.

لأن هالة، جعلتنى أقتنع تماما، أنى أقوى من الكثير، دعّمتْ بداخلى أن العقيم عقيم القلب والروح لا الجسد.. نسيتُ أننى فارسها المعاق أمام الجميلات، لم أدرك فى بادئ الأمر تلك النظرات المتبادلة بينهما، أعترف، قد لا تكون تعبيرات السخرية فى وجوه من يسكنون المدينة، هى نفس التعبيرات فى وجه لؤى الصامت فى قريتى، ولذا غفرتُ لنفسى كونى لم أدرك ملامح الفجأة والشفقة والسخرية فى وجه إحداهن.. نحن حينما نتفاجأ،

تتسع أعيننا ويُفتح فمنا عن آخره، أما هنا حين يتفاجئن، تضيق أعينهن، ويتبادلن نظراتٍ قريبة فيما بينهن، ثم يسرعن للترحاب بك إن لاحظت شيئًا غريبا، وهذا جميلٌ ونفاقٌ فى نفس الوقت.. ربما إذن، لا يجب أن يقرأ كتابى إلا من يستطيعون القراءة فى قريتى، فعندما أكتب أن أحدهم فتح فمه دون صوت واتسعت بؤرة عينيه، فسيعرفون أنى أقصد فجأته، أما هنا فسيظنون أنى أصف ألما يشعر به، أو أصفُ خروج روحه من جسده!

علمتُ أن بداخلها صراع، نظرتُ إليها وهى بعيدة عنى، فابتسمتْ ابتسامة تجمع بين محاولة إرضائى، وبين إظهار كم أنهن قاسيات. اقتربتْ منى، ثم حملتْ يدى عن مسندها، ثم جلست هى فوق المسند.. ثم نظرتْ إلى ابن البوّاب طويلا، ثم قبّلتنى على بغتة. قامت عنى, لا زالت تتمسك بيدى كغريق، قالت:

"إنه من حدثتكن عنه يا فتيات"

فضاقت أعينهن، ثم أسرعنّ يرحبن بى.. سألتها:

"إذن يا هالة، ألم تشترى الطابعات الخاصة بكِ بعد، أظن أن هذه الشقة لا تحتوى على طابعات تنتج سبعين ألف نسخة"

فأجابت إحداهن، فرغم كل شىء أحببتها كما أحببتُ مدير النشر..

"لا، لم نشترِ الطابعات بعد، لقد فضّلنا أن نظل متعاقدين مع إحدى المطابع، هذا أوفر لنا بكثير.. ربما سنشترى طابعاتنا الخاصة فى المستقبل

يا...... زين "!

ثم دخل، فقامت إليه تعانقه..

"اشتقتُ إليك يا أبى، دكتور علّام "!

فحضنها، وقبّلت هى رأسه.. ثم تقدم إلىّ..

"إذن أنت البطل الذى تغلب على كل شباب مصر"

فخجلتْ هى، بينما قلتُ أنا مازحًا:

"إننى لم أصارع أحدًا، لقد أشرتُ على من أريدها فقط، فأتت إلىّ"

فضحك، وانتظرته يسعل كما سمعت فى قصصه التى أخبرتنى بها هالة، لكنه استمر دون سعال..

"مهلا على الفتيات يا بطل،ستثير الغيرة فى قلوبهن، إنهن صديقات حبيبتك

فقلت::

"لا، لا.. لن تشعر إحداهن بالغيرة بعد، لا زال الوقت طويلًا حتى يرتقين إلى مستوى أن يغرن على صديقتهن من معاق "

ففتحن أفواههن بلا صوت، فعلمتُ أنهن إما مرضى، أو تصعدُ أرواحهن.

فى عيادة الدكتور علّام، طلبتْ منى هالة أن أُناولها الكيس الذى لم أزل

أقبض عليه، فأعطيتها إياه وأنا أقول..

«لا أصدق إلى الآن، أن تلك ثلاثون ألف كاملة، ظننتُ أننى سأذهبُ إلى البيت بحقيبة كبيرة، يحفر لها أبى فى الأرض تحت سريره ليخبئها»

فضحك الدكتور علّام.. وقال:

«أنت تحتاج إلى زيارة أماكن كثيرة، أن تتعرف على أناس أكثر وتتسع آفاقك، لتكون كاتبًا ناجحًا فيما بعد، العالم الحقيقى، ليس ذلك العالم الذى تنعزل فيه قريتك.. لا تتعجب منى، فقد حكت هالة الكثير عنك. أخبرنى، كيف تعرف إذن من تكون emma stone، إن كنت لا تعرف أن هذه البطاقة قد تحتوى على مثل الثلاثين ألف جنيه خاصتك».

ثم أخرج من سترته بطاقة بلاستيكية ملونة.. master card.. قلتُ:

«إنها الأفلام التى أشاهدها مع هالة، ويمكننى أن أخبرك أيضًا عن stone أنها أمريكية تتحدث الإنجليزية، رغم أن هالة تفضل الهنديات».

فتكلمتْ هى، وأنا أرى المال قد خرج من الكيس فى يدها..

«ها هى عشرة آلاف جنيه يا دكتور علّام، أريد أن نبدأ فى إجراءات العملية الجراحية، تلك التى حدثتك عنها سابقا.. كما أريد تركيب ساق اصطناعية له».

ثم أعطته ثلث حجم المال.. وأعادت الباقى إلى الكيس، ثم ناولتنى إياه..

"مهلا "

سمعتُ صوتى، مع أننى ظننتُ أنى أحدّثُ نفسى..

"من قال لكِ إنى أريد عمليات، أو أريد سيقان جديدة، هذا مالى.. أعيدى مالى إلى الكيس ثانية وإلا وصفتكِ بشبيهة مارلين "

فضحكتْ وقالت:

"لا عليك يا دكتور، إنه يمزح دائما "!!

صمتت قليلا، ثم أضافت وهى تنظر إلى فى تصبُّر..

"أرجوك، لا تتكلم بعد الأن إلا حينما نصل إلا بيتكم"

فقلت::

"أنا لا أمزح، لا أريد أن أقف ثانية، المال سيسعد والداى"

فارتفع صوتها، وفى عينيها لمعة:

"لكنى أريد يا زين، أريد أن أراك واقفا"

فقلت: وأنا أوثق قبضتى على باقى المال..

"أنا أمزح "

أضفتُ..

"احم، لا تغضبى، اعتراضى كان مزاحا.. أنا كلى لكِ يا حبيبتى، لا تفعلى هذا بى أمام من ألقاهم لأول مرة "

فسعل أخيرا.. ثم قال:

"رفقا بابنتى يا بُنى، الآن، من أخبركِ أنى دكتور عظام، أو أستطيع فعل عمليات جراحية،.. إننى لا أخرجُ فى عملياتى عن حدود الأسنان".

كانت صامتة لا تنظر إلى، مسحت دموعها، ثم تكلمت..

"اعلم ذلك، لكن من المؤكد أن لديك معارفك، فاجعلهم يسهلون الأمر علينا، أرجوك، افعل هذا لأجله"

ثم تداركت وقالت:

"ليس لأجله، بل لأجلى"

ثم نظرتنى أخيرا، ويا ليتها ما نظرت إلى.

فى نهاية اليوم، وفى طريق عودتنا، حاوتُ أن أتطرق لشىء آخر كان يؤلمنى منذ أن أتت إلى بيتنا فى أول مرة.. كانت هادئة جدا، فى المقعد خلف السائق، وكنت بجوارها، كنا متخاصمين بسبب ما حدث عند الدكتور علّام. ولا أدرى لماذا لا أقدر على أن أمنع نفسى من أخبركم أنها حين تكون غاضبة، أعنى غاضبة بصدق، فإنها تصير أكثر دفئا، وتكسوها هالة غريبة فوق هالتها، فتعزلها عن كل شىء حتى أنا أحيانا.. تكلمتُ:

"يا أنا، هل يمكننى إخبارك بشىء"

"يُمكنك "

فصمتُ حتى تركتْ ما تتأمله عبر النافذة ثم نظرت إلى.. قلتُ فى سذاجة:

"أدركتُ اليوم، أنكِ أجمل شىء فى الوجود، أدركتُ ثانية، أننى أمتلك ما لم يمتلكه أحد، لقد أعطانى الله، مالم يعطِ أحد من العالمين.. وتلك هى تأكيد إجابتى لسؤالكِ عن الله "

فقالت:

"إلى متى ؟ "

فقلت::

"لا أفهم، إلى متى ماذا ؟"

"إلى متى تتذكر ذلك، ثم تنساه، ثم تسىء إلىّ، ثم تجىء وتعتذر وتخبرنى كم أنا نادرة.. فتلك أمست لعبتكَ المفضلة "

صمتنا كلانا، حتى أن السائق أخفض صوت المذياع، إما لتستطيع الكلام، وإما ليستطيع هو الإنصات..

تكلمتْ:

"لقد تعبتُ يا زين، أشعر أحيانا أننى من سيجن بسببك، وسيرسلنى أبى

لأعالج حيث يعالج بسّام»

فأمسكتُ يدها، فحاولت نزعها وهى تبكى، لكنها لم تقدر أو أنى تمسكتُ بقوة..

«لا يا حبيبتى، لا تقولى هذا.. بكائكِ يكفى لتمزيقى، فما تقولينه هى أسوء قصة رعب أسمعها فى حياتى، أنا كلى لكِ كما أخبرتكِ، بل إننى أتغيرُ من لأجلكِ، كنت سببا فى إيمانى الحق بالله، وإيمانى بنفسى.. يا إلهى، لا تبكِ أرجوك، أنا أتغير، أنتِ تلاحظين ذلك.. هى خطوات قصيرة، لكنها حقيقية نحو التغيير»

تماسكتْ حتى استطاعتْ أن تقول:

«لم تجبنى أيضًا، إلى متى يجب أن أنتظر خطواتك القصيرة تلك حتى تكتمل؟»

فقررتُ سريعا كى أتجنب ألم النظر إليها باكية..

«إلى هذه اللحظة وفقط، إلى هنا وينتهى كل الألم يا أنا، أعدكِ بأنى سأتحمل أنا لأخفف عنكِ أنتِ، ويكفيكِ ما صبرتِ إلى الآن، أعدكِ بأنى سأكون كما تريدين، أنسيتِ يا أنا، أنسيتِ ما قلته لى، لقد تجاوزنا كوننا شخصين، نحن شخص واحد».

كانت قد بدأت ترتجف، فضممتها ناحيتى..

«هل أخبركِ شيئًا آخر، أنتِ الشخص الواحد الذى يكفينى، لقد تخليتُ عن

كل أحلامى التى تحتاج إلى الكثير من ممثلى دور الكومبارس، أنتِ البطلة فى حياتى التى تكفينى، ولذا أنتِ أول من يستحق أن يرانى واقفا حين أقف، وسأسعى لذلك».

قالت، وهى تتمرغ بلطفٍ فى صدرى..

«افعلها، لأجلك أنت، سأسعدُ لذلك أكثر، سأشعر أنكِ بى أو بدونى ستكون بخير».

فشعرتُ بشعور سيئ..

«لا لا، لا يوجد (بدونك)، دوما سنكون معا، أليس بكذلك يا حبيبتى؟ من الغد ستذهبين إلى كليتك لأنك قصرتِ فى الدراسة ذاك الشهر الفائت، سأتحمل البعد عنكِ حتى نتقابل، وسنظل هكذا، نبتعد ونتحمل، ثم نتقابل ونتفارق فنتحمل، حتى نتقابل فى مرة ولا نفترق بعدها.. أليس كذلك؟ أم ماذا؟ وسأنجب منكِ طفلة، وستكون مثلكِ فى كل أحوالها، فى فرحها ولهفتها وضحكها، وسأسميها باسمك، سأسميها هالة، لأنى لا أتخيل لها اسمًا غير اسمك».

فقالت، وكأنها مريضة توصينى..

«عدنى بذلك، أننا سنظل معا للأبد دون مزيد من الألم»

«أعدكِ، وأعدكِ أن أتغير لأجلى، ولأجلك، لكن..»

فقامت عن صدرى، وقالت بصوت خائف..

«لكن ماذا؟ »

«ثمة ألم لا زال يطاردنى»

فقالت:

«إذن دعينى أشاركك فى تحمله، أنا لا يرضينى أن تتحمل كل شىء وحدك مهما كان»

فقلت::

«الذنب.. ماذا تعرفين الله؟ »!

فقالت:

«لا أفهم »

فقلت::

«ماذا تعرفين عن الحلال والحرام ؟ »

فقالت:

«أعرف مثلا أن الانتحار حرام، وأن التفرقة العنصرية حرام، وأن الحب الصادق حلال »

فأوقفت فمها..

"فى حبنا ما لا يرضى الله "!!

فقالت:

"ماذا ؟.. لا أودُّ خيانتك، ولا أظن أنك تودُّ ذلك"

فقلت::

"هذا ما لستُ أعنيه، ما أعنيه أنه لا يمكننى أن أقترب منكِ أكثر من هذا إلا بموافقة والدكِ ومباركة المأذون، وإلا فهذا لا يفرقُ عن التعدّى شيئًا".

فقالت:

"هذا عجيب، أظن أن حبنا من تلك الأشياء التى سيكافئنا الله عليها "!

فقلت::

"سيكافئنا إن كان كما يريد"

"تعنى الزواج"

فقلت::

"أعنى الزواج "

فارتمت على ظهر كرسيها، وأغمضت عينيها وتنفست الصعداء، ثم قالت:

"لا أريد أن نرضى فيما لا يرضى الله، الآن ظهر تأثير الإسلاميين عليك فى طفولتك"

فقلت::

"وقد أثروا عليكِ أيضًا، فلولاهم لما عرفتِ أن الانتحار حرام، كان يمكن أن يكون حلالًا تحت مسمى آخر"

"مثل ماذا ؟"

"مثل قولهم.. الموت الرحيم"

(٢١)

كانت العشرون ألف الباقية، كلها من فئة مائتا جنيه، وهذا فى الحقيقة ما كان يقلص حجمها، ولذا، ولمّا أردتُ أن أزيد من حجم العشرين ألف، استطعت بمساعدتها أن أبدل ورقة المائتى جنيه، بالعشرة جنيهات، وبالطبع زاد الحجم عشرون ضعفا، وهذا ما سيسعدُ الجميع فى البيت.. ولوهلة شعرتْ هى بالسعادة لم نفعله، مع أنها اعترضت فى البداية.

على أرضية حوش المنزل، كانت دائرةً صنعوها من أجسامهم جلوسًا، لؤى وفرج والعم مسعود وبسنت وأبى وأمى، كنّا ليلا حين رأينا دائرتهم من بعيد، كانوا يمصّون أعواد القصب، أمى تقشرّها لبسنت، ولؤى يقشرها لفرج، وأبى لا يحبُ أن يقشر لأحد.. أو لا يحب مضيعة الوقت، فالوقت لا يكفى إلا أن يقشر لنفسه، وكانت هالة تدفعنى بلطف أمامها حتى اقتربنا ولمحتنى أختى بسنت، فجرحتْ اكتمال دائرتهم وقامت تجرى إلينا، أمرتُ هالة أن تتوقف عن دفعى، ثم حرّكتُ عجلات الكرسى بنفسى، حتى دخلتُ دائرتهم من الثغر الذى صنعته بسنت حين قامت، وفى مركز الدائرة وفوق قشر القصب، نشرتُ عشرون ألف جنيه من فئة العشرة جنيهات، حتى امتلأت الدائرة، ثم كانت تعابير الفجأة فى قريتى.. الفمُ المفتوح، والعينان الواسعتان.. قال أبى:

"هل حقا نجحت فى بيع الكتاب؟.. هل هذه الأموال لك؟.. اقصد لنا"

فقلت::

"نعم، يا أبى، لقد نجحت، فهذه أموالى.. أعنى أموالنا "!

فتكلمت أمى وهى تجمع المال مسرعة بعد أن طارت عشرة جنيهات..

"يا ويحى، ستحسدنا نساء القرية، لن أستيقظ مبكرًا بعد اليوم، وانحنى تحت كل بقرة فى القرية"

فحاول أبى أن يغلظ صوته، وأن يجعل من نفسه ذلك الأب الذى يسأل عن كل شىء يحدث فى المنزل، لأنه يخشى على أولاده، قال هو يخلل لحيته بأصابعه:

"توقفى يا أم زين عن جمع المال، لن نأخذ شيئًا من هذا حتى نعلم من أين أتى به ابنك".

فأسرعتُ أحاول الانحناء وألتقط أوراق المال.. وأنا أقول:

"إذن انتظر، حتى تعرف من أين أتيتُ بها"

فقال وهو يضحك وينظر إلى هالة خارج الدائرة..

"مهلا يا بُنى، انتظر ههههههههههخاا.. إنك لا تأخذ دواءك، ما الذى يعصبك الآن، أنا أثق بك بالطبع، هيا اترك المال لأمك وأخبرنى من أين حصلت

عليه فيما بعد.. أو لا تخبرنى هههههه.. لا يهم"

تكلمت هالة..

"لقد انفقنا مثل نصف هذا المال لمعالجة زين، لقد تم الكشف عليه ووافق الطبيب على إجراء العملية له، وحدد لنا يوما فى الأسبوع القادم لنسافر إليه ونستعد للعملية"

فقال العم مسعود:

"إذن فكلامك صحيح يا بنتى، كان يمكن معالجته منذ البداية"

فابتسمتْ له، فالتفتَ إليه لؤى ينظره..

سألت أمى وهى تنظر فى حرج إلى أبى..

"وكم من الوقت سيمكث هناك ؟"

فأجابت هالة:

"سيبقى أسبوعًا قبل العملية، كى يهيأ لها، ثم سيظل بعدها ثلاثة أسابيع"

فقال أبى:

"لكن لا أستطيع أن أترك الأرض يا زين، وكذلك مسعود.. من سيكون إلى جوارك هناك؟ "

فانتقلت عينىّ لؤى ببطء إلى هالة، ثم قلتُ أنا فى هدوء:

"هالة ستكون معى "

فساد الصمت إلا من عينى لؤى، وقبل أن يقوم أبى، ويقول إنه يريد أن يحدثنى على انفراد.. أطلقتُها من لسانى كى أريح الجميع:

"ستكون معى كزوجتى، أريد أن أتزوج هالة يا أبى و يا أمى "!

لم أكن قد اتفقت معها بعد، فاجئتها كما فاجئت الجميع، نظرتْ إلىّ وأنا فى مركز الدائرة وهى خارجها..

"أريدها يا أبى أن تصير فردًا فى دائرة عائلتنا، وهى كذلك تريدنى رجلُ أسرتها الجديدة "

فقال أبى دون أن يستشير أمى بعينيه كعادتهما..

"أنا موافق، رغم أنه لا يجب عليك أن تسأل والدك الزواج منها، يجب عليكِ أن تسأل والدها"

.. بعد ساعتين، بعد أن أنهينا العشاء وجمعنا المال، ودخلنا دارنا، وأغلقنا علينا بابها.. استأذنتْ أمى من هالة أن تأخذنى لحاجتها إلىّ فى شىء، فقامت هالة وقالت:

"لا عليكما، سأقوم أنا بالطبع، سأذهب إلى غرفة فرج وبسنت "

قالت أمى:

"يا بنى أنا عالمة بالبنات، صبية صغيرة وجميلة، وألف من يتمنّاها، لكنه الفقر يا بنى. لا هى طينتنا ولا هدمتنا ولا أكلنا ولا شربنا.. كيف ستعيش معنا ؟ "

"يا أمى يا مسكينة، دوما ستظلون هكذا.. هذا المال جزء فقط من العقد، لم يأتِ المكسب بعد، ثم إنى عرفتُ أخيرا ما هى وظيفتى، أنا كاتب، سأدرس من جديد، وسأتقن الكتابة، وسأكتب كتبا لا يخلو منها بيت ولا مكتبة.. وبالطبع لن تعيش معنا هنا، مع أنها سترضى بذلك، لكن هذا ليس من الإنصاف.. سنسكن فى المدينة"

"ستسكن فى المدينة؟ ومن سيخدمكَ هناك؟ وكيف ستتحرك وسط زحمة المدينة؟"

"سأُقف على قدمين من جديد يا أمى، ولن أحتاج إلى خدمة أحد، حتى لو احتجتُ، فستعتنى هالة بى، سترين ذلك، أعدكِ أنى سأستطيع الوقوف "

فخرجتْ بسنت من غرفتها تهمس..

"قل إن شاء الله "

ثم قالت:

"تقول لكَ هالة، اخفض صوتك.. لأنها يمكنها سماعك"

فحذرتها أمى بعينها، فدخلت غرفتها تهرول.. ثم قالت أمى بعد أن خرج أبى من غرفته.. وجلس إلى جوارى أرضا..

"قل الصدق يا زين، هل لمستها؟"

فقلت::

"من؟.. آها.. هالة، لا، لا.. لم تنظرين إلىّ وكأنك تعرفين عنى شيئًا لا أعرفه؟.. آه، لمستها.. قبّلتها فقط "

فسألنى أبى، وهو يتزحزح بصعوبة متلهفة..

"قبلةً طويلةً أم قصيرةً ؟"

فأسكتته أمى، وقالت:

"إذن، أمست الخلوة خطرا عليكما، حاول أن تتزوجها قريبا فقد أحببتُها. حاول إقناع والدها، رغم أن قلبى يقول أنها لن تدوم معك طويلا "!

وفى الصباح كانت الشمس باهتة خلف السحاب، بدأنا فعل ما خططنا له أنا وهالة..

أعطيتُ لأبى عشرة آلاف جنيه كى يشترى له جاموسًا ذكرًا من عند صديقه ذلك الذى ذبح عجلا بأكمله من قبل، فعارضنى أبى قائلا بأن هذه ليست الخطة الأمثل، ثم قال:

«سأشترى بدلا من ذلك، بقرة أنثى عُشر، وبهذا سيكون عندنا بطنان لا بطن واحدة»

«لكَ ما تريد يا أبى، أستسمحكَ فقط فى أن تجعل لى حق التصرف فى العشرة الباقية، سأجنى منها أضعافها إن وافقت»

فتردد ثم استقرت عيناه..

«سأتركها لك، يبدو أنك ستصير مليونيرا كوالدها، لكن يجب أن تأتينى بأضعافها كما قلت»

ثم مضى إلى أرضه..

«لا أصدق حقا أنكم تتعاملون هكذا، إن أبى لا يأخذ منى ما أجنيه من أرباح المجلة»

فقلت::

«وكذلك أبى لن يأخذ منى شيئًا، إن استطعت أن أحرر مجلة، لكن ما يأخذه هو أبسط ما يمكننى أن أعطيه إياه، الفقر يجعلنا نتحد أحيانا، بالذات إذا عشناه معا. أظن أنكِ ستفعلين ما فعلته أنا إن أصاب والدك إفلاس، ثم أن هناك شيئًا لم تدركيه بعد، قبل أن نذهب إلى العاصمة، طلبتُ من أبى مالا فأخبرنى أن كل ما لديه لا يتعدى المائة جنيه، وأمرنى أن آخذ نصفها، هل تعين ما أقول، لقد أعطانى نصف ماله، هل أعطاكِ أبوكِ نصف ماله من قبل؟»

فقالت:

«كفاكَ فلسفة، دعنا نفعل شيئًا بالعشرة الباقية يمكنك أن تقنع به والدى، أنك أنت من تستحق ابنته، ملكة جمال مصر أفريقيا».

فقلت::

«هل هذا غرور ؟»

فقالت تغيظنى:

«نعم »

كانت فكرتها أن نستثمر فى السياحة، قالت إنه من الممكن أن نستغل قريتى المنعزلة عن العالم، بيوتها الطينية، وفطائرها، وجلسات السمر فى الليل التى تجمع بين أهلها فى أحواش منازلهم.. قالت إنه يمكن استغلال تلك الثقافة العتيقة فى جنى المال، لكن كان سؤالى..

«كيف سنأتى بالسيّاح إلى قريتى؟ وإن أتوا فأين يمكننا استضافتهم ؟»

فقالت:

«تلك هى الفكرة، دع سيدة الأعمال تخرج من داخلى الآن وتتحدث، ثم بدأت شرحًا مطولًا ملخصه أن الفكرة كلها تحوم حول بعض المواقع الإلكترونية، فبدلا من أن يحجز المسافرون غرفا لهم فى فنادق البلد الذى سينزلون إليه، تقوم هذا المواقع بالجمع بين هؤلاء المسافرين من أجل العمل

أو رحلات الترفيه والمتعة أو التعلم أو غيره.. وبين هؤلاء الذين يمتلكون منازل ويريدون تأجيرها، ترفع صورة لمنزلك أو شقتك التى تريد تأجيرها، وترفق بها موقعها على الخريطة الإلكترونية، ويتم عرضها على الموقع، فيختار الزوّار السكن الذى يريدون، ويتم الدفع حسب مدة الإقامة عبر الشبكة العنكبوتية، دون التقاء بين المؤجر والمستأجر.. وهكذا يتم الأمر».

بقدر ما أحببت الفكرة، إلا أننى تخيلتُ أن بيتى الذى ربما سأريد تأجيره يوما ما، يجب أن يكون بيتًا قويًا يظهرُ شامخا فى المدينة، ليس بيتنا الخشبى، لكنها نجحت ككل مرة فى إقناعى أن الأجانب يبحثون عن التغيير والمتعة، وستكون فكرة عرض منزل من الطين والنخل والقش فكرة منعشة جدا، وتجربة مثيرة، ففى حين أن الجميع يحاول تصوير الجزء الأفضل فى بيته وشرفاته الواسعة العالية، ومدخله الطويل الفخم، سنعرض نحن كم هى بسيطة جدا منازلنا التى تبدو كخيمات فى معسكر مؤقت، وبعشرة آلاف جنيه يمكننا أن نصنع منزلين مثل منزل أبى، وهذا ما كان يجب أن نفعله فى أسبوع واحد، قبل أن أسافر من أجل عمليتى.

حضر الأنفار وأحضروا النخل والجريد معهم، قسّمنا حوش منزلنا نصفين، نصف تسكنه الجاموسة القديمة والبقرة الجديدة التى سيشتريها أبى، وكذلك باقى الأغنام.. والنصف الآخر بالإضافة إلى جزء من حوش عمى مسعود، سيسكن فيه الزوار حيث سنبنى أحد المنزلين الجديدين، وبعيدا بمقدار سبعين خطوة تقريبا، سيكون المنزل الثانى على قطعة من أرض أبى الزراعية.. رفضتْ هالة الذهاب إلى الكلية طيلة الاسبوع، وكانت تعمل كادحة وكأن هذا

العمل هو حبل نجاتها فى الحصول على لقمة تسد بها رمقها، عاتبتها فى كل ساعة على جهدها، فتجاهلتنى هى كالعادة، لكن ما كنت أخشاه فعلا، دراستها، إذ خشيت أن أكون سببا فى فشلها، فى حين تحاول هى أن تكون سببا فى نجاح حياتى بأكملها، لكن بدا وكأنها تعلم أن تلك الأيام هى آخر أيامها معى، ومع الجميع، توطدت علاقتها بأختى بسنت، وبأبى كذلك، إلا أمى فقد كانت تنظر لكلانا بشفقة، فدائما ما يصدقها قلبها.. وكان يقول فى هذه اللحظة، أن حبيبتى لن تدوم طويلا. اتصلتْ بإحدى صديقاتها فى العاصمة، لتحضر لنا أقمشة ملونة من أجل الستائر والمفارش، وعندما حضرت الأقمشة بعد أربع ساعات من اتصالها، أخذت عينة صغيرة من كل نوع، وأخذت حاسوبها المحمول ودخلت غرفتى وأغلقتها عليها، ولم تسمح لأحد بالدخول إلا أنا بعد أن جعلتنى أعدها أنى لن أعترض على شىء..

وأمام الحاسوب ولمدة ساعتين، صممت حبيبتى ثلاثة بيوت مختلفة فى توزيع المساحات وأشكال الواجهات، والديكور الداخلى بالأقمشة والمصابيح الزيتية، والشجيرات الصغيرة، أمرتنى أن اختار تصميمين فاخترتُ اثنين، أى اثنين، لا أدرى كيف كانت تخاف من أن أعترض على شىء، وأنا لا أجيد إلا الكتابة وهى تجيد كل شىء. رأى أبى التصاميم وكان مبهورا مما يمكن لهذا الحاسوب أن يفعل، واختار الجميع تصميمين وبدأنا التنفيذ على التصميمين الفائزين، وبالفعل وبعد أسبوع من الحفر فى الأرض وقص القماش، وحمل القش والجريد، والطبخ الكثير للأنفار، حمل أبى الحاسوب من يدها ودخل أحد المنزلين، ثم سمعناه يصيح..

"يا سبحان الله "!!

مرّ هذا الأسبوع سريعا بالرغم من كل العناء الذى ذقناه جميعا، وفيما بعد، أقسمتُ أنى لو كنت أعرف أنها سترحل لما رضيت لأن نقضى هذا الأسبوع فى البناء والصراخ، لو كنت أعلمُ، لخططت لأن يكون هذا الأسبوع مثل ذاك الشهر من بعده، الشهر الذى كانت فيه زوجتى، والشهر الذى خدعنى بعد متعة، وأجبرها على الرحيل برحيله.

اسمه السعيد، ولقبه السعيد المرح، قابلته هناك فى العاصمة، لا يختلف كثيرا عن باقى الرجال فى باقى المدن، غير أن مرحه يخالطه كآبة مستخفية، أتى إليها لمّا علم أنها بحاجة إليه، عانقها طويلا وكأنها كانت تائهة منه فى قطب الأرض، أو كأنها خُطفت منذ أن ولدت، ولم يرها إلى فى هذه اللحظة، وكعادتها بكت هى فى صدره. أعلمُ أنه يراها الآن مختلفة تماما عمّا رآها فى آخر مرة، منذ أن كانت مارلين مونرو بشعرها الأشقر القصير وفستانها الأزرق، وبشرتها البيضاء. علم أبوها أنها أصبحت مستقلة ماديا بفضل مجلتها، وعلم أيضًا أنها حصلت على تاج ملكة جمال أفريقيا للمراهقات بشكلها الفرعونى الجديد، وعلم أيضًا أنها وقعت فى غرام شخص آخر بعد بسام، لكن فى عيادة الطبيب لم يتخيل أنه أنا من حدثته عنه، فحينما أنهى عناقهما الطويل، سألها..

"لقد ظننتُ يا بنتى أنكِ مريضة حين وجدتُ أن العنوان الذى أرسلته إلىّ، هو عنوان عيادة طبيب. هل يعمل حبيبك طبيبا هنا؟ أم أنه مريض؟ "

قالت:

"نعم، هو مريضُ قليلا"

فقال بمرح غريب:

"إذن نادى عليه.. أم أنادى أنا. لقد أخبرتنى أن اسمه زين"

فأجبتُ..

"نعم، سيدى "

فقال، وهو يضحك:

"يبدو أن اسم زين أصبح اسم الكثيرين اليوم وأنا لا أدرى، لا أقصدك يا بنى، لطف الله بك".

فقلت::

"من تقصد ؟ "

فقال:

"حقا لا أدرى، إنه صديق ابنتى".

فقلت::

"ما لابنتكَ صديق اسمه زين غيرى".

بالطبع تخيلتُ من قبل، كيف سيتم هذا اللقاء الأول بينى وبين والدها، وهل يمكن أن أسميه اللقاء الأول؟ أم أنه اللقاء وفقط، لأنه قد يكون الأول والأخير! قام من على كرسيه الذى جلس عليه لتوه بعد عناق ابنته، واقترب منى فى صمت.. وقبل أن يلفظ بأى شىء، أو يتغير شىء فى ملامحه فيساعدنى ذلك على فهم رد فعله الأولى ناحية ما سمع.. قالت هالة:

«لم يكن البادئ يا أبى، كنت البادئة فى حبه، أنا من اخترته»

فلم يلتفت إليها.. قال:

«ماذا تريدُ يا بُنى ؟»

قلتُ، بعد أن قررت أن أختصر كل المسافات..

«أريد أن أتزوج بابنتك »

فقال:

«لم لا يبدو إلا العكس، أليست هى البادئة؟ »!

فقلت::

«حاجتى إليها أكثر من حاجتها إلى »

فظهرت ملامح الكآبة بين تضاريس وجهه المرح.. قال:

«لماذا تحتاج إليها؟ هل ستجن إن منعتها عنك؟»

فقلت: :

«لستُ مثل غيرى »

فقال:

«ماذا تقصد؟ »

فقلت: :

«أنى أحبها، وإن سمحت لى بقول ذلك، فأنا أحبها كما تحبها أنت، لكن أرجو ألا تقبلنى لأنى طلبٌ من طلباتها التى لا يمكنكَ رفضها لها، بل تقبلنى لأنك تستشعرنى، أعنى، أن توافق علىّ كأنك من رشحنى »!

فقال وهو ينظرنى دون أن يلتفت حتى جلس على أحد الكراسى الجلدية..

«تتكلم بثقة»

فقلت: :

«لأنها أخبرتنى بالكثير عنك »

«مثل ماذا؟»

«مثل أنك أبدا لا تعتنى إلا بسعادتها »

فقالت هالة:

"وهو سعادتى يا أبى".

(٢٢)

قال السعيد:

«حسنا، لكن أريد التعرف على والديك، أنا موافق بالطبع، لكن هل ترى أن ذلك قد يسعدهما؟ أن تتزوج فى بلدٍ غير بلدك، وأن يتم ذلك دونهما ؟»

فقلت::

«هما مثلك، لا يريدان إلا سعادتى، ثم إنى استأذنتهما فوافقا»

فقالت هالة:

«إذن، متى ؟ »

فلم يُجب أحد، فأجابت هى..

«إذن الليلة»

فأسرع والدها..

«أرى أن تنتظرى إلى أن تنتهى عمليته على سلام، إنه لا زال يستعد لها، وسيظل هكذا لإسبوع، فمن الأفضل أن ننتظر حتى تخرج على قدميك، فنحن لا نريد إخراجك الآن، ربما قد يصيبك التعب»

فقالت:

«لن يخرج، كما أنى لن أخرج.. سنتزوج هنا»

«ماذا تقولين؟ إننى سأظل هنا لشهرٍ كامل، لن يكون شهرى العسلى فى عيادة»

فقالت..

«إنها عيادة خاصة جميلة، يمكنكَ التجاوز عن ذلك »

الرأى رأى ابنته، كنتُ متعجبا، مع أنه رجل أعمال ناجح، أى رجلُ القرارات الصائبة السريعة، ولكنه باغتنا بسؤاله..

«صحيح يا زين، ما مصادر دخلك؟»

فقلت: مخفضا صوتى:

«مصاااادر؟ »

وأجابت هالة نيابة عنى، إجابة صادقة لكنها فاجأتنى، لم أكن أعلمُ أنى ذا مصادر..

«هو كاتب، كتب كتابه الأول من سلسلة طويلة سيستمر فى كتابتها، كما أن لديه منزلين ريفيين فى قريته، يؤجرهما للسياح عبر الانترنت »

ثم قالت.. ما لم يكن صدقا، لكنه صار كذلك بعد شهر..قالت:

«كما أنه يمتلك اثنى عشر بالمائة من أسهم BTM »!

فقال:

«صدقنى، كنت سأوافق على أية حال، لكنى أردتُ أن أشعر أنى والد العروسة الذى يستفسر من طالب زواجها عن عمله»

«بالطبع لك هذا كما أنك رجل أعمال، ولذا فهذا ما أظن أنك يجب أن تركز عليه، لقد علمتنى ابنتك الكثير فى عالم المال، شكرا لكما»

حضرت أول دفعة من إيجار المنزلين على حسابى البنكى، كان شعورًا رائعًا، ليس المال، لكن كونى أملك حسابا بنكيا، استطعتُ بالمال أن أستأجر شقة أعلى العيادة التى سيقوم فيها الطبيب بكسر قدمى الملتوية ثم جبرها على الطريقة الصحيحة !

فوق العيادة، وفى غرفة نومنا الجديدة، وفى أول ليلة من شهر عسلنا.. اكتشفتُ فى اللحظة الأولى ذلك الفرق بين ما يتم بالزواج، وما يتم بغير زواج، ذاك التباين فى المشاعر، ما بين الاطمئنان والاضطراب، وإحساس الملكية وإحساس السرقة، والخوف مما سيحدث فى المستقبل واللهفة إليه.. أو تلك الكلمات التى كنت تكبح نطقها ثم وجدتها تنزلق من طرف لسانك، حتى عندما ضممتها فى صدرى أحستْ هى بإحساس غريب غير إحساس الضمة الأولى (قبل الزواج). فى هذه الليلة، شعرتُ أنها تتلاشى شيئًا فشيئًا، كانت أكثر هدوءًا من ذى قبل، أقل كلاما، وأقل قوة.. وأكثر مرونة، كان بها شيئًا من القداسة يشعرنى بالإثم كلما لمستها، مع أنى الآن

زوجها، وبنبرة نقية هادئة وكأنها الفطرة تتحدث.. سألتنى:

«هل تشعرُ براحة فى قلبك وضميرك يا أنا ؟ إننى أشعر بغرابة حتى فى رائحتك !»

لا أدرى لماذا كنت خائفا بينما تتحدثُ إلى!؟ كنت أرى أنها ليست بخير..

«نعم يا أنا، أشعر أن ضميرى بخير، ولكن أرى أنكِ لستِ بخير»

«كيف ذاك ؟ »

«لا أدرى، لكن أتخيلُ أننا فى بحر وأنتِ فى أعماقه تختفين شيئًا فشيئًا، ولا يمكننى اللحاق بكِ، أنا خائف عليكِ يا أنا، هل أنتِ بخير ؟ »

فارتعشتْ أطرافها ثم أخذتْ أنفاسا قصيرة متقطعة ثم هدئتْ وقالت:

«أنا لستُ بخير، لكن لم يعد يمكننى التفكير فى نفسى وأنا بين يديك.. أمست راحتى فى حضنك»

رفعتْ رأسها بثقل من فوق وصدرى، ومن بين أذرعى، ثم أزاحت شعرها من أمام وجهها فتدحرج مسترخيا على صدرى، واستطاعتْ النظر إلى..

« هل ترانى جميلة ؟ »!!

فأجبت فورا، والخوف يزداد بداخلى..

«بالطبع يا أنا أنتِ أجمل امرأة فى الكون، لماذا تقلقنى عليكِ بأسلتكِ تلك ؟»

فسألتنى سؤالا آخر وبخار الشتاء يخرج من فمها ليدخل فى دوّامة بخارى..

"هل كنتُ سأنجح فى أن أكون بين يديكَ الآن، لو لم يكن لدى ما تستمتع به ؟.. لو لم أكن جميلة"!

"أيقنتُ الآن أنكِ لستِ بخير، لماذا أشعرُ بالوداع فى كلامك؟ إنها ليلتنا الزوجية الأولى يا حبيبتى، أجبتُ سؤالكِ هذا من قبل حين أخبرتكِ أنه لو كان من فتاة أخرى لها قلبكِ ولا تمتلك جمالكِ لأحببتها كما أحببتكِ".

صمتتْ، وخدّها يستلقى على جبهتى، وفمها قريب من أذنى، وضربات قلبها تدق على صدرى، دقات ضعيفة وجلة، كجائعة فى ليلة ممطرة تستحى وهى تدق باب أحدهم ليطعمها أو يحفظها من المطر، وكأنها تتمنى أن لا يُفتح لها !

"يا ويحى، أصابعكِ باردة يا أنا، يجبُ أن نرى طبيبا، أصبحتُ لا أحتمل رؤيتكِ تضعفين أمامى يوما تلو الآخر"

قالت وفمها فى إذنى..

"أشعرُ أنى إن خرجتُ منكَ سأموت، أبقنى فيك"

"إذن دعينى أسحب الغطاء علينا، كونكِ عاريةً مع ارتجافكِ لا يطمئننى "

فى الصباح، استيقظتُ متأخرا، فقد سهرتُ طيلة الليل أتأملها نائمة، وأحاول تدفئة أطرافها.. استيقظتُ مفزوعا، فقد نمتُ غصبا عنى،

وخشيتُ أن أصابها مكروه أثناء نومى، ثم لم أجدها بجوارى.. ناديتُ بأعلى صوتى كأنه صراخ..

"هاااالة"

فسمعتها تضحك بقوة قبل أن تدخل..

"هل خشيتَ أن أهرب، هل خفتَ أن يكون زواجى منكَ بالأمس مجرد حُلم "

فابتسمتُ بعد أن استوعبتُ ما حدث، وقلتُ:

"تبدين بصحة جيدة، ما هذا الضحكة العالية ؟"

فدخلتْ علىّ، استدارت حول نفسها مرتين، رافعة ذراعيها لأعلى كراقصة بالية..

"ما رأيك؟"

كانت ترتدى فستانا حقيقيا !، فستانا أحمر وقد ربطت شعرها كذيل حصانٍ بشريط طويلٍ وردى.. ما كنت أتخيل أن تكون زوجتى بخلاف الجميع، ترتدى فستانها فى صباح ليلتها الأولى..

"يا إلهى، أخيرا لا ترتدين الجينز ولا جاكيت، تبدين كرومانة يانعة هههههههه"

فأمسكت بطنها، وقالت:

«لا تُجبرنى على الضحك، ستنهى مخزون الضحك عندى ولا زلنا فى الصباح»

«أدام الله ضحكتك.. لكن، هل سئمتِ منى بهذه السرعة، لمن تبرجتِ هكذا؟ وإلى أين ستذهبين ؟ »

فقالت تتعجب:

«لن أذهب لمكان لست فيه، أنا أرتدى فستانى لك»

ثم قالت فى أسى:

«أردتُ أن أريكَ شيئًا من الماضى الذى حكيته لك، كان فستانى الأحمر هذا ذكرى من ذكرياته، أتمنى لو استطعتُ أن أعود بشكلى كله كما كان، كنت ستبهر وتقدّرنى أكثر من هذا يا أنانى »

«أتعرفين كيف أصبحتُ أعرف أنك بخير ؟ »!

فقالت وهى تقترب وتجلس على حافة السرير:

«كيف؟»

«حين تبدئين السخرية من كل شىء، أعرف أنكِ بخير».

فى اليوم الخامس حضر إلى الخبر السعيد، لقد انتهت المرحلة الأولى من طباعة الكتاب، فقد تمّتْ طباعة الورق، وتبقى الغلاف والتجليد، وهاتين

المرحلتين سيتوقف العمل عنهما إلى حين تصليح عطلٍ فى أجهزتهم. كنتُ قد أصبحتُ شبه مهيأ للعملية، فقد أنهيتُ كل الأدوية التى طُلب منى تناولها، وأخبرتُ الطبيب أنى وصلتُ لمرحلة القبول النفسى للعملية، وحينها حدّد الطبيب موعد العملية فى صباح اليوم التالى، فقفزت هى من الفرحة..

"ماذا دهاكِ ؟ إننى من سيكون مغشيا عليه بمفرده بين مجموعة من الرجال يتناوبون على كسر قدمى، ثم يحاولوا إصلاحها، هل أخبركِ الطبيبُ أنى ذاهبُ لرحلة إلى الهند مثلا ؟"!

"أنا فرحة لأجلك، فبعدها ستقوم بخير "

"لا، يجبُ عليكِ أن تبكى، لو كانت أمى لفعلتْ ذلك"!

فابتسمتْ إلى الطبيب، ثم قالت:

"حسنا حسنا، سأبكى حين تقف".

أنزلونى من شقتنا إلى العيادة فى صباح اليوم التالى، كانت آخر وجه أراه...... ثم أول وجه أراه حين أفقتُ، شعرتُ أننا لا زلنا فى الصباح، أو أننا فى الصباح الذى يليه، لكننا كنّا فى عصر نفس اليوم، رأيتُ أمى تبكى وأبى بجوارها يضحك، فأصابتنى الكآبة، فقد ظننتُ أنى لا زلتُ نائما أحلمُ تحت تأثير المخدّر.. لكنها كانت الحقيقة، فقد حضرتْ أسرتى بأكملها وكذلك (لؤى) دون أبوه، العم مسعود، فقد بقى ليرعى بهائمه وبهائمنا. ولمّا جنّ الليل،

كنتُ قد أمسيتُ أستطيع إكمال الجُمل وفهم المزاح، وتمييز الأصوات، وحين عاد عقلى كما كان قبل أن أدخل غرفة العمليات، لم أجد أحدًا إلا هى، أخبرتنى أنهم ذهبوا، وأن والدها حضر أيضًا ليطمئن علىّ.. أو عليها، وذهب أيضًا، طلبتُ من الطبيب أن يسمح لى بالصعود إلى شقتنا بالأعلى، ورفض فى أول الأمر، ثم سمح لموظفيه بحملى فى اليوم الثالث.. وكنتُ أعلم مسبقا أنه لن يكسر تلك الخرسانة المسلحة البيضاء التى تسجنُ قدمى إلا بعد ثلاثة أسابيع، وبانتهاء الأسابيع الثلاث انتهت فترة الاستشفاء، وانتهى شهر العسل، لكن شيئًا واحدًا لم ينتهِ..التغليف والتجليد، تواصلتْ هالة مع مدير النشر ذاك فأخبرها أن السبب عطلٌ كبير، وأنهم يعملون منذ عشرين يومًا على إصلاحه، فبدا علىّ الاستياء، فأخبرتنى أن أفرح.. فقد يكون هذا اليوم، هو ذلك الذى أقف فيه على قدمى الأصلية، وساقى الاصطناعية.

كان ذلك اليوم فى رحلتنا الطويلة، كتلك الدقيقة، التى تتوه فيها بسيارتكَ داخل ثورة ضباب على الطريق، ثم وبمرور هذه الدقيقة، وخروجك من الضباب، تكتشفُ أنك وصلت..

نظرتُ إليها والطبيب عند ساقى، كنت جالسا على حافة السرير فى شقتنا المستأجرة، وكانت تقف إلى جوارى.. قال الطبيب:

«لقد وصلنا إلى النهاية يا زين، لا مزيد من الإرهاق بعد الآن».

حرّكت هالة رأسها صعودا وهبوطا لثلاث مرّات، وهى لا تقدر على قول

شىء، فتذكرتُ لؤى فسألتُ الطبيب بلهفة مترددة..

«هل يمكنُ للفرحة العارمة أن تُخرس إنسانا للأبد».

فقال:

«ليس مجالى، لكنى أعلم أن الحزن العارم، هو ما يقدر على إخراسه ».

ثم تابع بعد أن وقف على يسارى..

«الآن، قف»

أمسكَ بكفى الأيسر وأمسكتْ هى بيمناى، شعرتُ بالنبض فى يدها فقبّلتها.. ثم وقفتُ..

لا زالت يدىّ فى يديهما، أتمسك بهما كأنى على سفح جبل، حاول الطبيب انتشال يده من يدى، فضغطتُ بكل أعصابى على يده، حتى كادت نظرته أن تعترف بالألم.. تكلم:

«اهدأ يا زين، يمكنك ترك يدى الآن، أنت تعتمد على نفسك، ركّز على ساقيك ليس أيدينا »

ثم نزع يده على بغتة، فخطوت أول خطوة سريعة منذ ما يزيد عن أربع سنين، خطوة واحدة استدرت بها إليها حتى تمكنتُ من أن أعلق يدى الحرةُ فى يدها الأخرى. رفعتْ رأسها ببطء حتى نظرتْ إلى، انزلقت دمعتها تقابل بوادر البسمة على شفتيها، خفتُ ألا تتكلم ثانية.. نطقتُ اسمها:

«هالة »

أجابتنى بعد صمت، خفت فيه أشد خوف فى حياتى..

«نعم، يا أنا»

«إننى واقف»

قالت، ولا زالت تدمع..

«نعم، أرى ذلك، لأول مرة أرفع رأسى كى أنظر إليك»

حرّرتُ يدًا واحدة مسحتُ بها دمعتها.. ثم حرّرتُ الأخرى، شعرتُ فجأة أنى سأقع فارتميتُ عليها، كان عناقا طويلا، استطعتُ بعده أن أقف معتمدا على ساقىّ.. تنفستُ، ضحكتُ.. ثم مال رأسى على رأسها..

«حين كنت أجلسُ دوما بالأسفل، كان يمكننى أنا أرى منكِ ما لا يمكنُ لأحدهم أن يره إلا أن ينحنى.. أريدُ العودة كما كنتُ»

فلكمتنى فى بطنى فسقطتُ أصرخ على السرير.

(٢٣)

انطلقنا من جامعتها، حيث آخر مكانٍ أجبرتنى على زيارته، إلى الوطن الأصغر والأعمق، قريتى.. حيث سيشاهدوننى أقف، وأخطو خطواتى إليهم، وأنحنى كى أنظر إلى القصير فيهم، تماما كما كانوا يفعلون لينظروننى.. سمعتُ فى مخيلتى زغاريد النساء، وتكدّس الناس أمام بيتنا، وتذكرتُ خالد، ذلك الطالب المجتهد الذى سبقنى طيلة حياتى الدراسية معه، والذى يوم أن سبقته بُترت ساق، تصوّرتُ ذهول لؤى، وتخيلتُ أمى تبكى، وأبى يضحك وبسنتُ تجلسُ أخيرا على كرسي المتحرك وتلهو به، وفرج يتعلق بساق الجديدة فى حزن بائس..

"وعدتنى أن تحضر لى حواوشى كبير الحجم إن وقفت من جديد "!

فى طريقنا، تخيلتُ هالة، وهى تتأمل فى كل الأرواح التى أسعدتها، وهى تنظرُ إلىّ من خلفى بينما أتقدمُ أنا إليهم، وكذلك خطر ببالى صورة جانبية للمنزلين الجديدين، مشروعان صغيران من مشاريعى التى ستدر على المال بكثرة، ومرّت أربع ساعات حتى حدث تماما كل ما تخيّلته.. ثم كان ما لم أتخيله أبدًا.

حاول لؤى أن يصنع لى طريقا من بين الناس كى أتمكن من دخول المنزل،

فأحزننى أنهم لم يستجيبوا لأخرس، ولمّا رآنى الناس أخطوا خطوتى الأولى أمامهم، اصطفوا فجأة عن يمينى وشمالى، وحتى صنعوا لى طريقا سالكا من بداية حوش منزلنا إلى باب المنزل.. صفّقوا وسرتُ بمفردى، صحيحٌ أنى كنت أخشى السقوط، أو للصدق، كنت أخشى من أن ينحنى الجميع ليرانى إن سقطتُ، قاومتُ وأنا لا أنظر إلا على الباب الذى لم يسقط قط، الشامخ دوما بين النخلتين، كانت هالة تسير ببطء من خلفى وتصفق مع الجميع، أمى تبكى عند الباب وأبى يربتُ على كتفها ضاحكا، وبسنتُ وفرج فى شباك نافذتى يهتفون باسمى كأنى.. كأنى فى انتخابات. كانت الخطوة الأخيرة ثم وضعتُ يدى على أحد جناحى الباب رفعتُ ساقى الأولى حتى اجتزتُ خشبة العتبة الماهوجينية، رفعتُ الثانية الاصطناعية، ثم استدرتُ.. بالداخل أصبحتُ، ولا زالت هى بالخارج، مددتُ يدى إلى زوجتى فوضعت يسراها على صدرها، وتنفستْ، ثم ناولتنى يمناها، تخطت العتبة، وحضنتنى.. أسندت رأسها على كتفى، عطستْ عطسة قوية أضحكتنى وأضحكت الناس أمام منزلنا، شعرتُ بثقلها بين يدى.

«هالة »!

لم تجب، ورأسها مسترخٍ زالت على كتفى..

«كفانا عناقا بين الناس الآن.. هالة ؟»

خرجت بسنت من غرفتى، من خلفى صرخت بأعلى صوتها، شعرتُ بسيل دمٍ يجرى على ظهرى.

فى نفس العربة التى أوصلتنا، وصلنا إلى العاصمة ثانية، كانت قد استفاقت بعد أن نظفتُ فمها من الدم.. لا تنظر إلا شىء إلا إلىّ، وحدى، حتى حين تغيب عن وعيها أحيانا ثم تستفيق، تبحث عنى بعينيها حتى تجدنى فتبتسم وتظل تنظر إلى..

«أنا السبب يا هالة، أعرف أننى أخذتُ كل الوقت فى علاجى ولم يبقَ من الوقت شىء كى نستكشف ما بكِ، أرجو ألا يكون شرًا كبيرًا، لم أتخيل هذا من قبل»

فقاومت حتى استطاعت قولها وهى تبتسم بصعوبة..

«بل تخيلته من قبل، وأخبرتَ الجميع»

«لا أفهم يا حبيبتى، ما أخبرتُ أحدا بشىء لم أتخيله أصلًا، أرجوك، إن كنتِ متعبة فلا تحاولى الكلام، أوشكنا على الوصول».

قالت وهى تحاول سحب يدى لتلامس بها خدّها..

«ألم تُخبر جميع القرّاء فى قصتك الأخيرة، أننى سأصاب بسرطان فى الرئة»

فانهمر الدمع الصامت فى عينى..

«لا يا حبيبتى لستِ أنتِ، لا يمكن أن تكون أنتِ، أنتِ معى للأبد.. والقصة لم يقرأها أحدٌ بعد».

ثم مزّقتُ أزرار حقيبتها وأخرجت هاتفها واتصلتُ بمدير النشر، أخبرنى أنه

قد تم إصلاح العطل، وأن التغليف سيبدأ من الصباح، فاستسمحته إن كان يمكن أن يمحو القصة الأخيرة، فقال:

"نعم، بشروط......."

ثم كلاما كثيرا لم أهتم به، ولكننى وافقتُ على كل ما قال.

فى المستشفى العام، وفى الطابق الثانى، كان الممرضون يجرون بها فاقدة الوعى على سرير بعجلات، وكنت لا أدفع السرير معهم بقدر ما أستند عليه وأنا أعضُّ على شفتى بأسنانى، دخلنا غُرفة بيضاء، فصُعقتُ لمّا لمحتُ طبيبًا عجوزًا مصابًا بالبرص، وبعض شعره قد صبغه الشيب.. تذكرتُ القصة، وارتعدت فرائسى.. خرج من الغرفة ثم دخل، ثم خرج ليحضر شيئًا ثم دخل، سحبتُ يدى من يدها واتصلتُ ثانية.. صرختُ باكيا:

"أخبرتكُ أن تلغى القصة الأخيرة، لا أريد نشرها، لا أريد نشر أى شىء، أوقف العمل.."

ثم ازداد صراخى وأنا ابتعد عنها شيئًا فشيئًا وأقترب من النافذة..

"مزّق كل شىء من أجلها أرجوك"

فانقطع الاتصال.. ثم خرج الطبيب المصاب بالبرص، انتظرتُ أن يدخل ثانية فلم يدخل، مسحتُ دموعى وأنا أخشى الاقتراب منها، كنتُ أتخيل أن بيدى خنجرا وأنى سأقتلها به، حتى أننى كنت أنظر إلى يدى ثانية بعد ثانية.. وكانت هى نائمة، أو.. !

دخلت طبيبة حديثة التخرج أو أنها طالبة لا زالت تتدرب، ولمّا نظرتْ إليها تسمّرت عيناها عليها.. قلتُ بصوتٍ مرتعد..

«لا تخبريني بما تقولونه دائما.. ها، لا تخبرني بشيء، ما بالكِ؟ هل ترين فيها شيئًا لا أراه؟ هل هي بخير؟ »

اقتربتْ منها ولم تُجب علي، كان كل تركيزها على هالة، كانت تُسرع في توصيل أسلاكٍ متداخلة، وحقن محاليل ملونة.. ثم سحبت قطرة دم صغيرة منها، وخرجت تهرول، كنت بمفردي معها، لا زالت نائمة أو.... لو كانت شيئًا آخر لأخبروني، أو لماذا أخذوا منها قطرة دم، إن كانت غير ذلك؟! إن كانت غير نائمة!

.. دخلتْ المتدربة ثانية، لكنها، دخلتْ كزائرة أكثر من كونها قد تعرفُ شيئًا عن الطب، وضعْت يدها على صدر حبيبتي، ثم انحنت تقبل رأسها، كانت قطرات العرق قد بدأت تتبلور وتنمو فوق جبهة حبيبتي.. دخل العجوز ذو البرص، فتسارعت نبضات قلبي، ووضعتُ يدي فوق جيبي أستعد كي أخرج الهاتف، جلس على مكتبه، ونظر إلى المتدربة..

«أشعرُ بالأسف، صديقتكِ مصابة بسرطان في الرئة.. في مرحلته الأخيرة».

فتحتْ هالة عينيها، ثم بحثت عني إلى أن اصطدم نظرها بي عند النافذة، ابتسمتْ لي.. لوّحتُ بيدي حتى استطعتُ أن أُمسك بستار النافذة، سقطتْ النافذة، فسقطتُ فوقها.. انخلعت ساقي تتدحرج، وتزحلقت يدي، فصرخ عظمي على الأرض كصراخ صندوق ألعاب خشبي يتحطم.

(٢٤)

فتحتُ النافذة لأسمح لشيء من نسمة الليل بالدخول، تماما كما كانت تفعل فى غرفتى الخشبية فى قريتى، حين تلتف حول سريرى وتفتح النافذة، ثم تجلسُ إلى جوارى، وتحتضن ذراعى.. جلستُ إلى جوارها، حرّكتْ جفنيها وقالت:

«كم أتمنى أن أنهض جالسة وأستند إلى ذراعك».

فقلت::

«يا هالة، لم أكن أتخيلكِ عندما كتبتُ القصة، لقد اتصلت بهم، وأخبرتهم أن يحذفوا القصة الأخيرة، لقد كرهتها »

«أما أنا فأحببتها، إننى محظوظة ألا ترى ذلك ؟ إننى الوحيدة من استطاع زوجها أن يخبرها كيف ستكون النهاية «!

«لا، لا تقوليها.. لا تجبرينى على نعتكِ بالأنانية، أنتِ لستِ مثلى... ماذا سأفعلُ بدونكِ ؟»

أغمضتْ عينيها..

«اهدأ، فأنا لا أحتمل الصراخ الآن، أصبحتَ قويا بما يكفى، لكنّ شيئًا أخيرًا لم أعلمك إياه.. حين تتأكد أنها النهاية، وأنك بالفعل تشعرُ بالألم رغم تنكركَ للجميع، فى تلك اللحظة.. ابكِ يا أنا».

فانهرتُ..

«لكنى لا أشعر أنها النهاية »

فقالت:

«لكن صدرى يخبرنى أنى اقتربتُ كثيرا، السرطان فى مرحلته الأخيرة، هذا ما قاله الطبيب. وما لم تفهمه بعد أنه لم يعد بإمكانهم إنقاذى».

مرّ وقت طويل بعدها، وأنا أحاول منع اهتزاز جسدى واضطرابه كى لا تشعر ببكائى.. لكنها قالت:

«لا تكبح نفسك، ابكِ بكل قوتك، هذا سيريحكَ وسيطمئننى، فإن بكيتُ فهذا يعنى انكُ ستنتهى يوما من البكاء وتبدأ من جديد، وإن لم تبكِ، فهذا يعنى انك انتهيت للأبد»

فارتجّ سريرها من اضطرابى، وصدح المشفى بصراخى..

فى مساء اليوم التالى، سألتنى..

«هل ستحكم على بالخائنة إن أخبرتكَ أنى أتذكر بسّام فى ليالى الأخيرة تلك؟ إننى أشعر بالذنب تجاه ما حدث له، إنها غلطتى الوحيدة يا زين».

«لا يا حبيبتى، ليست غلطتكِ، لم يكن الذنب ذنبك، كما والدكِ. الخطأ كان فى بسّام. علّمتنى أن الحب كما يقوّى يُضعف، وأنه كما يّشيدُ يهدم، وبسّام من سمح لحبه بإضعافه وهدمه »

فقالت:

«إذن، ستكون أنت من أولئك الذين يقويهم الحب»

«من ذا الذى تحبينه ولا يقوى ؟ »

أضفتُ بعد ابتسامتها:

«لدى سرٌ لم أخبركِ به»

قالت وقد بدت بصحة جيدة للحظة:

«لو كنتُ بصحة جيدة لقاتلتك حتى تستسلم أو قتلك،.. ما الذى لم تخبرنى به إلى الآن».

«أنا السبب فيما حدث للؤى، فقد لؤى عاش جزءًا من طفولته يتكلم حتى أخرسته.. فى المدرسة الابتدائية اتفقت معه على الانتقام من خالد المحبوب من الجميع إلا نحن الاثنان حين ذاك، كنّا نكرهه كما نكره كل المعلمين من حاملى العصيان، أخبرتكِ من قبل أن خالد لم يُضرب بعصا من أستاذٍ طوال الابتدائية، وهذا ما كان يُشعرنى بالغيرة، ومع أن لؤى أصابه الخوف مما نويتُ فعله ومع أنه قال لى حين كان يقدر على القول إنها خطة غير

جيدة، وقد يتأذى خالد بأذى كبير نفصلُ بسببه من المدرسة.. فأخبرته أن الأمر هيّن وأن خالد سينسى كل شىء إذا نجحت خطتى، سينسى كل شىء حتى من فعل به ذلك، وزدته طمأنة فأخبرته أنه سيأخذ النصيب الأقل من الخطة، أما أنا.. فأنا من سيشد الحبل، كى أشده بقوة، فيسقط على رأسه وينسى كل الدروس التى ذاكرها.. هه، كان أبى يخبرنى فى صغرى وأنا أحمل بسنت بين يدى أنها إن سقطت على رأسها فستنسى اسمى".

سمعتُ صوت ضحكتها، فأسرعت أقبّلها كلها..

"يا الله، تخيلتُ أنى لن أسمع ضحكتكِ ثانية، وها أنا أسمعها، أخبرتكِ أن ليس كل ما أتخيله يحدث".

وكانت آخر ضحكة مجاهدة معافرة سمعتها..

"المهم، كان من عادة خالد أن يصعد فى نهاية كل يوم دراسى إلى حجرة المدرسين ليناقشهم فى بعض الدروس والأسئلة ثم ينصرفُ كطالب مجتهد، ربطتُ الحبل فى قائمة العمود الدائرى عند الدرجة الأخيرة السفلى من درجات السلم، كان الحبل هو حبل الكلب عندهم، وكان قد سرقه من والده فى صباح ذلك اليوم قبل أن يأتى إلى المدرسة، بعد أن أقنعته أن الكلب لن يمضى بعيدًا عن منزلهم لأنه لا طعام للكلب إلا فى بيتهم كما أننا سنحضر الحبل ثانية فى إيابنا. كان دور لؤى أن يقف فى منتصف السلم، ويسب خالد ثم يجرى نازلا فيجرى خالد خلفه، ثم يأتى دورى وهو أن اشدّ الحبل بعد أن يقفز لؤى وحين يأتى دور خالد للقفز وراءه.. وهذا ما حدث، سبّه

لؤى ثم جرا، قفز قفزة قصيرة، وحين كان خالد فى الهواء قافزا، شددتُ حبل الكلب، سقط خالد على وجهه أسفل السلم، وبعد أن رأيتُ لؤى ينحنى ليفك الحبل، استخفيتُ مسرعا.. لم يكن ثمة عراك بينهم، لم أسمع صوت لؤى ولا صوت خالد، أخرجتُ إحدى عينى من مخبئها خلف السلم، كان لؤى قد توقف عن فك الحبل ووقف كالعمود بجوار العمود ينظر إلى الأرض حيث خالد، قام خالد، والجرح غائر فى رقبته.. لم ينسَ اسمه، صرخ بأعلى صوته (لؤاااى)، فمات كل صوت فى فم لؤى، ومن بعدها لم يتحدث يا عزيزتى».

قالت:

«أهذه قصة قصيرة أخرى من تأليفك، لو كانت كذلك لنصحتك بإضافتها للكتاب، هل قال لؤى لأحد أنك من فعل هذا به ؟ »

فكانت إجابتى أن لا، وأن لا أحد يعلم إلى الآن أنى كنتُ هناك، حتى خالد.. أضفتُ:

«أرأيتِ لكلٍ من أسراره وذنبى هذا هو ما تجب فيه التوبة والأسف منى، لأنى الفاعل، أم أنتِ فلست الفاعلة يا حبيبتى، لستِ السبب الرئيسى فى جنون بسّام»

فقالت:

«أرحتنى»

فحمدتُ الله سرًا على أنى لا زال يوجد من يحبنى رغم كل ما اقترفته، وبعد

اثنين وثلاثين ساعة، كانت نائمة، وكان بسّام ووالده الممسك بيده يقفان حول السرير، وبجوارهما الشريكات الأربعة، وبجوارهن صديقتها الطبيبة المتدربة وكان أبى والعم مسعود وأمى ولؤى وابن البوّاب والدكتور علّام وفرج وبسنت... والسعيد المرح، وكنتُ أنا جالسًا ممسكًا بيدها، وكانت عيناها مغمضتين وبشرتها برّاقة وحواجبها كثيفة وشديدة السواد لأول مرة، كانت حسنة وجهها مسترخية فى سلام على خدّها.. وشفتاها منغلقتان بإتقان على أسنانها.. وشعرها متناثر فى هدوء ثابت حول رأسها.. ودخل طبيبٌ به برص، وبه بعض الشيب!.. طبيبٌ عجوز أعرفه، وأكرهه.. نظر إلى شاشة من بين الشاشات ثم نظر إليها، ثم أعاد النظر إلى الشاشة، ثم تحرك ووقف عندى، أخرج يدى من يدها.. أمسك يدها.. نظر إلى السعيد المرح.. قال:

«ليس الآن..»!

ظل ممسكا بكفها.. صمتٌ عميق لا ينتهى، صمتٌ يصرخ فىّ دون صوت.. صراخ لم يقطعه إلا:

«..... الآن، البقاء لله»

....

«هذا اليوم الثالث يا زين يا بنى، ولم تنم.. إنه قضاء الله.. سيصيبك الجنون»

«يا إلهى أنا نائم يا أمى.. أنا متأكد من أنى نائم، ما يجب فعله هو الاستيقاظ،

لماذا لا توقظينى"

"لا حول ولا قوة إلا بالله، ليس حلما يا زين، لقد كنّا هناك جميعا، كانت حقيقة "

"ليست حقيقة، لأنها أخبرتنى أن أكتب أن على أحدهم أن يستيقظ، ليكتشف أن ما حدث لها كان حلمًا، لكن أحدهم نسى ولم يستيقظ. أنا غارق فى الحلم منذ ثلاثة أيام.. صدقينى أنتِ معى فى حلم الآن، أنتِ لست حقيقية.. ولا شىء حقيقى هنا.. إنه حلم، ستأتى الآن وتضربنى على كتفى حتى توقظنى ثم تحتضن ذراعى، ثم تخبرنى أنى أنانى.. أنتم لا تعـــ..........

بعد أيام من موتها، وبينما أبحث على شبكة الإنترنت عن صورها، تذكرت مارلين مونرو، كتبت فى خانة البحث (السيرة الذاتية لمارلين مونرو الحقيقية)، واكتشفتُ بعد عشر دقائق، أن مارلين الأمريكية لم تكن شقراء، بل هى من صبغته، ولم تكن تمتلك حسنة فى وجهها، بل كانت ترسمها بالحبر الأسود.. فخرجت من نافذة البحث تلك، وكتبتُ فى أخرى (مارلين مونرو الملونة).. فكان ما يزيد عن سبعة وتسعين ألفا من نتائج البحث، ضغطتُ على صورتها، فامتلأت الشاشة بها.. هالة السعيد، مارلين مونرو الحقيقية.

انتهت



تواصل معنا :

01067000701

E-mail:-Fasla.Pub@Gmail.com

Facebook .Com/Fasla .Pub